الفتنة الدجالية

ملامحها البارزة وإشاراتها في سورة الكهف

تأليف

الباحث الإسلامي الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني

المتوفى ١٣٧٥/١٩٥٦م

تعريب

الأستاذ محمد عارف جميل القاسمي الأعظمي

أكاديمية شيخ الهند

الجامعة الإسلامية دارالعلوم ، ديوبند ، الهند

سلسلة المنشورات : ٤٢

الفتنة الدجالية

ملامحها البارزة وإشاراتها في سورة الكهف

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/٢٠١٠م

الناشر

أكاديمية شيخ الهند

الجامعة الإسلامية دارالعلوم ، ديوبند ، الهند

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد سيدالمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمابعد:

فإنَّ أكاديمية شيخ الهند بالجامعة الإسلامية دارالعلوم، ديوبند ما زالت ولاتزال تنشر - بحمد الله ومنِّه - مؤلفات مشايخ الجامعة باللغتين: الأردية والعربية، وقد بلغت منشوراتها نحو٤٢ كتابًا حتى الآن.

فهذا الكتاب: «الفتنة الدجالية - ملامحها البارزة وإشاراتها في سورة الكهف» من مؤلفات العلامة الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني - رحمه الله - الذي كان من مشايخ الجامعة، وكان باحثا أديبا، سيال القلم، غزيرالعلم كثير الاستطراد، عالج الكثير من الموضوعات الإسلامية، وأثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته القيمة.

لقد جمع المؤلف - رحمه الله - في هذا الكتاب ما درسه في سورة الكهف من ملامح وإشارات إلى الفتنة الدجالية، وما استخلصه منها من دروس وعبر. وكان الكتاب باللغة الأردية، فاقترح الشيخ نور عالم خليل الأميني - حفظه الله - على الأستاذ محمد عارف جميل القاسمي الأعظمي - أستاذ بالجامعة سابقا -

بتعريبه، حتى يتمكن القراء العرب من الإفادة منه، فقام بتعريبه مشكورا. وقدنشره الشيخ على صفحات مجلة «الداعي» العربية في حلقات.

ثم وافق المجلس الاستشاري للجامعة على طبعه ونشره من أكاديمية شيط الهند، كما وسَّد أمرالإشراف عليه إلى فضيلة الشيط سعيد أحمد البالنبوري - حفظه الله - شيط الحديث ورئيس هيئة التدريس بالجامعة، فتابعه وأشرف على إخراجه في كتاب. فجزاهم الله خيرا.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب المترجم القراء كما نفع بأصله، وما ذلك على الله بعزيز.

فضيلة الشيط(**مرغوب الرحمن**) حفظه الله
رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم،ديوبند
١٠/ صفر١٤٣١هـ/ ٢٦/ يناير٢٠١٠م

كلمة المشرف

نحمد الله، ونصلِّي و نسلِّم على رسوله محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فمِمَّا يسرُّني أنَّ المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند، قرَّر طبع كتاب «الفتنة الدجَّالية - ملامحهاالبارزة وإشاراتها في سورة الكهف» لمؤلفه الباحث الإسلامي الشيط السيد مناظرأحسن الكيلاني المتوفى١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م. كما أمرفضيلة الشيط/ مرغوب الرحمن - حفظه الله - بطبعه على نفقة أكاديمية شيط الهند.

كان الكتاب ذاقيمةٍ علميةٍ، وكان باللغة الأردية، فقَبْلَ سنواتٍ أمرفضيلة الشيط/ نورعالم خليل الأميني - حفظه الله - الأستاذ محمد عارف جميل القاسمي الأعظمي بنقله إلى العربية، فقام بنقله خير قيام، ثم نشره في مجلة الداعي العربية الصادرة من الجامعة في حلقات متتالية.

فلما آن أوانُ إخراجه في كتاب وطبعه من أكاديمية شيط الهند، التمس المجلس الاستشاري من فضيلة الشيط/ سعيد أحمد البالنبوري - حفظه الله - شيط الحديث بالجامعة ورئيس هيئة التدريس بها أن يشرف على إخراجه في كتابٍ، فتفضل الشيط

بالإشراف عليه مشكورا.

أضفى الله على الكتاب مسحة القبول، وجزى مؤلف الكتاب ومترجمه والمشرف عليه أجزل الجزاء، وأوفى الأنصباء.

بدرالدين أجمل علي القاسمي

(المشرف على أكاديمية شيط الهند

وعضوالمجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية دارالعلوم،ديوبند)

١٠/ صفر ١٤٣١هـ/ ٢٦ يناير٢٠١٠م

مقدِّمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى وبعد:

فإليكم ما استخلصته من المفاهيم والرؤى من خلال دراسة سورة الكهف ومراجعتها. وسواء صح إطلاق «التفسير» أو «التأويل» عليه أو لم يصح؛ فحيث أصبح التفسير فنًّا بذاته وأصبح له آلياته ومتطلباته كفنٍ من الفنون أو كان عزو معاني ونتائج إلى القرآن الكريم – مما لا يكاد ينتقل إليه الذهن في العادة إلا قليلاً – ضاربا عرض الحائط الجانب الواضح من نصوص كتاب الله العزيز، إذا كان هذا ما يعنون بالتأويل فعليَّ أن أعترف بأن الذي يتم تقديمه بين أيديكم ربما لا يستحق أن نصفه بـ«التفسير» من هذه الناحية، كما لايصح أن يطلق عليه «التأويل»؛ فإنك تجد هذا الكتاب لايحتوي على الميزات الاصطلاحية لفن التفسير، فليس فيه قصص ولا روايات، ولا حاولنا تضخيم حجم الكتاب وعدد صحفاته من خلال الإكثار من نقل أقوال علماء التفسير. وكذلك فيما أحسن الظن بأن هذه النتائج الواضحة الصريحة المستوحاة من نصوص القرآن الكريم لا يسعنا أن نطلق عليها «التأويل».

مهما يكن فهذه الخدمة التي أقدمها كشفًا للشبهات لا أسميها «تفسيرا» وإنما سلكتُ في تسميته مسلكَ الحيطة والحذر وسميته «تذكيرا بالقرآن» (الفتنة الدجالية – ملامحها البارزة وإشاراتها في سورة الكهف) كأنني أتعرف بك على نوع أو قسم من خدمة القرآن الكريم من خلال التذكير دون التفسير والتأويل. فاعلم أن كاتب هذه السطور أراد أن يحذر نفسه ويشير على غيره أن يحذر نفسه. ومن خلال كلمة «التذكير» حاولت تحديد غرضي هذا، وأردت أن أقول ما سبق أن قاله الشاعر الأردي الراحل: أكبر الإله آبادي ومعناه بالعربية :

«أي يطير الناس فرحا بما يعلمون أن «المبضع» يعمل عمله سريعا في العملية الجراحية وهم في غفلة عما يعاني منه المريض من المتاعب والآلام التي كادت تقضي عليه» .

ربَّنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ، ولا يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء .

السيد مناظر أحسن الكيلاني

٢٣/أغسطس عام ١٩٥٢م

كيلان ، بهار

الفتنة الدجالية وملامحها البارزة

إن الحديث الشهير الذي يرويه المحدثون – أمثال أبي داود ، ومسلم ، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في كتبهم والذي ورد فيه الأمر – لمن أراد العصمة من فتنة الدجال – بقراءة أوائل أو خاتمة سورة الكهف[١]. وتطلق بعض الأحاديث أن قراءة عشر آيات من سورة الكهف تعصم صاحبها من هذه الفتنة دون تقييد بأوائلها أو خاتمتها[٢]، هذا الحديث ترويه دواوين السنة المذكورة أعلاه عن أبي سعيد الخدري ، وابن عمر، و ابن عباس رضي الله عنهم بألفاظ متقاربة.[٣]

---

[١] رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٤٣٢١) ١/٥٥٥-٥٥٦ من حديث أبي الدرداء ط : الحلبي ؛ وأبو داود في الملاحم باب خروج الدجال (٨٠٩) ٤/٤٩٧-٤٩٨ من حديث أبي الدرداء ط: دارالكتب العلمية ؛ والترمذي في فضائل القرآن) باب ما جاء في فضل سورة الكهف (٢٨٨٥) ٥/١٤٨-١٤٩ من حديث أبي الدرداء ط : دارالفكر ؛ والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٥٠-٩٥١) ص ٥٢٧-٥٢٨ . ط : المكتب التعليمي السعودي بالمغرب؛ وأحمد في المسند ٥/١٩٦ من حديث أبي الدرداء ط: الميمنية .

[٢] رواه أحمد في المسند ٦/٤٤٩ . والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٤٩) ص ٥٢٧ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «من قرأ عشر آيات من الكهف عصم من فتنة الدجال .

[٣] وتقول الروايات الموثوق بها : «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين». رواه الحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ،

وأما ما هو المسيح الدجال فلسنا بصدد البحث عنه ؛ إذ هي قضية مفردة بذاتها ، إنما يهمنا – هنا – تلك الفتنة التي نسبت إليه فيما تنبأ به الرسول ﷺ .

وبالنظر إلى كل ما سمعتَه عن الدجال أو نسبته إليه المصادرُ العلمية لا يعدو تعبيره العام أن يقال : إنه يُمَكَّنُ من التغلّب على بعض القوانين الطبيعية تغلبًا خارقًا غيرَ عاديّ ، ومن ذلك أن الأبعاد المكانية كأنها تُطْوَى في عهده وتعود لاشيء .

وما ورد في خصوص إسراعه في السير أنه كالغيث يشتد به الريح في يوم عاصف . هذا ما يفيده رواية مسلم بلفظ : «كالغيث استدبرته الريح».[١] وأنه لايترك بلدًا أو مدينة في

ولم يخرجاه ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى . (راجع : كنز العمال ١/٣٧٨ على مسند الإمام أحمد ، تفسير ابن كثير ٣/٧١ ط : دارالريان للتراث) ، في رواية : «من قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين جمعة أخرى». (عزاه صاحب كنز العمال ١/٣٧٨ إلى ابن مردويه من حديث عائشة رضي الله عنها وفي رواية : «البيت الذي يُقْرَأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة» . (رواه ابن مردويه والطبراني وأبو الشيط في الثواب عن عبد الله المغفل . راجع : كنز العمال ١/٣٧٨) ومن هنا توارث المسلمون الأتقياء المواظبة على قراءة سورة الكهف كل جمعة لزاما ، كما عرف فيهم توفير نسط عديدة لهذه السورة في المساجد ، وعلى الأثرياء أن يعتنوا بذلك .

[١] رواه مسلم في الفتن ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) ٤/٢٢٥٢ من حديث النواس بن سمعان . ولعل مما يسر على الناس إدراك هذا التشبيه النبوي ما يشهدونه اليوم من المركب الفضائي الذي نسميه «طائرة» . و أما ما اشتهر على ألسنة الناس من حمار الدجال فلا ريب أن هذا الحمار رغم ما لقي من الصيت الذائع غير أن الرصيد الهائل من الأحاديث الصحاح التي تتحدث عن الدجال – لا يتعرض لهذا الحمار الدجالي . وأما مؤلفات ابن عساكر وأمثاله التي تحتاج درجة رواياتها من الصحة إلى بحث و دراسة كبيرة ، فإنها تصرح بأن مركب الدجال هو الحمار ، بَيْدَ أنه بالنظر إلى

المعمورة، بل ولاقرية من قرى آسيا أو إفريقيا أو أوربا أو أمريكا إلا وردها في أربعين يوما . يدل عليه حديث ابن سمعان بلفظ : «فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة».[1] هذا فيما يتعلق بإسراعه في السير .

وحكى صاحب كنز العمال الخطبة المعزوة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه والتي تعرضت للفتن والملاحم التي ستقع في المستقبل فقال فيما قال – فيما يتعلق بالدجال –: «ينادى بصوت له يسمع به ما بين الخافقين».[2] مما يدل على أن البعد المكاني – ليس بالنسبة للسير فحسب بل بالنسبة إلى الصوت كذلك – يتلاشى في عهده ويعود أمرًا لا يُعْبَأ به . كما يروى المصدر نفسه

ما تلاه من صفات الحمار الموضحة – ومنها : أن عرض ما بين أذنيه ثمانون ذراعا أي أربعون باعا ، وتنص خطبة علي رضي الله عنه على أن طول كل أذن من أذنيه ثلاثون ذراعًا . (راجع : كنز العمال ٥٣/٦) و أعجب منه : «أن ما بين حافر حِماره إلى الحافر الآخر مسيرة يوم وليلة. (راجع : كنز العمال ٥٣/٦) –لو سلم صحة الرواية التي صرحت بحمار الدجال ، فإن لفظة الحمار يدل بعمومها على أن حقيقة حمار الدجال لتكون على خلاف ذلك ، والظاهر أنه نوع من التمثيل يقربه إلى الذهن ؛ فإن ما نراه من الحمر لا تحمل هذه الصفات إطلاقا . وإن الطائرات اليوم تصاغ مصاغ الأسماك فلا تعجب أن ياتي زمان تصاغ فيه الطائرات مصاغ الحمر.

قلت : قد ورد ذكر الحمار كمركب للدجال فيما رواه الإمام أحمد في المسند (٣٦٧/٣) في حديث طويل – عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «وله حمار يركبه ، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعا الحديث، قال الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب الفتن باب ما جاء في الدجال (٣٤٤/٧) : رواه أحمد بإسنادين رجال أحمدهما رجال الصحيح .

[1] رواه مسلم في الفتن (١١٩) ٢٢٦١/٤ .

[2] راجع : كنز العمال ٥٣/٦ على مسند الإمام أحمد .

عن طريق الحاكم في مستدركه حديثًا في شأن الدجال ولفظه : «إن صوت الدجال يسمع به ما بين الخافقين».[1]

كما تصرح الروايات بأن وسائل العلاج والتداوى وطرقها تتطور تطورًا هائلاً يمكن أن يبرأ الأكمه والأبرص.[2]

وتضيف : «سخرت له أنهار الأرض» مما ينم عن تقدم أجهزة السقي ، ووسائلها تقدمًا ملموسًا ثم زيادة لفظ : «ثمارها» تعني تسخير إنتاجات الأرض وغلاتها له ، وهذا من ضرورة تسخير أجهزة الإرواء والسقي له . وأضف إلى ذلك أن إمكانيات استخدام الأرياح الموسمية كأنه يهتدى إليها ونص الحديث ما يلي: «يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت».[3]

كما يظهر أن الدجال – علاوة على التغلب على الإنتاجات الزراعية – سيبدى عجائب في استخراج المعادن من بطون الأرض، ينص عليه حديث : «ويمر بالخربة فيقول لها» : «أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها».[4] وما نسبته إليه هذه الروايات من أنه : «يحيي الموتى» يدل على أنه يستطيع أن يحيي الموتى ، ويقدر عليه ، بل

[1] راجع : كنز العمال ٤٩/٦ .

[2] نفس المصدر .

[3] حديث : «سخرت له أنهار الأرض وثمارها» : قال الهيثمي في مجمع الزوائد ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الدجال (٣٤٦/٧) : رواه الطبراني وفيه راو لم يُسَمَّ ، وبقية رجاله رجال الصحيح . حديث : يأمر السماء فتمطر ... شطر من حديث طويل رواه مسلم في الفتن باب ذكر الدجال (٢٩٣٧) ٢٢٥٢/٤، راجع أيضًا : كنز العمال ٣٨/٦ .

[4] راجع كنز العمال ٣٨/٦ مع المسند . وروا مسلم في الفتن ٢٢٥٣/٤ .

ويريهم ذلك رأى العين[1] وقد صح أنه يقطع رجلاً حيًّا جزلتين ثم يضمهما ثم يحييه[2] . ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد ؛ بل تَأَمَّلْ هذا الجزء من الروايات الذي يصرح بأن من عجائب الدجال أنه يظهر على يده بعض الأرواح الخبيثة من الشياطين في صورة من قد مات من الآباء والأمهات والأقارب ، وتقول : إنها فلان وفلان ، وينص عليه حديث : «و يبعث معه الشياطين على صورة من قد مات من الآباء والأمهات والإخوان والمعارف فيأتي أحدهم إلى أبيه أو أخيه فيقول : ألست فلانا ؟ ألست تعرفني ؟.[3]

وفي رواية : «ومعه شياطين يشبهون بالأموات يقولون للحي: تعرفني أنا أخوك أو أبوك أو ذو قرابة ، ألست قد مت ؟.[4]

وفي الجملة يظهر أنه سيتم ادعاء إيجاد علاقة بين الأحياء والأموات كذلك ، كما نسمع أن هناك في أوربا وأمريكا من يستحضر الأرواح ويهيئ لأقاربهم الأحياء فرصة الحديث معهم ، وذلك عن طريق تحضير الأرواح (Spiritualism) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري - في حديث طويل - : «وإن من فتنته أن يقول لأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه

[1] رواه أحمد في المسند ١٣/٥ .

[2] راجع : صحيح مسلم كتاب الفتن باب ذكر الدجال ٢٢٥٣/٤ .

[3] راجع : كنز العمال ٤٥/٦ .

[4] قال الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب الفتن باب ما جاء في الدجال ٣٣٩/٧ : رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف جدا - . راجع أيضًا : كنزالعمال ٤٧/٦ .

فيقولان : يا بنيّ ! اتبعه ؛ فإنه ربك».[1]

وعلى كل فما يتمتع به الدجال من التغلب الخارق على القوانين الطبيعية يتجلى في هذا و أمثاله من العجائب مما يمكن الإلمام بتفاصيله في الأحاديث التي تتحدث عن الدجال . وأما الذي يصيّر الدجّال دجّالاً - فيما أراه - فإنما هو سلوكه الذي يتبناه في استخدامه هذه الصلاحيات الخارقة المتاحة له .

قصدي بذلك :

وأقصد بذلك أن التغلب الخارق ليس من شأنه أن يحوّل المرأ دجّالاً ؛ فإن القرآن الكريم يرشدنا إلى أن الاستفادة من القوانين الطبيعيّة بالتغلب عليها مما يتطلبه منصب خلافة الإنسان في الأرض. وهل ذلك إلا تفصيل لمجمل ما علّم آدم من الأسماء ، وإلا فمن ذا الذي يخفى عليه أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – هم الآخرون مُنِحوا هذا النوع من التغلب الخارق وأن حياتهم لمليئة بأمثلة كثيرة من تسخير الأجرام السماوية ، والأجسام الأرضية لهم. وإن انفلاق البحر عند ضرب موسى إياه بعصاه ، وانشقاق القمر - الذي نسب إلى الرسول ﷺ – مما تعرض القرآن الكريم له، وكان عيسى - عليه السلام - يبرئ الأكمه ، والأبرص ويحيي الموتى على مرأى منهم . فأمثال هذه الخوارق لاتعوزها حياة الأنبياء عليهم السلام ، إلا أنهم لما مُنِحوا هذا التغلب الخارق لايخفى على أحد ما استخدموا له هذا التغلب ؛ فإن قلوبهم كانت

[1] رواه ابن ماجه في الفتن باب فتنة الدجال (٤٠٧٧) ١٣٥٩/٢-١٣٦٠ . راجع أيضًا كنز العمال ٤٠/٦ .

عامرة بالشكر لله القوى القدير الذي منحهم ذلك ، وكانوا يجذبون به الناس إلى ذلك المعطاء الكريم . وكان سليمان عليه السلام يقول حين يرى ما سخر له من الكون ما حكاه الله عنه ، في كتابه : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّيْ لِيَبْلُوَنِي أ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرْ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيْ غَنِيٌّ كَرِيْمٌ﴾.[1]

وعلى العكس تماماً يعرف الجميع أن الدجال يستخدم تغلّبه وعجائبه في إخراج نفسه ثم إخراج الناس على الله الذي منحه ذلك، وميزتُه هذه تبرز بروزًا حتى لايراه أحد – وهو مؤمن – إلا تبين – أول ما يراه – هذا الهدف البارز الخاص ببعثته . روى البخاري – في صحيحه – و غيره الحديث المعروف في شأن الدجال عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إنه مكتوب بين عينيه» ك ف ر «يقرؤه كل مومن كاتب وغير كاتب».[2]

«كاتب» أى الذي يقرأ ، ويكتب ، و«غير كاتب» أى فاقد سليقة القراءة والكتابة ، لا يخفى على أحد منهم ميزته هذه ، ولِنَقُلْ: إن الكفر (ك ف ر) هو الطابع البارز للمدنية الدجّالية ، ويأتي على الناس زمان يقع العالم كله فيه فريسة للإلحاد والكفر والفسوق والعصيان . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ وهو

(١) سورة النمل / ٤٠ .

(٢) رواه البخاري في الأنبياء باب قول الله تعالى : (وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً) (٣٣٥٥) ٣٨٨/٦ .

ومسلم في الفتن باب ذكر الدجال (٢٩٣٣) ٢٢٤٨/٤ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وأبو داود في الملاحم باب خروج الدجال (٤٣١٦–٤٣١٧) ٤٩٥/٤ .

يذكر الدجال : «من سمع الدجال فَلْيَنْأ عنه» . ثم قال: «فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتّبعه مِما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات».[1] مما يدل على أنه يتصف بمهارة فائقة خارقة في استمالة قلوب الناس إلى آرائه وأفكاره كما ينمّ عن أنه يستعطف النساء بَلْهَ الرجال ؛ فقد قال رسول الله ﷺ : «وآخر من يخرج إليه النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى أمّه ، و بنته ، وزوجته ، وعمته فيوثقها رباطًا مخافةَ أن تخرج إليه».[2]

وعلى كل فإن سوء استخدام التغلب الخارق على القوانين الطبيعية أو الاستخدام المضاد المعاكس هو الذي يمثل تلك الفتنة التي يبتلي بها الدجال نفسَه كما يحاول أن يصطلي غيره بناره التي أوقدتها فتنته . وأما الوسائل التي عسى أن يتبعها الدجال ليتبلور فيها عجائبه فلا يسعنا أن نقول فيها قولاً فصلاً حتى يظهر الدجال نفسه للناس .

رأي ابن حزم :

وهل يُمَكَّن الدجال من السحر وأمثاله من الوسائل غير المادية أو كما يقول الحافظ ابن حزم: «وإنما هو متحيل يتحيل بحيل معروفة كل من عرفها عمل مثل عمله».[3]

وحاصله أن الدجال – كما يرى ابن حزم – يستخدم الحيل .

(١) رواه أبوداود في الملاحم باب خروج الدجال (٤٣١٩) ٤٩٥/٤.

(٢) رواه أحمد في المسند ٦٧/٢ بلفظ : فيكون أكثر من يخرج إليه ... راجع كنز العمال ٥٠/٦ بلفظ : آخر من يخرج ... الخ

(٣) راجع : الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٢٩٩/١ . ط: دار الكتب العلمية بيروت .

و«الحيل» واحده : «حيلة» ، و يعبر في اللغة العربية عن الطرق الميكانيكية بلفظ الحيل فمثلا يذكرون وسائل جرّ الأثقال ضمن كلمة «الحيل» ، و«علم الحيل» : علم يهدي إلى التغلب على الأشياء بالآلات الميكانيكية ، وهذا هو الذي يقصده ابن حزم . وذكر ابن حزم – في موضع آخر – حيل الدجال ، وحاول تقريبها إلى الأذهان بأمثلة ضربها . فمثلاً يقول : وذلك كما أن البعض يطعم الدجاج الزرنيط فيخدر ولا يشك في موتها ثم يصب في حلوقها الزيت فتقوم صحاحًا.[1] وحكى تجربته الشخصية في الدبر فقال: «وقد رأينا الدبر يلقى في الماء ولا يشك في موتها أحد ثم كنا نضعها للشمس فلا تلبث أن تقوم وتطير .[2]

وفي هذا الصدد ذكر ابن حزم رجلاً من وطنه – الأندلس – اسمه أبو محمد المعروف بالمحرق . وإن من عجائبه أنه كان يسمع بحضرته كلام ولا يرى المتكلم . وفضح ابن حزم حيلته هذه ؛ فقال: وإنما هي قصبة مثقوبة توضع وراء الحائط على شق خفي ، ويتكلم الذي طرف القصبة على فيه على حين غفلة ممن في المسجد كلمات يسيرة .[3] وهكذا كان المحرق يخيل إلى الناس أن الكلام اندفع بحضرته دون متكلم .

ولا ريب أن الأحاديث هي الأخرى ساكتة عما عسى أن يتبعه الدجال من الوسائل والحيل ؛ فلم تصرح بأنه يستخدم

---

(1) نفس المصدر ١/١٣١ .

(2) نفس المصدر .

(3) نفس المصدر .

السحر و الشَّعْوَذَةَ وأمثالهما ، ولا بأنه يتلقى العلم بالقوانين الطبيعية ثم يسخرها لنفسه .

ولا يقتصر هذا الحكم على عجائب الدجال وحدها وإنما ينبغي أن نتحاشى – فيما يتعلق بأسباب جميع الحوادث والوقائع التي ستحدث إلى يوم القيامة و التي تعرضت لها الأحاديث النبوية – أن نقطع أمرًا من عندنا قبل أن نراها .[1]

وفي الأيام الأخيرة استعجل أناس فاعتبروا المدنية الأوربية والأمريكية هي المدنية الدجالية وجزموا بأن المسيح الدجال – الذي تنبأ الرسول ﷺ بخروجه – قد ظهر و إذَنْ فلا داعي لأن يتكبد المسلمون عناء انتظار خروج المسيح الدجال . فإن هذا الموقف يعكس قفزة فكرية و تسرّعًا في الحكم أصيب به هؤلاء القوم ، وليعلم أولئك الذين لا يزالون يتشبثون بأفكارهم هذه ، أنهم ما أَبَلُّوْ من مرض التسرع الفكري الذي أصيبوا به .

والحقيقة التي لا تُنْكَرُ أن ما تتمتع به أوربا وأمريكا من التغلب الخارق على القوانين الطبيعية يستمر منذ قرنين ونصف ،

---

(1) فمثلاً تقول الروايات : إن يأجوج و مأجوج يصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم تغسل الأرض وتطهر من نتنهم ، ثم يهبط عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الأرض ، فتزداد الأرض خصبة ونماءً حتى إن العصابة لَتأكل من الرمانة فتشبع ، وتستظل بقِحَفِها. (راجع : صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة [٢٩٣٧] ٢٢٥٤/٤) .

هذا في جانب وفي جانب آخر تَأَمَّلْ تلك التجارب التي أُجْرِيَتْ على المناطق اليابانية التي تعرضت للقنابل الذرية ، إذ وجد حجم إنتاجات تلك المناطق – بعدما زرعوها – قد ازداد بشكل مدهش جدًّا ، فما ذكروا في ذلك من حجم اللفت والفجل يصعب عادة التأكد من صحته والموافقة عليه .

ويسخّره سُكَّان تلك البلاد لتلك الأهداف الدجالية نفسها كما نشاهده ، و «ك ف ر» أي الكفر و الإلحاد و الاستنكاف عن الله تعالى والانصراف عنه هو الطابع البارز الملموس الذي يدركه ويعرفه كل عالم وجاهل يحمل بصيصًا من نور الإيمان في قلبه. وإن الدهاء الذي يمارسه أوربا في إيحاش الناس وتنفيرهم من نظام الحياة الذي رضيه الله لعباده ، وجاء به رسله إليهم ، إذا أمعنّا النظر فيه تبين لنا بكل وضوح ما تنبأ به الرسول ﷺ من أن المؤمن ليأتي الدجالَ وهو يحسب أنه مؤمن ثم يعود وفي قلبه أنواع من الشبهات والريب تندلع نارها ، كما نرى أن هذه الفتنة تعدّت الرجالَ إلى النساء تحيط بهن نارها .

ولا شك أن أوربا من خلال ادعائها تلك التجارب الشيطانية التي تسمّيها «تحضير الارواح» (Spiritualism) حاولت أن تشكك تلك القيم، والمثل التي تُعْتَبَرُ مِحَكًّا يميز به بين الحق والباطل في الأديان والملل . ولو سلمنا ما يدعيه تلك الفئة من المحادثة مع الأرواح الخفية أنها ليست شياطين ، وإنما هي أرواح أولئك الأموات الأقدمين حقًا ؛ فإن ذلك يعنى أن السعادة والشقاوة في الحياة التي تعقب الموتَ لا تمتّ – بسبب – إلى ما تعتبره الأديان والملل موجبات للخير والشر . وصحيح أن أوربا لما تصرح بدعوى الألوهية ؛ ولكن التسرع الفكري الذي تعوده الناس في العصر الحاضر ما كان ليؤدى إلا إلى اعتبار النوع البشرى نفسه – دون الله تعالى – القوة المتناهية الغالبة في الكون . وإن مسألة الارتقاء التي لم يَتَبَنَّها إلاّ الفكر الأوربي لتجر تلقائيًّا بالمُوْلَع بها إلى

هذه الغاية ، وحيث إن أوربا وأمريكا أصبحتا اليوم مركزًا للقوى والطاقات فيما يراه الناس ، ورغم أنه لم تطلق كلمة «الإله» على ممثلي الحضارة الأوربية لكن إذا كانت كلمة «الإله» تعني القوة التي لاتُقْهَرُ ، فإننا لوشققنا قلوب أولئك المفتونين بالحضارة الغربية لانشقت عن تلك المعتقدات والمشاعر ، أي أن أوربا وأمريكا قوة لاتُقْهَرُ ، وأنهما قد بلغتا ذروة الكمال . وإن جميع ما يقال و يكتب عن الحضارة الأوربية هذه و ما يجرى من أنواع الأحاديث في مجالس العامة والخاصة في خصوص هذه النشأة الأوربية الحديثة، وما تبثّه مختلف وسائل النشر والإعلام المقروءة ، والمسموعة ، والمرئية من جرائد، وصحف ، وسينما ، ومسارح ، كل ذلك ينفذ في القلوب و يسري ويتمكن تمكنًا مستمرًّا وهم يشعرون أو لا يشعرون . وإن كل ذلك يجرى ويتم إلاّ أنهم لَمَّا يدّعوا الألوهية بكل صراحة كما قلنا ، وإن تغلبهم على القوانين الطبيعية لَمّا يَنْتَهِ إلى ما ينتهى إليه تغلبُ المسيح الدجال فيما ينص عليه الحديث النبوي . ونسمع أن تلك البلاد تحاول الكشف عما يكمن فيه سرُّ إحياء الموتى . وقد تبلغنا أنباء تفيد نجاح هذه العملية في بعض الحيوانات ، بل وفي الإنسان كذلك . كما نسمع أنه عما قريب سيتم التغلب على السحاب ؛ ولكن الحق يقال : إن النجاح الحقيقي كما ينبغي لم يتم بعد للحضارة الأوربية الجديدة و محاولاتها الارتقائية والصناعية . وهنا وجوه وأسباب شتى غير هذا تملي علينا أن نجزم بأن ادّعاء ظهور المسيح الدجال – الذي تنبأ به الرسول ﷺ في أحاديثه و بَيَّنَ ميزاته – ادعاء لم يلاقِ أوانَه . نعم

يصح أن نقول : إن الحضارة الغربية الجديدة كأنها تمهد الأرض لظهور الدجال ؛ لأن أوربا تستخدم قواها المتغلبة في النهضة الجديدة لما سيسخره المسيح الدجال قوته المتغلبة ، وأن أوربا تُعَبِّدُ – أو قد عَبَّدتْ – الطريق لتُحَبِّب إلى الناس الكفرَ والاستنكاف عن الله تعالى ، إلاّ أنّها لم تتجرأ بعد أن تعلن أنها إله من دون الله ، وما المسيح الدجال إلاّ اللبنة الأخيرة في هذا البناء .

وأيًّا ما كان فإن الصحيح الصريح الدقيق – الذي لا يُحْوِجُنا إلى تأويل نصوص الأحاديث تأويلاً سخيفًا – أن يقال : إنّ ادّعاء ظهور المسيح الدجال ادعاءٌ قبل أوانه ، ولكن لنسلِّم أنّ الفتنة التي يبتلي بها الدجالُ الناسَ قد بدأت تظهر بشكل أو آخر : وإن شئت قلتَ : إن المسيح الدجال ظهر، أو لم يظهر إلا أن «الدجالية» قد اشتعلتْ نارُها، واندلعت دون ريب فيه . أليس ينص الأحاديث النبوية على أن ظهور المسيح الدجال يسبقه ظهور دجاجلة تصل بعض الروايات بعددهم إلى ثلاثين[1] وبعضها إلى سبعين[2] وبعضها إلى ستة وسبعين[3] ، وأن نسبة «الدجالية» إلى

(1) رواه أحمد في المسند ١١٨/٢ عن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن بين يدى الساعة ثلاثين دجالا كذابا» .

(2) رواه الطبراني عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ: «لاتقوم الساعة حتى يخرج سبعون كذابًا . قال الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب الفتن باب ما جاء في الكذابين ... (٣٣٣/٧) : رواه الطبراني وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني ، وهو ضعيف .

(3) رواه أبو يعلى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «يكون قبل خروج الدجال نيف وسبعون دجالا . قال الهيثمي في المجمع كتاب الفتن باب في الكذابين الذين بين يدى الساعة (٣٣٣/٧) : وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس ، وبشر – صاحب أنس – لم أعرفه.

هؤلاء الدجالين قبل ظهور المسيح الدجال لا تخلو عن معنى ، والظاهر أن «الدجاجلة» – الذين يسبقون المسيحَ الدجالَ – يفتنون الناس بمثل الفتن التي سيبتلى بها المسيحُ الدجال الناسَ .

وبناء على ذلك أرى أنه يمكننا أن نبحث عن علاج كل فتنة دجالية ، وترياق سمومها في سورة الكهف و ما تحويه من معارف ومعان إذا أردنا ذلك ، كما أن ترياق سموم المسيح الدجال يكمن بنصّ الأحاديث النبوية في آيات من هذه السورة ؛ وحيث إن الحضارة الغربية – التي فعلت ولا تزال تفعل فعلها في غالب الناس – تُمَثِّلُ المركزَ الرئيس للجراثيم الدجالية كما هو المُشَاهَدُ، وإن الحضارة الغربية لتطفح فِتَنًا تُقَارِبُ الفتنَ التي بَلَغَنَا نبأ ظهورها في عهد المسيح الدجال.

ونظرًا إلى هذه الحقيقة درس هذا العبد الفقير محتوى سورة الكهف و مضامينها ، فتبلور منها ما حَيَّرَ العقول . ورجاءَ أن ينفع الله تعالى به الناسَ قيّدتُه ، وأَسْعَدُ اليوم بنشره .

والله ولى الأمر والتوفيق .

* * *

ما تحويه سورة الكهف
من إشارات إلى الفتنة الدجالية

الفتنة الدجالية – وإن شئت قلت: المدنية الحمارية[1] – سبق أن بيّنا لك ملامحها البارزة، وآثارها وتداعياتها. فإن كنت قد وُفِّقت – من خلال هذه الملامح والآثار – للتعرف على هذه الفتنة إلى حدمّا فإني أرى أنك – بإذن الله – لن تعجز عن الاستفادة من الإشارات التي تحويها سورة الكهف، والتي نحن بصدد عرضها عليك. وينبغي – قبل ذلك – أن نستعرض فهرسًا مجملاً لما تشتمل عليه سورة الكهف من المعاني.

[1] الحمار في اللغة العربية: حيوان معروف، والحمار الذي نُسِبَ إلى الدجال، ومدى صحة ذلك روايةً ودرايةً سبق أن تعرضنا له. وبجانب ذلك إذا تأملنا ما لاحظه أئمة الاجتهاد لدى المدنية الجديدة أمثال «كارل ماركس» Karl Marx (١٨١٧–١٨٨٣م) من أن القوة الجوهرية الكبرى العاملة في المساعي الإنسانية إنما هو البطن وشهواته بالإضافة إلى ما أشار إليه «فرويد» Freud (١٨٥٦–١٩٣٩م) من العوامل الجنسية في ممارسات الإنسان وجهوده كلها، إذا قارنًا بين هاتين النظريتين، فهل يعني ذلك سوى أن العواطف التي تندفع الإنسانية بدافعها – فيما يراه هؤلاء الباحثون الممثلون للمدنية الحديثة – لا يمكن أن تتمثل في قالب ملموس خير من قالب الحمار. أليس الحمار المسكين إلا عبارة عن ملء البطن والنفسية الحمارية. وإذا كان الإنسان في العصر الحاضر – بعد ما صار مطيةً ذلولاً لهاتين القوتين العاملتين – أخذ يزهو ويختال، وإذا كانت النشاطات افنسانية ومجهوداتها كلها، وعلى أضيق نطاقها تدور رحاها حول هاتين القوتين المحركتين وإن المساعي الإنسانية وتنقلاتها كلها تستمد قوتَها من هاتين العاطفتين، فماذا عسى أن تشاهده تحت فخذ المسيح الدجال سوى الحمار يا ترى! وإذا كان الراكب بدوره يعترف بأنه راكب حمار فهل أخطا من رآه راكب حمار؟

(الف) هناك إشارات كلية في الركوع الأول من هذه السورة والركوع الأخير منها[1] كما سأستعرضها بإذن الله تعالى. وهذه الإشارات لها علاقة وطيدة بالفتنة الدجالية .

(ب) وبجانب هذه الإشارات الكلية قصص وحكايات وهي:

(١) قصة أصحاب الكهف .

(٢) وقصة التقاء موسى عليه السلام بمن أُعْطِيَ رحمةً من الله تعالى وعلمًا من لدنه .

(٣) وقصة ذي القرنين، وتتضمن هذه القصة ذكر يأجوج ومأجوج .

(٤) وقصة مثالية لرجلين، ومكالمتهما، حاز أحدهما أهمّ الوسائل، والطرق الجالبة للإنتاجات والحاصلات الطبيعية، والآخر صفر اليدين من هذه الموارد والمصادر .

(٥) تمثيل للحياة الدنيا السافلة الحاضرة .

(٦) إعادة قصة آدم، والشيطان ببعض الإلحاقات الجديدة .

القصص القرآنية لا تحتاج – كثيرًا – إلى دراسة تاريخية

وهذه القصص والحكايات منها ما نُصّ في فاتحتها على أنها جاءت على سبيل المثال، وذكر نموذج من نماذجها للناس، ومنه

[1] «الركوع»: علامة اصطلحوا عليها مؤخرًا، ويأتون بها عند نهاية سياق الكلام. قال في الفتاوى الهندية (١١٨/١ باب التراويح من كتاب الصلاة): وحكي أن المشايط رحمهم الله تعالى جعلوا القرآن على خمس مئة وأربعين ركوعا، وأَعلَمُوْا ذلك في المصاحف حتى يحصل الختم في ليلة السابع والعشرين. وفي غير هذا البلد كانت المصاحف مُعْلَمَةً بعشر من الآيات وجعلوا ذلك «ركوعًا» ليقرأ في كل ركعة من التراويح القدر المسنون. كذا في فتاوى قاضي خان . (المترجم)

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رجُلَيْنِ﴾[1].

وذكر مثلاً على الحياة الدنيا فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2].

ومنها ما يعوزه مثلُ هذا النص والتصريح، إلا أنّ العارف بفحوى الكلام، والمتذوقَ للبيان القرآني يَعِيْ أن القول بأن القرآن الكريم إنما يعنيه بيان حادث مضى، وإعادة ذكره، وروايته فحسب، أن هذا القول لا يعدو أن يكون استهزاءً يعقل صاحبه.

فالدراسة التاريخية لما قصّه القرآن الكريم علينا أقل ما يكون – فيما أرى – شغلاً لاغيًا. وإن العادة المتبعة لدى القرآن الكريم في الأغلب، أنه لا يختار من أهم الأحداث التاريخية إلا الأجزاء التي تساعده على ترسيط مفهوم في الذهن وتحليله. وعادته هذه لاتخصّ الوقائعَ والأحداث الماضية، وإنما يسلك نفس هذا السلوك في شأن العهد الذي شهد نزول القرآن الكريم وظهورَ الأحداث المتتالية التي تتعلق بالانقلاب العالَمي التاريخيّ. فإذا ما احتاج إلى التعرض لها فإنه – كدأبه – ينتقي منها الأجزاء التي يحاول من خلالها نوعًا من التذكير والتوعيةِ في تلك المناسبة خاصةً. فالمعارك الفاصلة الحاسمة من «بدر»، و«أحد» و«فتح مكة» إذا ما وجدتَ لها ذكرًا في القرآن، فإنما تجدها على ما وصفناه.

وهناك جملة من الأحداث الهامة أمثال قصة اعتقال المسلمين في شعب أبي طالب، والهجرة إلى الحبشة[3]، وفتح «خيبر»

---

[1] سورة الكهف / ٣٢.

[2] سورة الكهف / ٤٥.

[3] الحبشة أو إثيوبيا (Ethopie) دولة في الشرق الشمالي من إفريقيا عاصمتها «أديسا

وعشرات أمثالها لم يتعرض لها القرآن الكريم أصلاً أو تعرض لها مجملاً لايغني في التعرف على الحادثة من خلال إشاراته الإجمالية ما لم تكن هناك دراسة مُسَبَّقة لتفاصيلها. ويرجع ذلك إلى أنه ليس بكتاب قِصَصٍ وروايات، وإنما يتناول موضوعًا خاصًّا محددًا.[1]

ومن هنا كانت مباحثه كلها تدور حول هذا الهدف الخاص. نعم، قد يتعرض القرآن الكريم لشيء من تلك الأحداث الماضية مما كان يلائم موضوعه دون أن يتخلى عن دأبه، أي أنه يقتصر في بيانه على ذلك القدر اللازم، الذي تحوجه إليه تلك المناسبة. فتجد قصةً واحدةً يردِّدُها القرآن الكريم بوجوه، وأساليب شتّى وبشيء من البسط والتفصيل حينًا، ويقتصر على جزء خاص منها حينًا، ثم يمرّ مرّ الكرام. وتفيدني تجربتي الشخصية أنه كالعظم الواحد يبدو في التركيب الجسدي أعرضَ وأطولَ حينًا، ويبدو بوصةً (INCH) أو نصفها حينًا.

ومثل هذا الأسلوب يختاره القرآن الكريم فيما يقصه ويحكيه، أو كالخشبة الواحدة يشقها النجار قطعةً قطعةً حسب معايير شتى ثم يُركِّب تلك القطع الصغيرة والكبيرة في مواضعها. وإن القصص القرآنية تحوج قارئها إلى أن لا تفوته هذه الوجهة الخاصة،

بابا»، يدين معظم سكانها بالمونوفيزية، اعتنقت المسيحيةَ، أصبحت لها كنيسة قوية راجع: المنجد للأعلام ص ٢٣. (المترجم).

[1] وهو المطلوب في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾ أى الصراط السوى الذي يصل بالإنسان إلى ربه، وتوجد له علاقة شاملة بقوانينه، والذي عبر عنه القرآن الكريم بلفظة «الإنعام».

ليتجلى له نظام بديع معجز يتصف به القرآن الكريم .

وبالجملة أريد أن أقول: إن دراسة هذه القصص - التي تحتوي عليه سورة الكهف - دراسةً تاريخيةً؛ من حيث إنها متى وأين وقعت؟ وما عسى أن توفر لنا الآثار والكتبُ التاريخية في هذا الصدد من المعلومات أو ما قد وفرته منها، قضيةٌ مستقلةٌ بذاتها؛ غير أن الهدف المنشود من إنزال القرآن الكريم يجعلنا - كما قلت - في غِنىً عن الخوض في مثل هذا البحث والتحقيق من هذه الناحية الخاصة. وأما إذا قام به البعض كخدمة علمية - كما يتم البحث عن سائر الأحداث التاريخية كخدمة علمية - فإن هذا البحث أيضًا يستحق التقدير والاستحسان في الأوساط العلمية دون ريب، وأما الوصول بالناس إلى ما يتوخَّاه القرآن الكريم بنوره فبحسبنا كتاب الله تعالى.[1]

أساس الفتنة الدجالية أي نظرية الارتقاء

فهل تدرى ما هو المبدأ الرئيس الذي تنفثه الطبائع المُصَابةُ بالفتنة الدجالية؟ إنه التأكيد على أنه لم يُعْطَ أحدٌ شيئًا إلاَّ ممن كان صفر اليدين خالي الوفاض منه، وحتى الحياة لم تؤخذ إلا من فاقدها، والعلم لم يُكسَب إلا من عادمه .

[1] إن الذي يعجز عن الاستفادة من القرآن الكريم مباشرةً بحكم أنه لايحسن اللغة العربية فإن أمر تفهيمه قد يشقّ؛ فإنه يحوجني إلى أن أنقل النص القرآني أولاً وأتبعه بترجمته إلى اللغة التي يفهمها، وأشرحه ثم أدلّه على مدى إمكانية الاستفادة بهذا الشطر من سورة الكهف في إزالة سموم الفتنة الدجالية. وقد تراءت لي وجوه في هذا الأمر، لم ينشرح لها صدرى. وثقةً بالله أبدأ، وأقول، وعليك أن تتابع قراءةَ ما أقول فلعل الله أن يجعله ما ينفعك وينفع الناس، وما ذلك على الله بعزيز .

والحاصل أن ضرير البصر بذل للناس البصارةَ، وعديمَ السمع منح الناسَ السماعَ، والمجردَ من الإرادة جَادَ بها على الناس، وخاسرَ السلطة والسيادة شَمِل الناس بالسلطة والسيادة. وهذا هو الشعور الأساسي الذي أشربَ الناس في قلوبهم وعقولهم اليوم، والذي قد ظللته الفتنة الدجالية بظلالها الشيطانية، ولا يستظل بهذه الظلام الحالكة الناسُ إلا ويشعر من يشعر منهم في نفسه بمثل هذه المشاعر والأحاسيس .

وكأنَّ كلمةً واحدةً وهي «الارتقاء» ملعقةٌ سحريةٌ سُقِيَ بها الانسانُ مَآنَةً كلَّ ما كانت الفطرة الإنسانية تأبى أن تسيغه. وإن الذي عَهِدَ خروجَ الوجود من الوجود تِباعًا، والذي عَجزَ أن يتصور إمكانية حدوث كل شيء من «لاشيء»، هذا الإنسان المسكين يُحْمَل على أن يستسيغ أن هذا البحر الزاخر بالكمالات والصفات، والمائج بالطبقات النباتية، والحيوانية والإنسانية في هذا الكون، كان كلُّه «لاشيء» في أول أمره، ثم إن تلك الكمالات المتلاشية تَجلَّتْ في الوجود، وبرزت وتكوَّنَتْ عن طريق «الارتقاء»، كأنَّ ما لم يكُنْ، وُجِد ولا يزال يُوْجَدُ. وهذا ما يحاولون الإقناع به، ويقتنع به من يقتنع. وكيف تَمَّ لهم النجاح في استساغة فكرة لم تكن تخطر ببالنا، وخاصة بدعوى أنه ليس هناك ما يمكن الاستدلال به سوى العقل والمشاهدة. فأنّى لهم أن يسلموا - دون أن يقتضيه العقل والمشاهدة. فأنّى لهم أن يسلموا - دون أن يقتضيه العقل والمشاهدة - أن المادة الفارغة الخالية وَلَدَتْ كلَّ شيء، وهو أمر لم يشهده المقتنعون به، ولا الذين يحملون الناس

على الاقتناع به، ولم يشهد الكون هؤلاء ولا أولئك حين خلقوا. غير أن الذين كانوا يدَّعون عدم قبول شيء بدون العلم والمعرفة به هم الآخرون يجدون أنفسهم مُرغَمين على الاقتناع بمثل هذه القضية دون علم بها، ويحرصون كل الحرص على إقناع غيرهم بها.

وبالجملة كيف ساغ أن يأتي كل شيء مما ليس فيه شيء؟ وكيف تولَّد العددُ من الصفر؟ وأنى تمثل العدمُ في الوجود، وتحلّى الفناء حليةَ الكون؟!.

وَدَعْني من الخوض في ذلك، وارجِعْ إلى كتابي «الدين القيم» لمزيد من التفاصيل، وإنما أودّ هنا أن أوجه اهتمامك إلى قضية نفسية أخرى.

والمقصود أن الذي قام فكره على أن المادة الفاقدة كل شيء، صدر منها كل شيء، ما ذا عسى أن يتصف به من المشاعر والأحاسيس هذا الكائنُ المنبعث من أوحال المادة، والخارجُ منها، والذي تُسَوِّلُ له نَفْسُه أن قد ظفر بالحياة الحاضرة، وهو يفكك الحلقات ويحل العُقَد التي نسجتها مئات الأهداف والغايات، والتي تواريها كل موجة من موجات هذا البحر المائج من الكون. وأيّ حياة ظَفِر بها؟ إنها حياةٌ هي سِجنُ هَمٍّ واسىً، بالإضافة إلى ما ينصبّ عليه من مطارق الدهر ونوائبه المتتالية. فحياة الهمّ والأسى التي ظفر بها المرأ تبقى حُرْقَةً ما بقيت وتزول يوم زالت حرقتها.

والحاصل أن الإنسان الذي عادَ كل شيء من «لاشيء» يظل

يتقلب ظهرًا لبطنٍ في بحر الكون كتِبْنَة تذروها الرياح؛ فليس لهذا الإنسان من حافظٍ ولا رقيب، وليس لسعيه ثمرة، وليس لوجوده وحياته هدف أو غاية.

وإن أنواع القلق والاضطرابات التي يشهدها هذا العهد الدجالي، والتي تطير لها نفسُ الإنسان شعاعًا لانعدو الحقَّ لو قلنا: إنه يرجع إلى الشعور بالعجز الذي يلمسُه المرأ، والذي هو من ضرورة تفسير الحياة تفسيرًا «ارتقائيًّا».

ثم ضَعْ أمامك هذه النتيجة الطبيعية والشعور اللازمَ الذي يضظر إليه الفكرُ الدجالي، وقِفْ عند أول شطر من أول سطر من سورة الكهف وهو قوله: (اَلْحَمْدُ لِلّهِ). وأقول دون مغالاةٍ، وسواء تابعت قراءتك أو قطعتها: إن ما ينبثق من هذه الكلمة (اَلْحَمْدُ لِلّهِ) فحسب، من نور العلم ليضمَن لك تبديدَ السحب المخيفة المرعبة من الظلمات.

أرأيت ما تعني كلمة (اَلْحَمْدُ لِلّهِ)؟ إنها تعني أن كل كمال وصفة تستحق الثناء والمدح تخص بالله تعالى الذي تجلت أوامره في الكون. وهل يعني ذلك إلا أن فاقد الشيء لم يُعْطِه وإنما أعطاه من يتصف به. فما نال نائل شيئًا إلا ممن له كل شيء وبه كل شيء: به الحياة وبه العلم، وبه القدرة، وبه الإرادة، وبه الرحمة، وبه الرأفة. أرأيت الذي يظن أنه خُلِقَ منه هل ينوبه شيء من نوائب اليأس والقنوط والحرمان المُوَسْوِسِ، على عكس من يرى أنه خرج إلى الدنيا من «اللاشيء» وأنّه يعود لاشيئًا بعد ما يفارق دنياه.

إن الذي لايملك شيئًا إذا مدَّ يَدَ الاستعانة إلى الذي بيده كل

شيء، ينصره مخذولاً، ويواسيه مكروبًا ويقضي حاجته مسكينًا، ويحقِّق آماله، وينيله تغيته. وإن ما يصدر ممن يملك كل شيء من اللفتة النازلة من منزلته الرفيعة إلى الذين لايملكون من قطمير للسمو بهم من الحضيض إلى العلى، قُلْ لي: هل هذه اللفتة يمكن أن تكون – بشكل أو آخر – أمرًا تتلعثم الفطرة الإنسانية في قبوله، والاعتراف به ؟!

نزولٌ فارتقاءٌ

«الحمد لله» أي إن الله هو مصدر كافة المحامد والمحاسن .
واعتبر القرآن الذات الإلهية المستجمعة لجميع الصفات والكمالات قوام نظرية الارتقاء؛ حيث إن هذه الذات تتكرم على عباده بصلاحيات الارتقاء بعدما يكون في مرحلة «النزول» و«الهبوط»، وتلك النظرية القرآنية نجدها في أول سطر من سورة الكهف بعد (اَلْحَمْدُ لِلَّهِ). فقال – بعد ما أبان حقيقة (اَلْحَمْدُ لِلَّهِ): (اَلَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ).

فهذا النص القرآني إن دل على شيء فإنما يدل على أن العبد – الذي لايملك من قطمير – قد مَنَّ عليه اللهُ الذي له الحمد، والذي له خزائن كل شيء، فأنزل عليه كتابَه، ففتح أبواب الرقيّ، والسمو لمن كان في السفل .

وقارِنْ بين هذا المنهج الطبيعي للارتقاء الذي يسبقه الهبوط والنزول وبين الوسوسة الارتقائية التي شهدها العهدُ الدجالي، والتي تؤكد على خروج كل شيء من «اللاشيء» وتُلَقِّن ان المادة الخالية الخاوية، التي ليس بها حياة، ولا علم، ولا إرادة هي

بدورها نهضت تطلب كمالات وصفات لم تكن مجهولة لها؛ بل كانت معدومة بالتأكيد. فالطالب جاهل، والمطلوب مجهول، بل معدوم مطلقًا؛ فهي طرفة ارتقائية ريبة كلَّ الغرابة كما تراها، وما أشدّها تعقّدًا والتواءً واشتباكاً. فأنّى لها أن ترغب في طلب هذه الكمالات والصفات المجهولة والمعدومة. وَهَبْ أنها طلبت، فكيف استطاعت أن تسير قُدُمًا مستخدمةً قوتها المميزة في طرح ما طرحته من الصفات المثلى؟! ثم أنّى تيسرت لهذا الطالب الفاقد الحياةِ والعقل والوعي تلك الصفاتُ المعدومة الفانية مطلقًا، مِما نراه يزين وجودَ المادة اليوم. وما أشدَّ هذا المنهج عِوَجًا واَوَدًا وصعوبةً والتواءً. وإنما جَرّهُمْ إليه الفلسفةُ أو الوسوسة القائلة بـ«خروج كل شيء» من «لاشيء». والمعمَّى الذي يحالون حله من خلال هذا التأويل والتفسير اليوم، قُلْ لي بربك! هذا النّوعُ من التفهيم والتلقين يحلّه أم يزيده اضطرابًا وتعقّدًا. ولا يدرك ذلك حقًا إلا من لم تبعد طباعهم – كثيرًا – عن حد السلامة بعدُ، وإلاّ بالطباع المعكوسة المُحَطَّمة المنكوسة تتحول لها الأمور المعكوسة المتضاربة قويمةً سديدةً، وتنفذ فيها كلَّ منفذ .

هذا، وقد حكم في هذا الصدد عارف كبير بالطبيعة الإنسانية ألاَ وهو العلامة الرومي[1] بشكل قاطع، فقال بالفارسية

[1] الرومي: هو محمد بن حسين البلخي القونوي جلال الدين (٦٠٤–٦٧٢هـ = ١٢٠٧–١٢٧٣م) عالم بالفقه والخلاف وأنواع العلوم، صاحب «المثنوي» المشهور بالفارسية ولد في بلط بـ(فارس) وتوفى في «قونية» وبها قبره معروف إلى اليوم. راجع: الأعلام للزركلي ٧/٣٠.

ما معناه:

«إذا كان مكر الشيطان وتسويله يفعل فِعلَه في القلوب المريضة المحرفة فلا تَعْجَبْ فإن الحذاء المنحرف ينطبق على القدم الحنفاء .

الحذاء المنحرف إذا كان يوافق القَدَم الحنفاء فماذا عسى أن يكون غير ذلك يا ترى !!.

وبالجملة أرى أن المنهج الذي تقدمه الكلمات المذكورة أعلاه من سورة الكهف بناءً على كلمة (اَلْحَمْدُ لِلّهِ) وهذا المنهج هو الارتقاء الذي يسبقه النزول وهو أول ما يمتاز به هذا الكتاب أو النظام الطبيعي الهادي إلى ارتقاء؛ حيث إنه: (لَمْ يَجْعَلْ لَه عِوَجًا) أى أن الله الذي أنزله قد بعَّده عن أي اعوجاج، وانحراف. فهذا الذي وصف به هذا الكتاب لا يعني - فيما أرى - أنه لايمت بسبب إلى العوج والميل والانحراف، فهو بدوره قيّم سديد، ويعلِّم السَّداد، ويهدي للرشاد. وإن هذا الكتاب يستحوذ على مشاعر الذين لم تتطرق إلى قلوبهم وعقولهم يد الرياضات الفكرية الزائفة وأغاليط السوفسطائية الخادعة بالقَلْبِ والكَبْسِ والدَسّ، جَرِّبْه إن شئتَ. وأما العقليات الزائغة المعوّجة المنصهرة في بوتقة الفتن الدجالية، والمشاعرُ المنكوسة التي صاغتها متطلبات العصر الراهن، والأحلام السفيهة كما شاءت، فلا هي تشعر بما لهذا الكتاب من قيمة وأهمية، ولا هو يتمكن من إشعارهم بأهميته وقيمته حقًا. لقد هَانَ على أصحابها أن يسلموا أن الجاموس يبيض، وبالتالي يتم من بيضه استخراج أو خروج زيت الأزهار ثم

إعداد الأدوية كلها من هذا الزيت! وما دمنا نسلم خروج كل شيء من المادة الفارغة تمامًا، هل ترى من فرق بينها وبين طرفة بيضة الجاموس؟! وكما أسلفت أنهم لايستحيلون خروج العدد من الصفر بل يعدّونه واقعًا وحقًا، ثم تستبعد نفوسهم خروجَ عشر أو عشرين روبيةً من كيس يحمل مائة روبيةٍ .

وإن ما يقدمه القرآن الكريم من تأويل إيجاد الكون - بناءً على اعتبار (اَلْحَمْدُ لِلّهِ) اللبنة الأولى - يرجع إلى أن الله ذا الكمال اللامتناهي قد تجلى كماله في أصغر صوره، وأضيق مظاهره، فلم ينل بائسٌ صفر اليدين ما نال إلا مِنَ الذي له كل شيء، غير أنه هذا الشراب السائغ ظلّ دواءً مرًا وعلقمًا تمجّه الطبائع المفتونة، وتَعُدّ الوسوسةَ الارتقائية القائلة بـ«خروج كل شيء من اللاشيء» دواءً ناجعًا يفتك بالأمراض الفكرية والعقلية فتكاً ذريعًا.

وإن قضيةً لا تحمل سوى اشواك الاضطراب والقلق قد غَلَبَهم النومُ على أشواكها، وهم يظنون أنه لم تبق قضيةٌ من القضايا الأساسية العويصة إلا وقد انحلت عُقَدُها، وستنحل - مستقبلاً - بألسنة أشواك الاضطراب هذه. وذلك لأنهم - بعد ما حَنَّفُواْ القَدَم - ظنّوا الحذاء المنحرف حذاءً سليمًا قَويمًا. وإن زيغ عقليتهم وفكرتهم هذه - التي تجد كل أمر معكوس سديدًا، وقويمًا والأمر السديد معوجًا - مرضٌ تسرب إليهم من خارجها. ولعل هذا ما حَمَلَ على إيراد صفة مميزة أخرى لهذا الكتاب والمنهج الطبيعيّ للحياة وهو كلمة (قَيّم) لتدل على ذلك و لتستنزف هذه المادة السامة المتسربة إلى الطبائع المعوجّة.

والظاهر أن هذه كلمةٌ واحدة حاصلها أو ترجمة معناها - فيما أرى ويوافق عليه عدد كبير من أهل التفسير والتأويل - أنه - علاوةً على أن هذا الكتاب وأوامره لا تتصف بزيغ أو عوج - يمتاز بميزة أخرى وهي أنه يحتوي على حقائقَ وقواعد خالدة لا تتحول ولا تفنى. وإن كلمة (قيم) تدل على القيام والبقاء البالغ في شدته، وإتقانه وإحكامه كل مبلغ. ومنه «القوم» بمعنى من يخلد ويستمر بقاؤه،ويزول من عداه، وإن ذلك القدوس الطاهر الظاهر قد ضمن بقاء من عداه، فهو الذي يدوم ويستقر، وهو بإرادته يحفظ كل شيء ويمسكه. وهذه دراسة لغوية لهذه الكلمة. ولا يفوتنّك أن تتأمل في مَدْلولها الذي سيقت لأجله هذه الكلمة في هذ المناسبة الخاصّة .

وكما قلت: إن النجاح في إشراب الطبائع - بعد إزاغتها - بالأفكار الزائغة أمرٌ مجرّبٌ ومُشَاهَدٌ، وبهذا الوجه يكسب البعضُ النجاح اليوم إلا أن هناك أمرًا آخر يشير إليه كلمة (قيّمًا)، وهو ميسور غير مستبعد، ولا يسعنا إنكاره. أفلا نشاهد - نحن وأنتم على حدٍّ سواء - أن الخرافات المعوجة، والأفكار الدجالية بحذافيرها مما يسود العالمَ اليومَ تصحب معها وجوهًا من الفساد غير قليلة بأسرع ما يمكن .

وكان الشرق يطلق على القضية الرجعية العقيمة أنها فكرة دقيانوسية، وذلك نسبة إلى الملك «دقيانوس» الذي حكم العالمَ منذ آلاف من السنين مضت، لا يعلمها إلا الله تعالى، ثم لا يخفى على أحد أنه يطلق على دقيانوسية الأفكار المعاصرة أنه يرجع إلى عهد

«فكتوريا» وذلك نسبةً إلى الملكة «فكتوريا»[1] على أنه وإن لم نجد من شهد ولادتَها الآن، فلا أقل أن يوجد عدد هائل يبلغ عشرات الملايين ممن شهدوا موت هذه الملكة. وهل هناك شهادة اعترافية أدل على عدم الثبات المضاد لصفة (قيمًا) التي تخص الكتاب الحكيم، يقول الشاعر الفارسي ما معناه:

«يولدون أمواتًا من بطون الأمهات» .

وهذه أكبر ميزة تميز أفكارَ العهد الدجالي. وَدَعْنا من الأمور الكلية التي تقوم في الغالب على الأشباه والأوهام أو رجم بالغيب؛ فإن هناك أمورًا جزئيةً ملموسةً مجربةً كقضية لباس المرء مثلاً فإنه يتخذ، ويقطع عن تقدير وإمعان نظر مراعيًا لما يريح المرء ويزينه ثم نسمع أن المرء ربما يشرى جبةً أو طاقيةً وما إلى ذلك، فنراه يُسْرِعُ - أو تسرع - الخطا إلى بيته ليلبسه أسرع ما يمكن مخافةَ أن تزول أناقتُه، أو يذهب رواجه بذهاب الموضة التي كانت قد أفرزته .

وما أروعه مثالاً على ما تقوم عليه المدنية الحديثة والعلمُ و«الفكر الحديث» من الاضطرابات الخادعة وقد يكون طرفةً من الطرف؛ ولكنه خير مثال يجسّد ميزة «التسامن العاجل» و«الهزال العاجل» هذه. وهناك صورة هزلية تصور هذه الطرفة، وقُلْتُ حينما رأيتها: هذه لاتختص بالجزئيات المتجسدة في عهد الدّجال، وإنما الفلسفة الدجالية كلها، ومدنيتها بجميع فنونها وجنونها

---

[1] الملكة «فكتوريا» Victoria (١٨١٩-١٩٠١م) ملكة إنكلترا (١٨٣٨) عملت على تقارب إنكلترا وفرنسا، ونودى بها إمبراطورة الهند ١٨٧٦م. خلفها على العرش ابنُها «إدوارد» السابع. (المنجد للأعلام ص ٥٢٩) .

فلسفة الظل والحرور، ومدنية الظل والحرور. واللاجئون إليها لايتمكنون من الاستمتاع بحرّها إذا كانوا راغبين فيه، ولا تظلّهم بظلّها إذا ما حرصوا عليه.

وإن ما تمتاز به هذه الفلسفة أو المدنية من كونها «غير قيمة» مضادة لـ(قيما) تنمّ عن العوج والزيغ والانحراف الذي يَسْري في شرايين كل فرع من فروع هذه المدنية الارتقائية، وهل الارتقاء إلا عبارة عن تنفيذٍ لاحِقٍ لكل ما سَبَق الإذعان له، والاتفاق عليه. فكانت «الجمهورية» - بالأمس - تعتبر الذروة التي يمكن أن يرتقي إليها النظام البشري، بينما أصبحت اليوم عرضةً تستهدفها تصفيقات الأطفال تائهين في السكك والأزقة، حاملين في أعناقهم طوق الرأسمالية المخزي.

فيؤكدون اليوم على أن ما فقدته الإنسانية من فردوسها سيظفر بها في ظلال النظام الشيوعي والشتراكي. والذين ظفروا بهذا الفردوس يزعمون أنهم نالوا كل شيء كان يهيم في طلبه بنو آدم، وهذا ما يطرق أسماعَنا، ولا يمكننا أن نقطع - قبل أن نراه - أن ما كنا نسمعه هو نفسه أُرِيْنَاهُ أمْ غيره .

إن الشباب يعقبه الهرمُ، والحياة يتلوها الموتُ، والصلح يتبعه الحربُ، والخصب والرخاء يعقبهما القحطُ والجدبُ، والأمن والسلامة يتبعهما الأوبئة والحروب، فكل هذه المصائب وأمثالها لاتزال تشكل تهديدات مرهقة تكدر على بني آدم صفو العيش على الأرض ما لم يبشر بسد جميع سبلها والقضاء على مخاوفها، أن هذا الإنسان المُخْرَجُ من الجنة لا يتسلّى بمجرد أنه قد هُيِّئَ له

الدواء عندما يمرض، والطعام عندما يجوع، والماء عندما يظمأ، والثياب عندما تخلَق، والأكفان والقبور عندما يموت؛ إذ كل ذلك متوفر له بشكل أو آخر؛ بيد أنّ ساعات همه وحزنه تفوق ساعات سروره، وفرحه من بين أربع وعشرين ساعة في حياته. وإن هذا المعدل بين هذه وتلك ربما لن يتقلص - فضلا عن أن يتلاشى - ما دامت هذه المخاطر تهدده في الكرة الأرضية هذه .

ولعلي خرجت عن موضوعي فدعني أعود إلى ما كنت أقول: إن لفظة (قَيِّمًا) التي تدلّ على ما يتميز به هذا الكتاب المنزل على العبد من مضامين وتعاليم، عبارة عن مجموعة من حقائق لا تقبل الزوال، والفناء والانتقال، وتدعو إلى إقامة صرح الإنسانية، والرقي بها منذ عهد مجهول من التاريخ؛ فإليها دعا نوح، ودعا إبراهيم، ودعا موسى، ودعا عيسى، وسائر الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - الناس كافة في كل عصر وزمن . وإن الذي لا يملك من قطمير وهو يرغب في الحصول على ما ترتو إليه نفسه، ما عليه إلا أن يتقدم إلى من يملك كل شيء ويطلب منه ما شاء. وهذا ما كان يتضمنه كتب الأولين، وإليه يدعو هذا الكتاب الخاتم .

تعقيد يحلّ محل السذاجة

وبالجملة أن ما يمتاز به النظام الذي نزّل الله ذوالحمد والمجد - المتمثل في الكتاب الإلهي - من صفته السلبية التي تفيدها لفظة : (لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) بالإضافة إلى صفته الإيجابية هو (قَيِّمًا) . إن هذا النظام الإلهي بصفتيه الإيجابية والسلبية لَيضمن تبديد الظلمات

التي تحملها الأدبيات الدجالية في ثناياها . إنك كلما أوغلت في البحث والنظر فيها ، ازددت إدراكاً أن أهم ما يمتاز به هذا العهد الدَّجالي إنما هو الوصول أو الإيصال إلى الأمور العادية الساذجة بأعقد طريق ، وأصعب سبيل ، وأعوج منهاجٍ . وإنه من اليسير جدًا أن تكسب راحة القلب وسكون الخاطر من خلال التوضيء من إبريق من تراب ملآن ماءً ، ثم الاطّراح على عتبة الخالق البارئ والانقياد له . غير أنك تشاهد أنها تُنْفَق - لتحقيق نفس الهدف و هو تخفيف الهم والغم - عشراتُ الملايين من الروبيات في إعداد الصور السينمائية ، وتُبْذَلُ بلايينُ من الروبيات لمدّ شبكة الملاهي في طول البلاد وعرضها، وتُلْفِي كلَّ بلد ، بل وكلَّ مدينة، وكلَّ قرية من قراها الجامعة يذهب قدر لا بأس به من مكاسب أهلها ضحيةَ الترفيه والتلهي . ورغم ذلك ما تتمتع به أو ما يمكن أن تتمتع به القلوب من البرودة والطمأنينة التي يورثها ماء الوضوء المجّاني والاتصال بالعتبة الإلهية الذي لا يُحْوِج الإنسان إلى تسديد ضريبة من الضرائب ، لن تستطيع - وجرِّب إن شئت - أن تكسبها من خلال كل هذه الويلات والآفات . وكذلك هناك شعور كبير بضرورة تصحيح مسار الأخلاق - اليوم - حتى تتحقق حياة آمنة مطمئنة كما كانوا يشعرون بذلك من قبلُ ، ثم سلكوا لذلك طرقًا لا يمكن وصف مدى زيغها . وإنهم يتخيلون الأجيال اللاحقة ، ويتمثلونها قبل أن ترى النور ، ثم يهدّدون الأجيال الحاضرة بأنها مسؤولة عن أخطائها الخُلُقية أمام تلك الأجيال اللاحقة التي لم تأت بعد . وذلك بعد ما يبيد المسؤولون

عن ذلك . وقد يهددونها بالأخباريين أنهم عندما يسجلون الوقائع التأريخية أو عندما يقومون بالتدريس والتعليم في المدارس ، فلن يُحْسِنُوا لكم ذكرًا . وما أعجب أن يأملوا أن هذه التهديدات من شأنها أنها تكبح جماح أصحاب الفواحش والأخلاق العَفِنَة ، فظنوا هذا الطريق طريقًا ناجحًا ناجمًا قويمًا ، بينما يرون الشعور بالمسؤولية ، ومثول الخلق أمام خالقه ، وبثَّ هذا الشعور في القلوب أمرًا ذا عوجٍ و زيغٍ . ويخيلون إلى المرء الأمر الموهوم بشكل كامل ، المعدوم مطلقًا ، واقعًا وحقًا ، ويفندون الواقع والحق .

وأما من يؤمن بالذي خلقهم ، وأوجدهم دون أن يتقاضى منهم جزاءً ، وبذلك الكريم أرحم الراحمين القدير على كل شيء الذي أضفى على هذا الوجود كما له وفضله ، فإنهم يُوَهِّمونه ويُسَفِّهونه . وعندما تنطلق ألسنة الذين يُوَهِّموننا بأني مفطور على الرجاء ، وأن عقد الآمال بالمستقبل، وعدم اليأس أمرٌ جُبِلْتُ عليه أو بما يشبه ذلك ؛ فإني أتساءل : ما الذي يرجع إليه هذا الرجاء والأمل ؟ فما أعجب عقولهم المعوجة وتأويلاتهم الزائفة التي لايسمعها أحد إلا ويعزّ عليه أن يتمالك ضحكه ، وهكذا دواليك.

ودعْنِي أصارح بأني أرى الحياة الدجالية بجميع أشكالها ونواحيها ، تعقيدات بعضها فوق بعض . وسواء منها ناحية الإنصاف والعدل ، أو ناحية العلاج والمداواة ، أو ناحية التعليم والدراسة وما إلى ذلك ، كل ذلك يبدو لك أول ما تراه متسمًا

بالعوج .. تعقيد وسلسلة من التعقيدات التي دونها كل تعقيد .

وسبق أن قلت : إن نظام حياة – كائنًا ما كان – يستند إلى قانون الارتقاء ، فإنه يستلزم أن ما سلمناه اليوم حقًا و صوابًا بل حصرنا الصواب والحق فيه ، نجد أنفسنا – بالغد – مضطرين إلى الاعتراف بأنّه كان باطلاً وكاذبًا بل كاذبًا كذبًا محضًا صريحًا ؛ فإننا لو ذهبنا نقول اليوم ما قلناه أمس ، ونسلّم اليوم ما سلّمناه أمسِ ، لأصبحتِ كلمة «الارتقاء» هذه ، لا تحمل معنىً . وكأن سفينة النجاة التي قُدِّمت للنوع الإنساني لتصل به إلى ساحل مُناه، من منطلق الأصول الارتقائية ، مكتوب على جبينها بحروف بارزة: «لا يسعنا أن نؤكد للركاب بالوصول إلى الشاطئ ، ونضمن لهم السلامة» فإنه يجوز أن يتحول ما سميناه سفينةَ نجاةٍ – وهى تخوض في لجة البحر – «ورطةَ بلاءٍ» ، أو «لطمة موت» . وبإزاء ذلك سفينة أخرى راسية تضمن لركابها السير بهم بأقرب سبيل وأهدى مسار ، وبالضرورة تصل بهم جميعًا إلى الساحل ، دون أن تميل بهم ذات اليمين و ذات الشمال . وإن خطاب الضمان هذا مختوم بشهادات النفوس الزكية المختارة في كل عهد من عهود التاريط الإنساني ، منهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

وبالجملة تتلألأ توقيعاتُ جميع الأنبياء ، وهداة البشرية على ذلك بحروف من نور . ولك أن تختار هذه السفينة أو تلك لتنجو بنفسك . ومن المأمول أن ينفع ذلك – إلى جانب خاصة الناس – عامّتَهم.

ونكتفي بهذا القدر فيما يتعلق بأول سطر أو أول آية من سورة الكهف ، ونتقدم إلى ما يلي ذلك . فالآية الثانية تبدأ بقوله: (لِيُنْذِرَ). وهذا البيان القرآني مفتوح بأوضح كلمةٍ ، وأبينها نِسَبِيًّا. وكما قلت : يبدأ هذا البيان بالإنذار والتهديد ، فمن الطبيعي أن تنشأ تساؤلات ثلاثة لارابعَ لها ، وهي :

أولاً : بِمَ تهدد هذه السورة التي تخصّ الفتنة الدجَّالية .

ثانيًا : هذا التهديد يعمّ الناس أو يتَّجِه إلى فئةٍ منهم تحمل صفاتٍ ومشاعرَ خاصةً .

ثالثًا : وإذا كان خاصًا غير عامٍّ – كما هو الواقع وسيأتي – فنتساءل : ما هي خصائص الذين يتَّجِه إليهم هذا التهديد . وما هي السمات البارزة التي تميز الفئة التي لم يكن ليتسرب إلى قلبها الخوف من هذا التهديد و ما ينتج عنه .

وهذه هى التساؤلات الثلاثة التي أجابت عنها الآية التالية ، وحان لي أن أقدّم إليكم هذه الإجابات مستضيئًا بالنصوص القرآنية .

بِمَ هدَّدَتْ ؟ هذا هو السؤال الأول . وإذا أعدتَ إلى ذاكرتك ما سبق أن بيناه من ميزات الفئة الدجالية ، فإني أرى أنك تقضي عجبك من أنه كيف جاز هذا التبنؤ – بدون معونة إلهامية – في أهل صحراء العرب القاحلة قبل ثلاثة عشر قرنًا .

والكلمة التي تُعْتَبَرُ كمفتاح ، إذا ما أدركتَها مَثَلَ لَك الواقع و تَبَيَّنْتَه بجلاء ، وهي كلمة (البأس) التي ذكرت القواميس من

معانيها : الشدة في الحرب ؛ القوة ؛ العذاب الشديد ؛ الشجاعة ؛ الخوف . والجامع بين هذه المعاني هو أن كل ما يسوء الفطرة الإنسانية من الأحوال والوقائع ، يُعَبَّر عنها – بالإضافة إلى كلمات أخرى في اللغة العربية – بكلمة (البأس) ، وهذا شَرح لغوي لهذه الكلمة . وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في غير موضع، ومنها في شأن يهود العرب ، يقول : (بَأسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيْدٌ)[1] و يقول وهو يخطر بعذاب الله ، وأنه يفاجئهم من فوقهم حينًا ومن تحتهم حينًا، ويتمثل هذا العذاب حينًا في جعل الناس شِيَعًا يُذيق بعضهم بأس بعضٍ : (وَيُذِيْقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)[2] أي أنّه يجعلهم يتبادلون الضرب والإصابة فيما بينهم . وكما قال مثنيًا على الصابرين : (وَحِيْنَ البَأسِ)[3].

وبالجملة تفسير كلمة «البأس» في مثل هذه المواضع يفيد أن ما تجلب الحربُ والجدال على الطائفتين المقتتلتين من الألم والنكبة يُعَبِّر عنه القرآن الكريم بكلمة (البَأسِ) ، فكأنه مصطلح قرآني ، فَخُذْ هذا المصطلح القرآني في عين الاعتبار ، وتَأَمَّلْ ما يتلوه من النصوص القرآنية : (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيْدًا مِنْ لَدُنْهُ) . وقد تَبَيَّنَ معنى (البأس) ، وأنه عبارة عن الحرب وما يتبعها من نكبات وآلام . ثم وصف البأس بـ (شَدِيْدٍ) . والشديد من الشدة وهي الحدّة والصلابة ، ومعنى ذلك أن الحرب وما تجرّه من نكبات وويلات

(1) سورة الحشر / ١٤ .

(2) سورة الأنعام / ٦٥ .

(3) سورة البقرة / ١٧٧ .

لن يكون أمرًا عاديًا هيّنًا . ولم يكتف بصفة واحدة ، وإنما أتبعها بصفة أخرى وهي (مِنْ لَدُنْهُ) .

وَ كما أن العلم على قسمين : قسم يُكْسَبُ من خلال الطرق والوسائل الموضوعة لاكتسابه ، وقسم يمنّ الله تعالى به على من يشاء من عباده مباشرةً ، وبدون سبب و وسيلة . وهذا النوع الثاني نسميه باللغة الأردية «العلم اللدني» . والظاهر أن هذا المصطلح أُخِذَ من موضع آخر من سورة الكهف هذه . وذلك أن الذي لقيه موسى عليه السلام في رحلته – ويُرَى أنه الخضر عليه السلام – كان من بين ما يمتاز به هذا الرجل ما يصرح به قوله تعالى : (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)[1].

وبالجملة قوله (مِنْ لَدُنْهُ) بجانب قوله : (بَأسًا شَدِيْدًا) – يفيد بدون تأويل أو تفسير مَّا أن الحرب التي تهدد بها الآية هنا ستكون حربًا ضروسًا تفوق الأسباب والعلل . وإن الله تعالى سيوجد من لدنه مباشرةً أحوالاً و أوضاعًا تُخَيِّب كل ما يمارسه الذين يَتَصَدَّوْنَ لها بالأسباب والعلل المحسوسة من حيل ومكائد عقلية ، و مجهودات و مؤامرات مبيتة. فإن ما يمكن مواجهته بالأسباب والعلل المادية هو الذي يتأتّى بالأسباب والعلل المادّية ، أما ما يخلقه القادر تعالى بيده طِبْقًا لقانون «من لدنه» فَهَيْهَات أن يقف في وجهه شيء.[2]

(1) سورة الكهف / ٦٥ .

(2) ثم اقرأ سورة أخرى من القرآن وهي سورة «الدخان» التي تنص على أنه إذ دبّ إلى قلوب الناس دبيبُ الريب والشك من الله تعالى ، والرسول المُبين الذي بُعِثَ فيهم ،

إنـه مـن الممكـن – كمـا قلـت – أن نواجـه أمـرًا مـن الأمـور بالأسباب والوسائل ما دام منشؤها الأسباب والوسائل المادية . وإن الذين لا يؤمنون بغير الأسباب ، ويرون أن الأحداث التي لاتزال ترفع رأسها من خلال الأسباب اللامحدودة في هذه المعمورة ، لاترجع إلى مسبِّب واحد ، أى أنه ليس هناك إرادة خالقٍ حيٍّ قيومٍ قاهرةٌ تجمع شتات هذا العالم المائج بالكثرة والتعدد ؛ وإنما هذا العالم الذي يقاسمه الأسباب والوسائل ، متشتت ومتفرق في الواقع كذلك .

والذي أرسل رسولاً إليهم في العهد التاريخي وكان يقرب من أهل الشرق قُرْبَه من أهل الغرب ، وعرفوا سيرته وسريرته ثم لم يمنعهم كل ذلك أن يتحاشوا عن رميهم إياه بأنه (مُعَلَّمٌ مَجْنُوْنٌ) (سورة الدخان /١٤) أى أنه تَلَقَّى على علماء الديانات الأخرى من اليهود والنصارى و كتبهم ما تلقى ، أو أنه أُصِيْبَ بمرض عقليّ كالصرعِ وغيره من الأدواء ، فكأن ما تغص به مكتبات أوربا من دراسات حول «الرسول المبين» لخَّصها القرآن الكريم في الكلمتين السالفتين الذكر .

والحاصل أن جريمتى الافتراء هاتين كانتا من وراء هذا النداء الصارخ : (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إنّا مُنْتَقِمُوْنَ) (الدخان / ١٦) . ويبدو أنه تعبير عن هذا العذاب «اللدني» وقد ذكر الله تعالى أنه يسبق البطشة الكبرى عذابٌ من دخان مبين . وما هذا الدخان المبين ؟ لم يقطع أهل التأويل في تأويله أمرًا ، ولا يمكن أن يكون من جملة أهوال يوم القيامة ؛ إذ أنه يعاوده الكشف والإزالة ، فقد قال : (إنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيْلاً) (الدخان /١٥)

وبجانب ذلكَ تَأَمَّلْ في الحروب التي تتأجج نارُها في العصر الحاضر ، وجميع ما يُسْتَخْدَمُ فيها من الأسلحة النارية ، فإنها يجمعها أمر واحد وهو الدخان . ويقال : إن القنبلة الذرية التي تَعَرَّضَتْ لها «هيروشيما» أورثت دخانًا طوله أربعون ميلاً ، وعرضه أميال . واللّهُ أعلم بالصواب .

ويعتمد هؤلاء المساكين – كل الاعتماد – على تصرفات الأسباب وتقلباتها ، وعلى الوصول إلى الغاية والعمل على تحقيقها بسبب أو آخر ، فإما فَرَحٌ بهذه المعاناة إذا تم لهم نجاح ، وإما غضب وثورانٌ إذا خاب لهم مسعىً ، وهكذا حتى يقضوا نحبهم . فكأنهم يرون أنفسهم في مفازة غاصّةٍ بأنواع من السباع مرسلةٍ ، لا يدرون أهُمْ يصطادونها أم يعودون هم فريسةً سائغةً لها ، أو كحصان فَكَّ عقاله، فَفَرَّ على وجهه فلا ندرى من يصادمه ، ومن تدوس حوافره رأسه . فهم يعيشون مثل هذه العقلية . وما ذلك إلا من مُسْتَلْزَمَات وضرورات الفلسفة القائلة بالاضطراب والافتراق في خصوص هذا العالم المتكاثر ، والتي تملك عليهم قلوبهم وعقولهم . غير أن هناك جانبًا من رحمة الله الرحمن الرحيم، لا يُحْرَمَهُ الكافرون به والمستنكفون عن عبادته أيضًا ، أي إن فشل سبب من الأسباب يحرّضهم على ممارسة غيره من الأسباب واختباره .

وكذلك الذين يؤمنون بأن هذا العالم المتكاثر يرتبط – أوثق ارتباط – بمشيئة القادر المطلق النهائية، وإرادته الإلهية التي لا تُقْهَر ولا تُغْلَب ؛ وأنه لن يُوْجَد في هذا العالم المخلوق موجودٌ إلا إذا منَّ الله الخالق بإيجاده وإنشائه في هذا العالم بإرادته ومشيئته هو .

وبالجملة أن العالم الذي يبدو معقَّدًا بأنواع من التكاثر ليس معقَّدًا في الواقع ، و إنما ظل ويظل مرتبطاً – أوثقَ ارتباطٍ – بالقوة الإلهية التي تحلّ كل عقدة حلاً نهائيًّا . فالذين يؤمنون هذا الإيمان لا يعانون شرودًا ذهنيًّا ؛ ولكن ما دامت الأشياء يخلقها إرادة

الخالق الواحدة في قوالب الأسباب والعلل المختلفة ؛ فإنهم مأمورون بالتماس نِعَمِ الله تعالى في هذه القوالب من الأسباب ، فإن أعوزهم قالب ، فلا عليهم إلا أن يلجؤوا إلى غيره من القوالب. وإليه يثير قول عمر رضي الله عنه : نفرّ من قدر الله إلى قدر الله[1] فإن المرض من قدر الله، و ما تختص به الأدوية لإزالته والقضاء عليه هي من قدر الله كذلك .

والحاصل أن المرء - مؤمنًا كان أو غير مؤمن - لا يمتنع عليه أن يمارس الأسباب ويجرِّبَها مالم يواجه المسبِّب مباشرةً ، وأما إذا تجسّد البأس الشديد في «العذاب اللدني» وواجهه بنو آدم فإنه يستنفد كل سهم في جعبة الأسباب ، و يفقده فاعليته ، وعندئذ قد لا تتوقف تجارب الذين يعتبرون هذا النظام الكوني السببي غير مرتبط بإرادة مسبِّب واحد ، ولكنها تدلهم على ما قاله الشاعر الأردي ما معناه :

«كلما زدتَ اضطراباً ، وتوثبًا في الشباك ، ازداد الشباك توغلاً و تعلقًا بجلودك» .

وعندئذ يأتي عهد «العذاب اللدني» ويصحبه - والعياذ بالله منه - النداء بـ (إنَّا مُنْتَقِمُوْنَ) فيؤكد تأكيدًا مستمرًا على أن هذه الأسباب التي تفوق خيوط العنكبوت وَهَنًا وضَعْفًا لن تغني فتيلاً .

---

[1] قوله : نفرّ من قدر الله ... شطر من حديث رواه البخاري في الطب ، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩) ١٠/١٧٩ ط: السلفية ؛ ومسلم في كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ، وغيرها (٢٢١٩) ٤/١٧٤٠ - ١٧٤١ ط : الحلبي ، و مالك في الموطأ ، باب ما جاء في أمر المدينة ص ٣٦١ ط : الهند .

وهل الذين لم يعرضوا عن المسبِّب في هذا الكون المكبَّل بقيود من الأسباب والعلل يجدون أنفسهم - بعد ما يواجهون المسبب - مخذولةً حائرة، مِثلما يجد الذين كفروا بالمسبِّب وتاهوا في أودية الأسباب أنفسَهم مخذولةً حائرةً ليس لها حيلة ولا سند .

فيتلو الردُّ على هذا التساؤل الانذارَ بالبأس الشديد اللدني حيث قال : (وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصَّالِحَاتِ ..) أي أن مواجهة المسبب ليس من شأنه أن يبعث على العجب والدهشة من كان يجزم منذ أول يومه بما قال الشاعر الفارسي ما معناه :

«إنه و لابد أن يتمثل ذلك الحبيب بشكل أو آخر» .

فما كان يتكوّن عن طريق الأسباب كان خالقه ، ومكوِّنه هو لا غيرُ ، واليوم إذ خرق حجاب الأسباب ، وتجلى للناس ، فإنه هو يخلق ما سيكون ، ولا يكون ولا يوجد إلا بإرادته و أمره وإذنه هو . وذلك حزب المؤمنين .

إنهم عرفوا و سمعوا وأطاعوا من أنبأه الخالق عز و جل بما يرضيه ، وأمره أن يأخذهم بابتغاء رضاه في حياتهم كلها ، أولئك الذين يعيشون في هذا الكون الذي أبدعه و أوجده ،كما أنهم كذلك من خلقه و إيجاده . وهذا ما نسميه بـ «الإيمان» ، وابتغاء رضى الله الخالق في الحياة هو ما نسميه بـ «العمل الصالح» .

وبعبارة أخرى : اعلم أن «اللاإيمان» لا ينحصر في الكفر بالله تعالى ، وإنما يدخل في نطاق «اللاإيمان» اعتبار ابتغاء رضى الله تعالى في الحياة الدنيا أمرًا لا يوبه به ، أو الخروج على الله تعالى بعدما مَنّ على الإنسان بالعلم والمعرفة أو اعتبار ما يراه ويحوكه

المرء من الأفكار والوساوس رضى الله تعالى أو أن يتبع المرء هواه ثم يظنه امتثالاً لأوامر الله، وابتغاءً لرضاه .

فالهلاك والدمار مصير أولئك الذين رغبوا عن الإيمان ، وسلكوا طريق «اللاإيمان» فضيعوا ما أتيح لهم من فرصة ثمينة لأن يصوغوا أنفسهم وفق رضى الله الخالق .

فأما إذا شق المسبِّب حجاب الأسباب ، وتجلى للناس ، فوجدوه على عكس ما كانوا يريدونه ويتمنونه ، بل مضادًا لكل مُنَاهُمْ ، وماسًّا لمشاعرهم، وقد أحاط ذلك المسبِّب ظاهرَهم و باطنهم متمثلاً في «البأس الشديد» و ملكت عليهم ظاهرَهم ، وباطنَهم نَارُه المتأججة ، فهل كان لهم أن يجتنوا مما كسبوه غير ذلك يا ترى ؟!!

خلاصة القول أن الذين قرروا أنهم لن يعيشوا ولن يموتوا إلاّ مقتفين آثار عباد الله الصالحين من الأنبياء والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – الذين يدلونهم على ما يرضيه تعالى ، قد قطع القرآن الكريم على هؤلاء كل سبيل عسى أن يتسرب منه إلى قلوبهم مخاوفُ من هذا «البأس اللدني» وما يترتب عليه من نتائج، وبشّرهم بأنه – بعد ما انتهت قضية الأسباب – لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وإنما لهم أن يفرحوا ويغتبطوا ؛ فإن مساعيهم و أعمالهم ابتغاءَ رضى الله تعالى ستبدو لهم قيمتُه ، ويدركون قَدره ، وبما أن الأسباب كانت فانيةً فعواقبها – كذلك – فانيةٌ زائلة ، وأما نتائج الطاقات الإنسانية التي يحدثها الطاعة للقوة الباقية التي لا تفنى ، فلتكن غير فانية كذلك .

وهذا ما يفيده قوله تعالى : (أنَّ لَهُمْ اَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِيْنَ فِيهِ أَبَدًا) أي الأجر و الثواب الذي يعقبه السعي وراء ابتغاء رضوان الله في حياة المرء سيكون من شأنه أن يوافق الفطرة الإنسانية و مشاعرها ، وإن الساعين والعاملين سينتفعون بأجر مساعيهم هذا ، انتفاعًا لا ينقطع ، ولا يقف عند حدٍّ ، وأضف إلى ذلك أن إتْبَاع صفة (أجْرًا) لصفة (حَسَنًا) لا يخلو من معنىً .

ولايخفى أن الكلمة مأخوذة من مادة «حسن», وهذه المادة تدل على أن الذين وُفِّقوا للتعرف على مرضات الله تعالى ثم إحداث يقين جازم في نفوسهم لا يتزلزل به وبعواقبه ، وأكدوا عزمهم على أن يعيشوا عيشةً توافق رضوان الله تعالى حَسَبَما أخبرهم به ، ورضوا بالموت على ذلك ؛ فإنهم سيجدون عاقبة هذه الحياة المليئة بالإيمان والعمل الصالح ماثلةً فيما يكون أبرز وأهم ميزته : الحسن ، والجمال . والحق أن الحسن والجمال أكبر ما يتطلبه الفطرة الإنسانية .

فالمراعي الخضراء ، والمياه الجارية ، والبساتين الغناء ، والأزهار المتفتحة ، والثمار التي حان نضجها ، وجميع الأجناس النباتية ، والحيوانية ، والإنسانية ، وغيرها هل تلتمس فيها الفطرة الإنسانية غيرَ الحسن والجمال؟. وإن البحث عن الحسن والجمال هو أكبر رصيد تمتاز به الفطرة الإنسانية . وذلك ما يعوز جنس الحمر والخيول . وهل فيكم من رآى الجواميس تهتزّ طربًا و نشوةً بالمعازف والأعواد ، أو ألفى تَيسًا من التيوس رآى وجهًا مليحًا فتلوّى شوقًا ورغبةً ، أو استهواه الدنوّ من المراعي ؟ . وإلى هذه

المظاهر الجمالية يتبادر ذهني من خلال كلمة (حَسَنًا) بجانب كلمة (أجْرًا) وعبّر القرآن الكريم عن هذه المظاهر بـ «الجنة» .

نعـم ! الجنـة الـتي أخبرنـا بهـا القـرآن الكـريم ، والـتي تـضمن قضاء جميع ما يتطلبه الفطرة الإنسانية ضمانًا كاملاً ، ولكن الرزيّة كلَّ الرزية ما ينفثه هذا العهد الدجالي من أن الجنـة الإنـسانية الـتي نـصّ عليهـا القـرآن الكـريم لا تعـدو أن تكـون قـضاءً للـشهوات الحيوانية والبهيمية . وهذا ما يبثه وينـشره النـصارى ، وهـم يَـرون أن الحياة المليئة بالإيمان والعمل الصالح تحرم مـن خُلِقَ آدميًا جميعَ المـشاعر والأحاسـيس الإنـسانية ، وتحوّلـه مَلَكًـا مـن الملائكـة . وأصدقك أن هذه الجنة الـتي يتبنّاهـا النـصارى لـيس مـن شـأنها أن تكون جزاءً ومكافأةً ، وإنما تكون نكالاً.[1]

من يتجه إليه الإنذار القرآني

تعرض القرآن الكريم لبيان «البأس الـشديد» مؤكـدًا علـى أن هذا الإنذار لايتّجِه إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم قـال مـا قال ، فاقرأه حسبما يلي:

١– وَيُنْذِرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا .

(١) هذا الذي سمَّوْهُ «جنةً روحانيـةً» غير أن الجنـة إذا كانـت تـراد بهـا أن يُحْـرَمَ المرءُ مشاعره الفطرية كَافَّةً ، ويتحوَّلَ مَلَكًـا، فـلا يلتـذ طعامًـا ، ولا يستـسيغ شرابًا ، ويفقـد ميوله الجنسية ولا يُنْشطه مظاهر حسن و جمال ، فليت شعرى كيف يُعَاقَبُ الإنـسان إذا لم يكن هذا عقابًا ؟ و لا أظن نصرانيًا من النصارى – وهو على نصرانيته – ترضى نفسُه بهذا العقاب ، ويصبر عليه . والحق الذي لامحيد عنه أن التفاعل مع الجنات والأنهار وما يشبهها من مظاهر الجمال مما اختصت بـه الفطـرة الإنـسانية . أفيكـم مَـن رآى حُمُرًا أو ثِيرًانًا تتهلل بشرًا وسرورًا من مرأى الحقول الخضراء والعيون الجارية .

٢– مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، وَلاَ لِآبَآئِهِمْ .

٣– كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .

٤– إنْ يَقُوْلُوْنَ اِلاَّ كَذِبًا .

وحان لنا أن نَدْرس هذه الفقرات الأربع من سورة الكهف . وسبق أن قلت : قـد يتـساءل البعض: هـل هـذا الإنـذار المتمثـل في «البأس الشديد اللدني» يَعُمُّ الناس أو يتَّجه إلى فئةٍ معيَّنـة منـهم . والحق أن هذه الآيات السالفة الذكر تـردّ على هـذا التساءل . ولا يخفى أن نـسبة الولدية إلى خـالق الكـون لـيست عقيـدةً مـن عقائـد النصارى فحسب ، وإنما هي الأساس الـذي تقـوم عليـه النـصرانية (Chirstianity) ، منها تبدأ وإليها تنتهي .

وبما أن الكثرة الكاثرة من النصارى تسكن أوربا و أمريكـا ، فلنا أن نستخلص من ذلك أن هذا الإنـذار بالبـأس الـشديد اللـدني يتَّجه مباشرةً إلى هذه البلاد وأهلها . وكـان مـن الـسهل اليـسير أن يعبّـر عنـه القـرآن الكـريم بلفـظ أخـصر منـه و أوجـز ، كلفظـة «النـصارى» أو مـا يـشبهها فمـثلاً يقـول : لينـذر بـه النـصارى ، والمسيحيين ؛ غير أنـه – رغـم إيثاره الإيجاز البـالغ ، و الاختـصار الشديد – وصف النصارى هنا بما مرّ آنفًـا ، وأَضِـف إلى ذلـك مـا أورده القرآن الكريم من فقرات عديـدة تطعـن في عقيـدتهم هـذه ، فهل نعتبره بلاغة ولَسَنًا فحسبُ ؟ لا والله ! إنها فقرات لا تـسوّغ لنا أن نمرّ بها – دون الخوض في حقائقهـا و سبر أغوارهـا – كمـا يمر بها الناس قائلين : المراد به النصارى .

وربما يجوز أن يُتَّخذ مثل هذا الموقـف مـن كتـاب رجـلٍ مـن

الناس ، أما كلام علاّم الغيوب الحكيم الخبير ، فليت شعرى كيف يتجرّأ عليه أحد، فإن جلدى يقشعر من تصوره . إنه كلام خالق الكون الذي صنع هذا العالم .. والذي أكبر ما يمتاز به صنعه أنه مهما بَدَا للناظر إليه هيِّنًا وضئيلاً لا يكون ضئيلاً وإنما يكون دنيًا من الحقائق ، حتى ولو كانت ذرةً من الذرات النووية؛ ولكن إذا ما تم بحثها حق البحث ، ودراستُها حقَّ الدراسة ، انفجرت سيلاً عارمًا من القوة والطاقة كما لا يخفى على أحد . فإذا كان هذا شأن خلق هذا القدير البديع الصنع ، فقل لي بربك أ إذا واجهنا كلامه البديع المعجز ، فهل نكون قد أنصفنا من أنفسنا أن نشرح بكلمة أو كلمتين ما استغرق بيانُه في القرآن الكريم أربع فقرافٍ ، ثم نُحسن الظنَّ بأنفسنا أننا قد وفَّينا كلامَه حقَّه من التدبر والإمعان ، ووُفِّقْنا لفهمه وإدراكه حقًا ؟ مالكم كيف تحكمون؟.

فَضَعْ هذه النقطة نصب عينيك ، وتأمل هذه الآيات الأربع ، وما تحويه من الكلمات .

عقيدة المسيحية ولفظة «الولد»

(وَيُنْذِرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا) .

هذه هي الفقرة الأولى . والكلمات التي عبّر بها القرآن الكريم عن عقيدة النصارى الأساسية أحقُّها بالاهتمام والعناية – فيما أرى – كلمة (وَلَدًا) هذه . ويعبر عنه في اللغة الأردية بـ (لـ كا) أو (بيـ/ـا) أو (بچّه) وغيرها من الكلمات [وفي الإنجليزية بـ (Child) و (Kid) و (Baby) وغيرها من الكلمات] . ولعله يُظَنُّ أن كلمة «ابن» تدل على ما تدل عليه كلمة «ولد» ، فالكلمتان

لاتختلفان معنىً ، فكأنهما مترادفتان .

ولو تأملتَ قليلاً تبين لك أن كلمة (ولد) مأخوذة من الولادة، وهي في اللغة الفارسية بمعنى (زادن) ، وفي اللغة الأردية بمعنى (جننا) [وفي الإنجليزية بمعنى (Birth)] . ومعنى ذلك أننا إذا جعلنا أحدًا ولدًا لغيره فكأننا ندّعى أن الولد يتعلق بذلك الرجل – الذي نُسِب إليه – علاقة الولادة والنشأة عنه ، ولِنُفَكِّرْ – إذًا – في الواقع الذي يُطْلَق عليه كلمة «الولد» هذه .

هَبْ أن زيدًا ولدٌ ، وعمروًا والدُ زيدٍ مثلاً ، فما هي العلاقة بينهما ؟ هل الوالد – وهو عمرو – يخلق ولده زيدًا ، أي يُخْرِج عمروٌ ولدَه زيدًا من العدَم المطلق ، ويضفى عليه الوجود ؛ فلا شك أن ذلك يعدّ تعبيرًا خاطئًا عن الواقع ؛ فإن زيدًا ينشأ كنطفة داخل والده ، وما على عمرو – الوالد – إلا أن ينقُلَ تلك النطفة إلى رحم أمِّ زيدٍ. وإن الولد أى شخص زيد ووجوده ، وما يتبع هذا الوجودَ من لوازم وصفات وما يعقبه من ثمرات ونتائج ، لايكسب شيئًا من ذلك من والده عمرو ، وإنما يمثِّل الوالد بالنسبة إلى ولده – كما قِيل – ممَرًّا كان لِزامًا على الولد أن يمرّ به في مرحلة خاصة من مراحل وجوده ، وهي مرحلة الحوينية أو النطفية ، وإن إحداث المعدوم – إذا كان هذا هو معني الخلق – لايقضي ألبتةَ بأن يكون الوالد خالقًا لولده . وأما إذا جعلنا الخلق بمعنى الصياغة ، كالصائغ يصوغ الذهب والفضة حليًّا ، أو كالذي ينحت الحجارة تماثيلَ وأصنامًا ، وما أشبه ذلك ؛ فإنه بهذا المعنى – كذلك – يستحيل أن يكون الوالد خالقًا لولده ؛ فإن

ما يحمله الولد من رصيد الصفات والكمالات، لا يَدَ فيها للوالد ، كما لا يخفى على أحد . وإن هذا الوالد المسكين ليجهل أن النطفة التي قام بنقلها إلى رحم المرأة أتتخلق ذكرًا أو أنثى ، وما هي الملامح البارزة وما يتصف به من صفات النفس ؟ فإذا كان هذا الوالد يجهل هذه الصفات فأنّى له أن يخلقها و يحدثها ؟!.

وهذا أول أمر جدير بالبحث والدراسة يدل عليه كلمة (ولد) هذه ، وملخصه أن اتخاذ الولد يعنى أن الولد ليس مخلوقًا لوالده بأى معنى من معاني الكلمة و وجوهها .

والأمر الثاني الذي تقتضيه طبيعة كلمة «الولد» هذه ، والذي يسترعى الانتباه أن ما تُنتجه الفرس مثلاً – حسب سُنَّة الولادة وقانونها – يكون فرسًا لا غير ، وكما أنّ الفرس إنما تنتج فرسًا لا فِيلاً كذلك كل عينين تربطهما علاقة الولد والوالد . وهل رأى أحد بطة تَلِدُ فأرةً ، أو فارةً تلد حِدَأَةً ، أو أتانًا تلد ثعلبًا ؟! .

اجعل هاتين المقدمتين – اللتين تدل عليهما كلمة «الولد» بداهةً ، وبدون تأويل أو توجيه – نصب عينيك ، ثم تَأَمّل فيما سوّغه الذين يجعلون لله ولدًا – تعالى الله عما يقولون علواً كبيرًا – لأنفسهم ، إذ اعتنقوا عقيدة الولدية هذه وتبنوها ، وتأمّل فيما أقاموا عليه دعائم دينهم وإيمانهم . إنه اعتراف بأن هناك كائنًا من دون الله ، ليس من خلق الله . فالله سبحانه لم يخلقه ، ولا خَلَقَ ما يحمله من صفات و كمال . وهذا هو الجانب السلبي لعقيدة «الولدية» أى أن الولد وما يتصف به من صفات وكمال في غِنىً

عن خلق الله تعالى أي لم يخلق الله شيئًا من ذلك . وهذا ما تتطلبه المقدمة الأولى .

والمقدمة الثانية وهي أن الفيل لاتلد إلا فيلاً والناقة لاتلد إلا مثلها . فالمتولد من الله تعالى –والعياذ بالله – حسبما تقتضيه سنة الولادة ، وقانونها لا يكون إلاّ إلهاً ؛ لأن الفرس لاتلد إلا فرسًا . وهذا يستلزم أن الفرس المولود لابد أن يتصف بجميع صفات الفَرسية ولوازمها مما كان يتّصف به الفرس الوالد . فإذا سوّغنا مثل هذه العقيدة في جنب الله تعالى ، أفلا نكون قد سلَّمنا أن هذا الولد الذي ولده الله تعالى يحمل جميع صفات الكمال مما يخص الله تعالى ؟!

وهذه هي الصورة المرعبة المخيفة للعقيدة التي تقوم عليها دعائم المسيحية ، وإنما يكشف القناع عن هذه الحقيقة كلمة «الولد» ، وأما كلمة (ابن) فليس من شأنها وضعًا أن تُطلِعَنا على هذه الصورة الفظيعة الشنيعة للمسيحية .

والحق أن ما فُطِرَ عليه المرء من حبّ وشفقةٍ ورحمة ، وغيرها من المعاني تُجَاه ولده الذي خرج منه ، إذا نشأت هذه المعاني بينه وبين من ليس ولدًا له في الواقع ثم خاطبه بكلمة (ابن) فإنّه يبدو أنه كان أمرًا سائغًا سائدًا في اللغة العربية . وهذا القرآن الكريم نفسه يدلّنا على أن اليهود كانوا يقولون لأنفسهم : «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ» .

وأرادوا بذلك أن الله تعالى يرتبط بأولاد إسرائيل – دون من عداهم من بني آدم – ارتباط الوالد بولده . وإن شئت قلت : إن

اليهود لم يكونوا يزعمون أن الله وَلَدَهُمْ وخرجوا منه – والعياذ بالله منه – وإنما كانوا يرون أن لهم عند الله منزلةً مرموقةً غير عادية ، فعبَّر عنه القرآن الكريم بـ (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ) ثم إن الله تعالى لم يزد – في طعنه في زعمهم هذا – على أن قال : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوْبِكُمْ ، بَلْ اَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)[1]

وإذ سوينا بين ادعاء ابن الله ، وبين ادّعاء ولد الله ، وجعلناهما يؤولان إلى أمر واحد ، فهل يبقى النصارى مختصين بهذه العقيدة ما دام اليهود – هم الآخرون – زاعمين ذلك كما يصرح به القرآن الكريم .[2]

---

(١) سورة المائدة / ١٨ .

(٢) هذا ، وإن الكتاب الأول من الكتاب المقدس وهو سفر الخليقة يبدأ بهذا النص :

«وأما الجبابرة فكانوا في تلك الأيام على الأرض ؛ لأن من بعد ما دخل أبناء الله على بنات الناس وولدن ، فهولاءِ هُم أقوياء منذ الدهر مشهورون» . (سفر الخليقة الباب السادس) .

وهذا النص – إذا لم يكن مما أدخِل وألحِق به ، ولم تنل يد التحريف والتبديل ترجمتَه – ربما يسوِّغ لنا أن نقول : إن اليهود لم يكونوا يتحاشون عن القول بأن الملائكة أبناء الله . وقد يكون من هذا الباب أن يتجرّأ بعض المسلمين على القول بأنه ابن الله استدلالاً بالحديث الشهير الذي يرويه البخاري في صحيحه مرفوعًا : «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» .

ولكن المسلمين – ولله الحمد – نشأوا منذ نعومة أظفارهم نشأةً قللت من ظاهرة قلة الحذر أمثاله .

قوله : لله أرحم بعباده ... شطر من حديث رواه البخاري في الأدب المفرد ، باب رحمة الولد و تقبيله و معانقته (٥٩٩٩) ١٠/٤٢٦ ط : السلفية ؛ ومسلم في التوبه باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤) ٤/٢٢٠٩ من حديث أبي هريرة ، ولفظ البخاري : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سَبْي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها

وأيًّا ما كان فإن كلمةً واحدةً من القرآن الكريم وهي كلمة «الولد» – التي تكررت غالبًا كلّما تكرر بيان عقيدة النصارى هذه في هذا الكتاب – تدلّنا دلالةً مباشرةً – فيما أرى – على أن عقيدة النصارى في الواقع عبارة عن الاعتراف بكائنٍ دون خالق الكون، لم يخلقه الله تعالى ، وإنه يحمل جميع صفات الكمال الإلهية، وإن لم تُسَمِّهِ النصارى إلهًا ، وسموه ولدًا لِله ، غيرَ أن كونه ولدًا لِله يتطلب تلقائيًا أن يكون هو إلهًا كذلك ، لاغير.

حقيقة عقيدة المجوس

لاشك أن الإلـٰهيات – وإن شئت قلت : القضايا التي تتعلق بذات الله وصفاته – لقِيَت في مختلف العصور أنواعًا من النزاع والخلاف الحادّ ، وظلت الأمم تَخْبط خبط عشواء في هذه الخلافات والمناقشات المتمثلة في الشرك ، وعبادة الأصنام ، ووجوهها المختلفة المعقّدة التي لا تُحْصَىٰ ؛ ولكن التاريخ يشهد بأن النفوس البشرية ظلت مستيقنة – وحتى في أفظع صوَر الشرك والكفر – بأن خالق هذا الكون واحد ، لا ثاني له . وإن ما يشهده العالم اليوم من الرصيد الضخم الهائل من تواريخ الأديان والملل لايدلنا على من يقول بإلـٰهين ، اللهم إلاَّ فرقة في «إيران» تسمى بالمجوسية يَنْسِبِ إليها من ينسب القولَ بإلـٰهين : «أهرمن» و «يزدان» ، وأنها ترمز لهما بالنور والظلمة ، وأنها – كما يُعْزَىٰ

تسقي ، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها ، وأرضعته ، فقال النبي ﷺ : أترون هذه طارحةً بولدها في النار ؟ قلنا : لا. وهي تقدر على أن لا تطارحه . فقال : «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» .

إليها – تعترف بوجود كائنين – لاكائن واحدٍ – لم يخلق أحدهما صاحبه ؛ فتقول : إن من الكون ما خلقه «يزدان» ، ومنه ما خلقه «أهرمن» أو إن منه ما خُلِقَ من نور ومنه ما خُلِقَ من ظلمةٍ . وعلى الرغم من أن الدراسة الواعية تنفى عن المجوس مثل هذه العقيدة ، وتعتبرها مما افْتُرِيَ عليهم . ولو سلّمنا أن المجوس قد زعموا ذلك حينًا من الدهر ، فإن زعمهم هذا قد بلغ من الركاكة بمكان لايلبثون أن ينتبهوا بقرعٍ ذهنيٍ خفيفٍ .

وغايةُ ما يُعْزَى إليهم من القول في تأويل هذه العقيدة أن الكون يكتظّ بالخير والشر ، والصلاح والفساد ، فـ «الله» أو «يزدان» نَرْبأ به أن ننسب إليه خلقَ الشر والفساد ؛ إذ هو خير مطلق ، وإذًا لابد من القول بتواجد «أهرمن» بجانب «يزدان» حتى يتأتّى خلق الشر والفساد .

هذا ، وتَأَمَّلْ في واقع صفات الخير والشر التي نَصِف بها أشياء الكون تَجِدْ أمرًا واحدًا في الواقع، كالنار – مثلاً – نعدّها خيرًا ما دامت تَطبط لنا طعامًا ، وتَهَبُ لنا ضوءًا ، وأما إذا أصابتنا بسوء حينًا من الدهر، فأحرقت بيوتًا أو اصطلت بها الدواب والناس ، فلا نلبث أن نعتبر النار هذه أسوأ شيء . والحاصل أن الشيء الواحد يختلف باختلاف الاستعمال والاستخدام ، فيبدو خيرًا تارةً ، وشرًا تارةً أخرى . وإن المجوس رأوا أن الشر والخير كما تختلف أساميهما كذلك يفارق وجود الشر وجودَ الخير في هذا الكون في الواقع . وأما إذا تفطّنوا لهذه المغالطة اللفظية ، وعرفوا أن أمرًا واحدًا قد يبدو شرًا ، وقد يبدو

خيرًا ، فليت شعرى هل تبقى فيهم رغبة في البحث عن خالقين لمخلوق واحد ؟!

والحديث عنه يطول فَدَعْنا نعد إلى ما كنا بصدده ، وهو أن غاية ما يمكن الاعتماد عليه والاستدلال به على ذلك ، هي هذه المغالطة اللفظية المحضة لا غيرُ . وأما إذا فقدوا هذا العماد الوحيد فقل لي : هل يبقى العقل – بعد الاعتراف بخالق واحد للكون – مضطرًّا إلى أن يلتمس – دون جدوى – إلهًا آخر دونه . نعم : إذا كان وجود الله تعالى لا يكفي لتوجيه خلق الكون بشكل أو آخر، فربما يُسَوِّغ ذلك – إلى حدٍّ مَا – للعقل الإنساني أن يلتمس إلهًا آخر . وأما أن وجود الله تعالى لا يكفي لتوجيه خلق الكون فلم نُلْفِ أحدًا يزعم ذلك بعدُ، ولا يستطيعه . كيف ولو زعم ذلك وادعاه لم يستطع أن يؤيد دعواه هذه ولو بدليل داحضٍ ، وحجة واهيةٍ . وكثيرًا ما تشاهد القرآن الكريم يطالب المشركين بالدليل في شأن التوحيد ، فيقول – مثلاً – : ﴿قُلْ هَاتُوْا بُرْهَانَكُمْ﴾[1] أو يقول : ﴿فَأْتُوْا بِسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ﴾[2].

ومعنى ذلك أن المُوِّحدَ – بإزاء المشرك – يقوم مقام المنكِر ، فكأن المشرك يستقلّ وجودَ الله تعالى ويستصغره ، فيمدّه بقوىً لا تُعْبَد ولا تُؤَلَّه . فهو – إذًا – مدّعٍ ، والقياس أن البينة على المدعي، لا على المنكر . وإن القرآن الكريم يُرشد المسلمين إلى أن يقولوا – إذا ما واجههم مشرك من المشركين – : إننا لا نرى حاجةً إلى أن

(١) سورة الأنبياء / ٢٤ ، سورة النمل / ٦٤ .
(٢) سورة إبراهيم / ١٠ .

نُمِدّ الأله الواحدَ بإله آخر.

ومن ثمّ نجد تاريط الشرك العام خاليًا من خالق دون الله الواحد . إنهم نقّبوا في أنحاء المعمورة بحرها وبرّها ، وحيث شهدوا تجمعًا بشريًا شهدوا عقيدةَ توحيد خالق الكون . وإن جميع ما عبده بنو آدم – سوى الخالق الواحد – في مختلف العصور أو عقدوا به آمالاً أو لجأوا إليه ، فإنما كان ذلك عن اعتراف بأن كل ذلك – رغم أنه مخلوق – يساعد على حلّ مشاكله في الحياة . وهذه المغالطة – هي بدورها – ترجع إلى عدم وَعْيِهم لكلمةٍ واحدةٍ ، وهي كلمة «مخلوق» .

ارتباط الخالق بالخلق

أتدرى أن ما يكون مخلوقًا كيف يرتبط بالخالق أو كيف ينبغى أن يرتبط به ؟ إن الناس نظروا إلى ما بين أيديهم من الأعيان، فارتأوا من خلالها رأيًا، أى أن بين أيديهم إما أشياء ليس بعضها مخلوقًا للبعض كزيد وعمرو مثلاً وهما رجلان من الناس ، ولا يخفى أن زيدًا غير مخلوق لعمرو ، ولا عمرو خالقٌ لِزيد . فإذا شاهدوا أمثال هذه الأعيان قطعوا أن الخالق والمخلوق يرتبط بعضهما ببعض ارتباط زيد وعمرو رجلين من الناس ، أو ارتباطًا يماثل ارتباطهما . و غاية ما نقول : إن الأعيان التي ليس بعضها خالقًا للبعض إلا أنه قد ينشأ بينهما علاقة الصنعة والعمل كالحجر – مثلاً – ينحته النحَّات تِمْثَالاً بِعَمَلِه الصناعي أو يبنى البنّاءُ من الآجر والجص والنورة دارًا ، أو يتخذ النجار قِطَعًا خَشَبَيةً، ويتخذ منها – بالخرط والتسوية – كرسيًّا . وإن شئت قلت : إنهم يرون

ما يربط الصانع بالمصنوع ، فيظنون أن الخالق يرتبط بمخلوقه بهذا النوع من الارتباط ، رغم أنهم إذا حاولوا إدراك مدى ارتباط الخالق بالمخلوق من خلال الوجهين السالفين – أوّلهما أو ثانيهما – لما استطاعوا ، ولغاب الواقع عن الأنظار ، وتاه المرأ في المتاهات وتبلبلت الأفكار . والسبب واضح وهو أن الأعيان الكونية التي يرتبط بعضها بالبعض ارتباط الصانع بالمصنوع أو لا يرتبط هذا الارتباط ، ليس من شأنها أن يُوجِدَ بعضُها بعضًا . فأما ما لايرتبط منها ارتباط الصانع بالمصنوع ، فلا يخفى حاله . وأما الصانع والمصنوع أنفسهما فتأمل : أن الحجر أو الخشب أو الآجرّ والجصَّ والنورة وغيرها مما يعالجه الصانع بعمله الصناعي ، فليس منه شيءٌ ما يضفي عليه الصانع الوجودَ ويُخرجه من حيّز العدَم إلى حيِّز الوجود، أو يُلْبِس المعدوم المطلق لباسَ الوجود والكون ، وإنما يُبرز الصانع بعمله وصنعته المواهب والقدرات المودَعة الأشياءَ الكونية من ذي قبلُ . فالحجر – مثلاً – يحمل إمكانيةً مسبَّقَةً ليتحول صَنَمًا ، والناحت يبرز ويرقّى هذه القدرة المكنونة فيه فعلاً. ولِمَ لا يستطيع هذا النّحات أن يعالج جزءًا من أجزاء الريح فيحوّله لنا صنمًا منحوتًا من الريح ؟ وسببه ما قلنا : إن الريح غيرُ قابلة لتتحول صنمًا .

وخلاصة القول أنه بحكم عدم توفّر ارتباط يماثل ارتباط الخالق والمخلوق فيما نراه ونشاهده ، نجد كل امرئ يفرض لنفسه ما شاء له الهوى في شأن الخالق والمخلوق أو الله والكَون ، استنادًا إلى أمثلة خاطئةٍ ، بوعي أو بغير وعي ، على أنه وإن لم يتوفّر

مثلـه، فـإن مثالــه متـوفّر في نفـس الإنـسان وباطنـه ، وإن أَعْـوَزَه ظاهرُه ، أي ما يحدثه ويتخيله المرء من الأعيان في اليقظـة والمنـام ، يعكـس عكـسًا ضـئيلاً – إن صـح هـذا التعـبير – ارتبـاطَ الخـالق بالمخلوق ؛ فإننا إذا أردنا أن نخلق بالقوة الخيالية عينًا من الأعيـان مجردةً من المادة ، لا يُحْوِجنا ذلك إلى أكثر من إرادة خَلْقِ هـذا المخلوق المثالي ، وإن المرء ليتخيل البِنَاءَ العالي الـذاهب في الـسماء والجبل والبحر والشمس والقمر .

ورغـم أنـه مثـال نـاقص ؛ لكـن لـو تأملـت هـذه المخلوقـات الخيالية ، ومـدى علاقتهـا بخالقهـا لم يَخْـفَ عليـك أن مـا نخلقـه في خيالنا وأوهامنا ونَتَوهَّمُهُ مـن الأعيـان لا يُوْجَدُ مـستقلاًّ ، فمـثلاً تَخَيَّلِ المسجدَ الجامعَ في «دهلي» أي أَوْجِدْه بقوتك الخيالية وأمعِنِ النظر فيه تَجِدْ هـذا المخلـوق الـذي أحدثْتَـه يحتـاج في خلقـه عينًـا وصفةً وحالاً . وبكل نواحيه ، إلى إرادتك الخالقـة . وإنـه عقـب تواجده وحدوثه – يظل عينًا ، وصفةً ، وحـالاً مفتقـرةً إلى لفتــة خالقــةٍ مستمرةٍ منـك . ويـدوم وجـوده مـا دامـت قوتـك الخياليـة تقوم به ، وما إن فقد لفتتَك هذه ، وحُرِمَهَا حتى انهار وجـوده ، وتلاشى مكانُه .

وإذا كـان هـذا شـأن مـا خلقـه الإنـسان و أوجـده، فلـك أن تستوحي منه أن العلاقة الاحتياجيّةَ بين المقتِدر الحق الخالق الكون، وبين خلقه أشدّ وأكثر بمراحل لاتُحْصَى دون ريب ، وأن خلقًـا من مخلوقاته لايملك مــن قطمير ، وإنمـا كـل ذلـك لخالقـه جـلّ وعـلا، وإنـه – وجـودًا ، وعينًـا ، وصـفةً – يـرتبط – ارتباطًـا أوثـقَ

يـشمل كـلّ لحظـة مـن لحظـات حياتـه – بلفتـة كريمـة مـن الخـالق وحده. وإن معنى المخلوقية حقًا هو الاحتيـاج المطلـق ، وكـل مَـنْ تَبَيَّنَت له حقيقة المخلوقات هذه ، وجد نفسه في غِنيً عنها، حتى إنه ليرتاب في وجـود هـذه المخلوقـات فـضلاً عـن أن يتعامـل معهـا ويمارسها ، بل قد أدرك البعض هذه الحقيقة ، فمـا لبـث أن صـاح قائلاً ما معناه :

إي والله إن يكن هو فلستُ أنا بشيء.[1]

هـذا ، وقد طال بنـا الحـديث عـن هـذه القـضية الجانبيـة رغـم محاولتي الإيجاز والاختصار ؛ فأعود إلى ما كنـتُ بـصدده . وذلـك أن المرء ربما لايدوم على خطئه في اتخاذ المخلوق معبودًا – بعـد مـا اعتبر المخلوق مخلوقًا – إلاّ ريثما لايكتنه حقيقةَ المخلـوق، وأمـا إذا أدرك حقيقة ارتباط الخالق بالمخلوق وتبين أن المخلوقية عبـارة عـن العجز المفرِط ، والبؤس المتناهي لاغير ، فإنه يفاجئ نفسه بإنقاذهـا وسلّها من وادي الشرك الحالك الظلام الذي هبطت به إلى الأمثلـة الخاطئة . وإلاَمَ يعكف الإنسان على عبـادة معبـود يعـرف عنـه أنـه بدوره يحتـاج – وجودًا، وعينًـا ، وصـفةً، وفعـلاً ، وفي كـل ناحيـة من نواحي وجـوده – إلى من عداه ، وإنـه رهـن إرادة غـيره وطـوع أمره ، وغير مستبدّ برأيه وإرادته .

تنقيح نظرية الولدية

ومن ثَمّ جميع ما يُؤثَرُ من تأليه مخلوق مـن المخلوقـات – بعـد

(١) وهـذه قـضية طويلـة الـذيل ، وإنمـا تعرضـنا – في الكـشف عـن حقيقـة المخلوقيـة – لجانبٍ منها ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى كتابي: «الدين القيم» .

اعتباره مخلوقًا – دون الله تعالى لا يُشْكِل أمره ، ولا أقل من أنه لايُشْكِلُ إشكالَ هذا النوع المدهش من الشرك الذي يقوم على عقيدة الولدية ؛ فإن هذا النوع يحاول تأليه كائنٍ ليس من خلق الله، وإنما هو ولد الله ، تعالى الله عن ذلك . ومما يبعث على العجب أنهم – رغم اعترافهم بأنه ولد – يؤكّدون على أن عقيدة النصارى الأساسية كذلك لا يشوبها الشركُ ، وإنما قِوامها التوحيد الخالص . مع أنّك ترى أنّ «وَلَدَ الله» هذا قد خرج من نطاق خلق الله تعالى ، وإن الولدية تستلزم أن يكون ولدُ الله إلـٰهًا لاغيرُ .

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد ؛ إذ لم نتعرّض بعدُ إلا لما اَضطَرَّتْ نظريةُ الولدية أصحابَها إلى تسويغ ما سوّغوه في شأن الولد ، واعترفوا به في خصوصه، وأما الجانب الآخر من القضية أي كون نظريةُ الولدية هذه اضطرت أصحابَها إلى أن يتقوّلوا على الوالد ما تقشعر له الجلود ، فَدُونك ما يلي :

لايخفى أن لفظة «الولد» بجانب الوالد – تذكّرنا – طبيعيًا – بالوالدة ثم ماذا ؟ إن فرائصي لترتعد لتخيله فضلاً عن ذكره والتعرض له ، غيرَ أن هذه النظرية المدهشة البَشِعة النكراء سوّلت لأصحابها أن يتبجحوا بالاعتراف بالوالد ثم بالوالدة ، وبالتالي إلى اعتبار جميع وظائف الوالدين جزءًا لاينفك من إيمانهم ، وإن رغمت أنوفهم .

وهذا الذي ذكرناه يفيده قوله تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا﴾ فهلّم بنا إلى ما يليه من قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِه مِنْ عِلْمٍ،

وَلاَ لآِبَائِهِمْ﴾ .

تَأَمَّلْ هذا النص القرآني ولا يخفى أن العلم بالشيء له وجهان لا ثالث لهما ، أي أن الذين تَلَقَّوه إما أن يكونوا تلقّوه مباشرةً أو بواسطة ، أي بلغهم ذلك عن طريق أولئك الذين تَلَقَّوْه مباشرةً . فهذان الوجهان – بواسطة وبدون واسطة – يُتَلقّى منهما العلمُ . ثم تَأَمَّلْ أن نظرية الولدية ، اعتبار شخص من الأشخاص ولدًا لله، بدلاً من اعتباره مخلوقًا له جلّ مجده ثم اعتباره ولدًا – رغم أنه يضادّ القرار البشري الكلي بأن ماسوى الله تعالى كله مخلوق له – إخراج شخص معيّن من نطاق خلق الله ، والاعتراف بإله آخر ، حيث أَمَدُّوا الله تعالى بولد له ، ثم الاعتراف بأن امرأةً من العائلة البشرية قامت بما تقوم به الوالدة من الوظائف والمهامّ ، لِيسوغ وجودُ الوالدة بجانب الوالد ، ثمّ ما يُسَاوِر النفسَ من وساوس وخطرات مخزية ، واعتبارها عقيدةً دينيةً ، وتفسير نظرية الولدية هذه تفسيرًا فلسفيًا ، ثم نقش الصور الخيالية التي تنِمّ عن هذه العقيدة في أبواب الصوامع والبيع وجدرانها، واتّخاذ تماثيلها ، وصياغة أصنامها من حجر أو نحاس فضلاً عن تَدْوِيْن الآلاف المؤلفة من الكتب والرسائل ، مما يُؤكد على هذه العقيدة ، هل كل هذه الزوابع تحمل في جانب أو موضعٍ أو مرحلة من مراحلها ما يمكن أن يدّعيه هذه الفئة المتبنِّية لها أنه مما تلقّته مباشرةً أو أن في آبائهم الأولين من رآى ذلك رأي العين أو جرَّبَه ، ومارسه حينًا من الدهر ؟ !.

وما أفظع وأنكر وأرهب وأبشع هذه المزاعم التي تحملها

عقيدة الولدية هذه ؟!! و لِيُنصف أهلها: هل يسعهم أن يدّعوا أنهم تلقّوا علم شطر منها - لاكلّها - بواسطةٍ أو بدون واسطة ؟. فسآءت لهم حِملاً . إنهم ادّعوا خروج كائنٍ من الكون عن كونه خلقًا لله تعالى ، وإنه يعنى ضمّ إلهٍ آخر إلى الله تعالى. وإنهم يتقوّلون على الملك القدوس ما تشمئزّ نفوسهم هم من تصوّره ، وإنهم يستندون في جميع ما حملوه من المسؤوليات ، إلى «اللاشيء» ليس إلاّ .

وما كان لهم أن يقولوا أكثر من أن المسيح عليه السلام - بحكم أنه وُلِدَ من «الوالدة» مريم عليها الصلاة والسلام دون «أب» — من ذا الذي نجعله «أبًا» له . وهذا التساؤل غير مُنْكَر ، ولكن يعنينا هنا الرد عليه أي القول بأننا لّما لم نَجِد له والدًا من بني آدم لزم أن نجعل الله تعالى له والدًا . فأقول لك : ما الذي يقوم عليه هذا الادّعاء ؟ أرأيتَ أن عمروا إذا لم يكن والدًا لزيد ، فهل يعني ذلك أن بكرًا أب له ووالد ؟ وقل لي : هل يتأتّى هذا الادعاء على علمٍ وبصيرةٍ ؟ وهل بمجرد أن المسيح لم يكن له أب من بني آدم يسوّغ لنا منطقُ العقل أن نستنتج منه أن كل امرئٍ من الناس لايُعرَفُ له أبٌ ، فإن الله هو أبوه . أليس ذلك وسوسةً فارغةً لا أساس لها ، وإنما أملاها الجهل .

وقدِّر إذًا قدرَ هذه الآية الثالثة التي تلت الآيتين السالفتين الذكر، أي ما وجه إليه القرآن الكريم - بعد ما نص على أن عقيدة الولدية هذه لاتقوم على أساس من العلم - من الانتقاد اللاذع بآكد أسلوب وأشدّه لهذه النظرية ؛ حيث قال : ﴿كَبُرَتْ

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ إن يَقُوْلُوْنَ إلاَّ كَذِبًا﴾[1] أليس هذا تعبيرًا صادقًا عن الواقع ؟ أرأيت ادعاءً أشدّ ، وأفظع من أن يتخذ المرء أمرًا ليس له سند ولا أساس من العلم ، ولم يخطر ببال أحد عَبر التاريط الإنساني ، مِعْولاً مثلَ ذلك يهدم به نظام الإلهيات بأسرها، ويقطع أوصالَها .

ولا شك أن جميع ما تمّ افتراؤه على الله تعالى من منكَر القول والزور واللغو ، أشدُّه وأفظعُه ما تنطلق به ألسنة أصحاب نظرية الولدية هذه . ومما يبعث على العجب أن هذه العقيدة التي نَحَتُوْهَا لاتمتّ بسبب إلى الواقع، ولا يؤيّدها أحد النوعين من أنواع العلم، وهما : العلم بواسطة والعلم بدون واسطة . فلا يسعهم أن يستشهدوا عليها حواسّهم ولا أبآءهم وأجدادهم ، فضلاً أن تحظى بتأييد من العقل والمنطق . والحق أنهم لو ذهبوا كل مذهب في الفكر لم يجدوا العقل إلاّ أنه يأباها وينكرها . وذكر القرآن الكريم في موضع آخر نظرية الولدية هذه فقال : ﴿تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وتَنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا﴾[2]

والمرء - إذا لم يمعن النظر - يتساءل باندهاش: لماذا انتقد القرآن الكريم هذه العقيدة بهذا الأسلوب البالغ في شدته وحدتّه وروعته حتى قال : إن هذه العقيدة مما تقشعر له السّمٰوات والأرض ؟ ويبدو أن أمثال هذه المواضع في الغالب مما يوهم الأعداء الشامتين أنه مغالاة شاعرٍ أو إفراط خطيب . رغم أني

(١) سورة الكهف / ٥ .
(٢) سورة مريم / ٩٠ .

عهدتُ القرآنَ الكريمَ لايحيد في تعبيره وبيانه – مهما بلغ أسلوبه من الجلالة و الروعة بمكان – قِيْدَ شعرةٍ عن الواقع. وإن روعة الألفاظ هذه إن دلت على شيءٍ ، فإنما تَدُلّ على أن الواقع الذي تَنِمّ عنه هذه الألفاظ هو بدوره يتّصف برفعةٍ وجلالٍ غَير عَادي مما يجعل السموات يتفطرن ، والأرض تنشقّ ، والجبال تَخِرّ هدًّا .

إنك قد علمتَ آنفًا أن نظرية الولدية في الواقع حيلة خَفِيّة ، وأسلوب خادع يسوِّغ زيادة إلهٍ بجنب إلهٍ . ولا يعزبنَّ عن بال أحد أن زيادة إلهٍ بجنب الله تعالى يؤدي – كما صرح به القرآن الكريم – إلى فساد السموات والأرض .

إذًا فهذا النص القرآني السالف الذكر إنما يحكي علينا النتيجة المنطقية التي تستلزمها هذه العقيدة لاغيرُ. أي أن تواجد إلهٍ بجنب إله يتطلب فسادَ العالم ودمارَه ، ورغم أن الوصول إلى الأدلة العلمية الحكيمة على هذا الادعاء الذي يتناول الإلـٰهيات لعسير على عامــة الناس ، إلا أني أقرّب لهم القولَ فيه ، وأبسطه لهم بسطًا . وذلك أني أسلفت آنفًا – خلال شرح علاقة الخالق بالمخلوق بالمثال – أن ما تتخيله من المخلوفات لك أن تتأمل فيه ، مثلاً تأمّل أنك جالس على كرسي ثمّ اخلق مخلوقك الخيالي في هذه الحالة تجد أن الكرسي أو المكان الواحد يسع – إلى جانب وجودك – وجودَ المخلوق الخيالي . أما إذا حاول شخص آخر ليس مخلوقًا لك – كزيدٍ مثلاً – أن يتبوأ نفس الكرسي في الوقت الذي جلست عليه فيه ، فمن المستحيل يقينًا أن يجتمع متمكنان في مكان واحدٍ معًا . أرأيتَ الفرق بين الوجهين . أليس الوجه الثاني

يفقد ارتباط الأمرين بعضهما ببعض ارتباطَ الخالق بالمخلوق ، بخلاف الوجه الأول فإنك تُمَثِّلُ الخالق ، والذي خلقتَه بقوتك الخيالية يحكي مخلوقًا لك ، وإن كرسيّك الذي جلستَ عليه يسع مخلوقك الخيالي مهما عظم طولاً وعرضًا ولو كان جبل «هملايَا»[1]

واجعل هذا المثال نصب عينيك وتأمّل : كيف يسوغ أن نتصور – بجنب الله تعالى – وجود كائن ليس مخلوقًا لله تعالى ، وإنما يسوغ اجتماع وجود الخالق مع مخلوقاته ، لأن أحدهما خالق ، والآخر مخلوق له . أما إذا لم يكن أحدهما مخلوقا للآخر ، فإن ذلك يشبه ما شرحناه من مثال الجالس على الكرسي . إن الحيّز الذي يملؤه ، وجودُ زيدٍ من الكرسي ، هَيْهَات أن يملأه وجودُ عمرو ، وإن أي محاولة لذلك تُمَزِّق الكرسيّ ، وتقطع أوصاله.[2]

---

[1] جبل «هملايا» أو «حملايا» : (HIMALAYA) أضخم وأعلى سلسلة جبلية في العالم. تمتدّ عبر بلدان باكستان والهند ، وكشمير، والنيبال ، والتبت ، و يونان . يبلغ طولها ٢٨٠٠ كم وعرضها ٢٥٠ – ٥٠٠ كم تعتبر «إفرست» أعلى قمة فيها ٨٨٨٠ كم . راجع : المنجد ص ٧٣٠ .

[2] هذا ، وتأمل من ناحية أخرى أن آلةً من الآلات إذا كان تشغيلها وإدارتها بأقصى سرعتها تحتاج – مثلاً – إلى قوة بخارية تساوى قوة مائة حصان ، فَوُفِّرَتْ لها هذه القوة وتم تشغليها وإدارتها ، ثم أمِدَّت هذه الآلة – علاوةً على قوتهاً – بقوة حُصُن أخرى . فماذا عسى أن يجر إليه هذا العمل العشوائي سوى أن تتفتت الآلة وتتبعثر أجزاؤها . وإن نتيجة تأثير علتين تامتين في معلول واحد لا تقتصر على الآلات وحدها .

ثم انظر : أن القوة التي تدير العالم وهي التي سماها القرآن بـ«الرحمن» وهي صفة من صفات الله تعالى ، وأنه يمثل القلب بالنسبة إلى محور الكون – الذي يسميه القرآن بـ

وهكذا إذا فرضنا – بجانب الخالق – دون المخلوقات – وجود كائنٍ خارجٍ عن نطاق مخلوقاته ، فإنه لا يؤدّي منطقيًا إلا إلى ما نص عليه القرآن الكريم وهو انهيار نظام العالم وفساده .

وأما ما ورد في القرآن الكريم في سورة مريم نفسها بعد ذكر النتيجة الحتمية لنظرية «الولدية» من قوله:(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا)[1] فإن لفظة «إِدًّا» العربية وإن كانت واحدة إلا أننا إذا نظرنا إلى ما تشمله هذه اللفظة من المعاني ، علمنا أن المراد منها : الأمر الداهي المنكَر ، وما يأباهُ الفطرة الإنسانية كل الإباء . وهذا كله تحويه لفظة «إِدًّا» العربية . وبالنظر إلى ما قدّمناه لك من لوازم نظرية الولدية ، وآثارها ونتائجها ، قُل لي : هل هناك تعبير أوفى وأدقّ منه عن هذه العقيدة البشعة ؟!

ولم نتعرض لحد الآن إلا لجوانب القضية التي تمس انفعالات المرء العقلية والنظرية ، وإذا ما ألحقنا بهذه الانفعالات العقلية ، الانفعالاتِ العاطفيةَ ، فلا تسأل عما يستطرد بنا الحديث إليه .

وإن من أشدّ ما يمس العواطف والمشاعر ما يعبَّر عنه في

«العرش» – وقالبِ العالم . وإن «الرحمن» يدير العالم مُتَمَرْكِزًا في قلب العالم هذا . فإن أضفنا إلى هذا «الرحمن» رحمانًا آخر ، فإنه يعني أننا قد أضفنا إلى هذه الآلة الدائرة بأقصى سيرها بقوة مائة حصان ، قوةً بخاريةً تعدل قوةَ مائة حصان أخرى . وعقيدة الولدية تستلزم ذلك . فإذا عبَّر القرآن الكريم عن نتيجة نظرية الولدية هذه بان السّماوَات يتفطرن ، والجبال تهد هدًا ، والأرض تنشقّ منها ، فهل يُعَدُّ ذلك إلا تعبيرًا صادقًا عن واقع الأمر ؟!!

[1] سورة مريم /٨٩ .

اللغات المختلفة بألفاظ مختلفة ، فمثلاً نعبّر عنه في الأردية أو الهندية بـ «گالي» ، وفي الفارسية بـ «دشنام» وفي العربية بـ «السب والشتم» وما إلى ذلك من مختلف الكلمات السائدة في اللغات المختلفة .

ولا يخفى أن المسبوب والمشتوم لم ينقص السبابُ شيئًا من روحه أو جسده نقصًا مادّيًا في الواقع ، وإنما تثير حركةُ لسان السابّ تياراتٍ ترتعش وتضطرب في الهواء . فإن تحرّك شيء فإنما يتحرك لسان السابّ ، وأما المستمع له ، فلم يتضرر بشيءٍ . ولا شكّ أن هذه هي الصفة الصادقة المعقولة لتلك الألفاظ أو الفقرات التي نعبِّر بها عن السب والشتم . ورغم ذلك لايعزب عن بال أحد أن هذا السب الذي لايقيم له العقل وزنًا ، قد يهيج العواطف والمشاعر هيجانًا عظيمًا ، ثم تستفز هذه المشاعر والانفعالات العاطفية المائجة الهائجة المرأ استفزازًا يجعله يُقْدِم – أو يرضى بالإقدام – على ما لا يُقْدِم عليه ولو تضرر ضررًا مادّيًا .

وبالنظر إلى هذا الواقع العاطفي أتساءل : إن الذي ليس أبًا لزيد مثلاً في الواقع ، لو ذهبتَ تجعله أبًا له ؛ فماذا ترجو من زيد إذًا؟ هب أنّ الذي جعلته أبًا لزيد – مثلا – ملك من ملوك العصر، أو رجل صالح تقي نقي ، هل من شأن هذا أو ذاك أن يخفف من ردّ فعل سلبيّ شديد من زيد ؟ وهل يسامحك زيد بمجرد أنّ من رَميتَ به أُمَّ زيد عظيمٌ من العظماء أو ملك من ملوك البلاد أو وليّ من أولياء الله أو صالح من العباد ؟ وهل الحذاء الذي انطلق من يده صوبَك يحول دون وصوله إليك هذا التأويل والتوجيه ؟

والذي ينسب المسيحَ عليه السلام إلى الله – وهَيْهات أن

يكون ولدًا لله تعالى - أفلا يرى أنه - إذ ينسب ولادة المسيح إلى الله تعالى عن ذلك علوًّا كبيرا - يسبّ المسيحَ عليه السلام كما يسب والِدَتَه عليها السلام . ولو تأمّل لأدرك أن ما يتقوّله على الله تعالى شيء لا يصبر عليه آدميّ مُهَذَّب فَضلاً عن الله عز وجل .

إن امرأة ليست زوجةً لك ، واتُّهِمْتَ بها ، أفتستطيع أن تصبر على هذا الاتهام ؟ والحق أن أصحاب عقيدة الولدية أو البنوّة هذه يسبون المسيح في الواقع كما يفضحون أمَّه الطاهرة العفيفة الحصينة المعصومة .

ولو كان لهم من العقل والفقه نصيبٌ ، لعلموا أنهم يسبّون ويشتمون الخالق المالك أرحم الراحمين تعالى الله عما يفترون ، وأنه لوقاحةٌ أيةُ وقاحةٍ وإساءة أية إساءة لايستطيعون الصبرَ عليها ، ثم يرجون من الله تعالى أن يصبر عليها .

وقيل : إن انشقاق السماوات والأرض والجبال أسلوب من أساليب اللغة العربية ، وإنما أريد به أن هذه الأشياء لو كانت تشعر وتُحِس ، لَتصدّعت من هذه الشتائم .

وبالجملة إنما مارسوا كل هذا الضغط والاضطهاد على المشاعر العقلية والانفعالات العاطفية ، لأجل أنه - بحكم عدم توفر بشر كوالد للمسيح عليه السلام - كان لِزامًا أن ينسبوه إلى أحد ، ولو كان ذلك أمرًا لا يتطلبه العقل والمنطق . وإن جميع موجودات الكون التي يخلقها الله تعالى بواسطة أو بدون واسطة هي مما أجمع الأديان والملل كافةً على أنها كلها مما خلقه الله تعالى بقوله : «كُنْ» أي إن أرادته الخالقة الموجِدة ، وأمره بالإيجاد والإحداث ،

هو الكفيل الوحيد لوجود كل الموجودات . ذلك هو شأن جميع ما يخلقه بدون واسطة مما يتعلق بعالم الأمر. وأما ما نراه من تواجد الأشياء بعضها من بعض ، فمهما بدت فيها وسائط في الخلق ، فإن هذه الوسائط لايتوقّف عليها خلق شيءٍ من ذلك . وإن الخلق والإيجاد يرجع مباشرةً إلى الله تعالى . وهذا أمر تدين به وتعتقده النصرانية أيضًا بصفة كونها أمّةً لها دينُها وعقيدتها، سواء آمن به غيرهم أم لم يؤمنوا .

وإذا كانت هناك أشياء لا تحصى ولاتعد ، تُوْجَد وتُخْلَق بكلمة «كن» الإلـٰهية ، فليت شعري ما الذي منع النصارى أن تجعل خلق كائنٍ واحدٍ وهو المسيح عليه السلام راجعًا إلى إرادة الخالق الموجِدة وكلمته «كن».[1] وهو أمر لايستثقله العقل، ولا

---

[1] ومن أجل الإقناع بهذه الحقيقة أكّد القرآن الكريم أن الإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - يُعْتَبر على كل حال أول فرد من أفراد الإنسانية خُلِقَ بدون أب و أم . وإن العقل الإنساني قد أذعن لهذا الحادث الواقع حقًا . فما الذي يعجزه عن الاعتراف بوجود إنسان بدون والد فحسب لابدون الوالدين ؟ وإذا كانت كلمة الخالق تعالى: «كن» كَفَتْ خلقَ آدم عليه السلام ، فما الذي يحمل العقل على أن تعتبر هذه الكلمة نفسَها غيرَ كافية لخلق المسيح عليه السلام، وعلى السعي وراء التماس والدٍ له ، سَعْيًا غَير مُجْدٍ . ثم مما يبعث على العجب أن يقوم النصارى بإثارة الرغبة في البحث عن متطلبات هذا السعي غير المجدي في القلب وبالقضاء قضاءً متنهائيًا في السفاهة والوقاحة بأنه يستلزم - والعياذ بالله - أن نجعل الله تعالى والدًا وأبًا له ؛ إذ لم نجد له أبًا من البشر . أرأيت هذه المزاعم يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا منطقيًّا .

وَدَعني أقول : إن النصارىٰ إذ كان أعوزهم أبٌ ووالد للمسيح من أبناء البشرية ، وكان يلزمهم أن يوجدوا وساطة بين والدته ووالده ؛ كي يتحقق وجود المسيح ، فبحسبهم نص الإنجيل هذا : «قالت مريم للملك : أنّى هذا ، ولم أعرف رجلاً ؟ قالت : يتنزل عليك روح القدس ، ويظللكِ من قدرة الله تعالى ظُلة» . (لوقا ١/٤٤)

يجرح المشاعر ؛ غير أنّهم لم يراعوا المشاعر العقلية ، وحالت الانفعالاتُ العاطفية دون أن يدّعوا أمرًا يجرّ وراءَه من الغرائب والعجائب ما تشاهده أنت . وإن القضية التي أبى العقل إلاَّ أن يمجّها فَورَما عُرِضت عليه ، والتي تهيج العواطف بشكل شديد ، يحاولون أن يستسيغوها ، ويستسيغها غيرُهم . فإذا ألفينا القرآن الكريم ينادى على معتقدهم هذا بـ (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) وبـ (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إدًّا) فقل لى وأنت منصف غير زائغ

إن هذا النص الذي لخصه القرآن الكريم في آياته كان بحسب النصارى أن يروُوا به الغلة الكاذبة في البحث عن الوساطة هذه إن شاؤوا ، أي إن والدتها وهي مريم موجودة، وروح القدس – الذي نص الإنجيل على نزوله – ونفخه الذي كان عملية ملكوتية ، كان بوسعهم أن يلتمسوه فيه . ولو شاؤوا أن يجعلوه مناب الوالدية ، لفعلوا .

هذا ، وما ذكره الصوفية المسلمون من أن وجود المسيح كان يشكل قالبًا برزخيًا من البشرية والملكوتية ، وإنه بشر من جهة أمه ، وإن الملك أو روح القدس أو جبريل و نفخه أورث المسيح شأنًا ملكوتيًا . وذكروا أن ما كان يتمتع به المسيح من قوة الفهم و الإدراك والعقل والوعي الكامل فورَ ولادته ، وما انطلق به لسانُه ، وهو في مهده من قوله الذي حكاه القرآن الكريم : (إني عَبْدُ اللّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وجَعَلَنِيْ نَبِيًّا) (سورة مريم/٣٠) كان نتيجة لتلك البرزخية، بخلاف الأطفال الذين يُوْلَدُوْن من والدين من البشر ، فإن أرواحهم يغشاها غشاءٌ ماديٌ من جهة الأبوين جميعًا . وبناءً على ذلك تحتاج عملية إيقاظ القُوىٰ الروحية فيهم إلى مدة من الزمان . وأما المسيح عليه السلام فإنما كان يغشاه غشاءٌ خفيف من جهة أمه فحسب . فلم تتطلب عملية إيقاظ قواه الروحية إلى هذه المدة من الزمان ، بل نرى المسيح عليه السلام على خلاف السنة الإلٰهية العامة التي تتحكم في بقاء الإنسان المخلوق من والدين من البشر . ويرجع ذلك إلى أنه عليه السلام لم يكن آدميا بحتاً من جميع جهات الآدمية ، وإنما كان يحيىٰ حياةً تشبه حياةَ جبريل وميكائيل ، وأمثالهما من الملائكة التي لاتحصى ولا تعدّ ، غير أنه كانت تشوب وجودَه شائبةٌ من البشرية من جهة أمه ، فلا بد أن تتحكم فيه سنّةُ الموت البشري في نهاية أمره .

ولا جانح في الحكم : ما الذي عسى أن يُعَبَّر به تعبيرًا صادقًا عما كانوا يعتقدون .

وهذه أمور تتعلق بنظرية «الولدية» ويثيرها كلمة الولدية هذه. وأما ما عانىٰ وسيعانيه تاريخُ أهل هذه العقيدة أولاً ، وأمم العالم تبعًا لهم ، من الفوادح والدواهي المرهقةِ التي تمسّ النفوس البشرية ، والتي جرّتها عليهم هذه العقيدة ، فإن تفاصيله يتناولها ما تشير إليه الآية التالية .

من عجائب الإشارات القرآنية في شأن نظرية الولدية

دونك سورة الكهف تَجِدْ هذه الآية : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلٰى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤمِنُوْا بِهٰذَا الحَدِيْثِ أسَفًا) .

إن سورة الكهف – على أنها من أولها إلى آخرها تحوى عجائب من الإشارات – ولكن أجدرها – وعلى الأقل فيما أرى شخصيًّا – بالعناية هذه الآية من بين آياتها ، ولاسيما هذا الشطر من هذه الآية وهو قوله : (آثَارِهِمْ) . والآثار واحدها «أثر» . والكلمة سائدة في اللغة الأردية كذلك . وإن ذهن المرء لا يتبادر من إطلاق كلمة «الأثر» في الأردية إلى ما فيها من معنىً ومدلولٍ في اللغة العربية . وجاء في بيان معناها في اللغة الفارسية – كما في منتهى الأرب – أثر : «بقيه چيزے ونشان» أي أن الأثر بقية الشيء، والعلامة .

ثم قال : ومنه الأثر بمعنى موقع القدم . ثم ذكر المثل العربي: لاَتَطْلُبْ أثرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، يضرب لمن يطلب أثر الشيء بعد فوات عَيْنِه . وهذا معناه لغةً .

والكلمة الثانية «بَاخِعٌ» . وهو من البخع ، ويترجم – في الغالب – إلى ما يرادف الهلاك والدمار. وفي العربية أمثلة وجمل مشهورة على الألسنة ، ومنها: بخع الأرض بالزراعة أى نَهَكَهَا ، وتابع حرثها ، ولم يُرِحْهَا سنةً حتى أفقدها قوةَ الإنبات . وبخع الركية : حفرها حتى ظهر ماؤها . فمعناها الإجمالي : المبالغة في الاجتهاد والسعي ، لتحقيق غرض من الأغراض ، والبلوغ بالشيء منتهاه . وهذا ما يدل عليه لفظة «البخع» في اللغة العربية .

والكلمة الثالثة : (أَسَفًا) ، وتترجم إلى ما ترادف الهم والحزن؛ ولكن الهم والحزن – في الواقع – له حالة عادية ، وقد تتفاقم ، وتشتد شدةً متناهيةً ، وتفوق كل ما يمكن أن يُتَصَوَّر من أحوال القلق النفسي ، فيُعَبَّرُ عن هذه الحالة القلبية بـ «الأسف» ، ومنه الأَسِفَة للأرض الفاقدة قوتها الإنباتية نهائيًا .

ونظرًا إلى هذا الشرح اللغوي للكلمة وبأبسط أسلوب يمكن أن نستخلص منه أن النصارى إذ حُرِمُوا الإيمانَ بالقرآن الكريم والتوفيق لتصحيح مسار علمهم وعملهم استنارةً بتوجيهاته ، فإن القرآن الكريم لايُكَلِّفُك أن تبخع نفسك أسفًا على هولاء النصارى ، وإنما يوجه خطابَه إلى رسول الله ﷺ في شأن ما يخلِّفه هذه الأمة المتبنية لعقيدة الولدية وراءها من آثار ونتائج ومغبات ، متسائلاً : أَتُهْلِكُ نفسَك أسَفًا على ذلك .

وهذا هو الملخص والفحوى للنص القرآني ، ولا يخفى – إذًا – أن القرآن الكريم لم يكن – والعياذ بالله – كلام شاعرٍ ، وإنما ذكر واقع أمرهم بأسلوب أقرب وأصح وأوفق ؛ و أخبر النَّاس به.

فقد كان ﷺ تنتابه حالة نفسيةٌ ، وتثور في داخله عاصفة من التحرق والألم ، تحمله على الرضا بالتضحية بكل ما يملك ، وحتى بحياته . وإذا كان هذا هو الواقع – ولن يكون سوى ذلك – فقد يتساءل البعض : ما هي الآثار و العواقب التي كانت تثير الرهب والخوف ، وترقق القلب ، والتي أفرزتها عقيدة الولدية مما كان أثّر في النبي ﷺ هذا التأثير البالغ ؟ ولا شك أنها لم تكن أمرًا عاديًا ، يجيء ويمرّ . ولذا قلت : إن أجدر ما في هذه الآية بالتأمل والنظر إنما هو كلمة «آثَارِهِمْ» . بودّي أن أخوض في تفاصيل «آثارهم» هذه بما يدلّ على ما يكمن في هاتين الكلمتين – وهما : «آثار» و «هم» – من تاريط طويل لفئة خاصة من الجيل الإنساني .

أي إن عقيدة الولدية أو اعتبار مخلوق من المخلوقات ولدًا لله مهما كان يرفضها العقل و يأباها المشاعر، فإنها كذلك تصادم الذهنَ فترتدّ ، ويقيئها القلب ؛ فإنها كلمة تخرج من أفواههم . ثم نسبةُ هذه العقيدة إلى الأفواه ظاهرُها يؤمئ إلى أن هذا الادّعاء الغريب لم يمتَّ إلى القلب أو الذهن بسببٍ ، وإنما هو قول انطلق من أفواههم فحسب. فَمن الأفواه ابتدأ ، وإليها ينتهى ، وليس لنا أن نلتمسه وراء ذلك .

ولكن المشكلة أن المرء إذا فرض على نفسه أمرًا، وألزم نفسه بالاقتناع به بشكل أو آخر ، فإنه يهون عليه أن يجد ما يسلِّي به نفسه . ومن الحقيقة التى لاجدال فيها في شأن الدين أن ما تنتهى عنده حدود الحواس والعقل ، منه يبدأ الدين القيام بهداية الناس . وإن شئت قلت : إن ما يعجز عنه العقل الإنساني من الرد على

الأسئلة التي تثيرها الفطرة الإنسانية ، فإن الدين هو الذي يضمن الإجابة عنها .

وهذا هو الواقع ، وإن الحاجة إلى الدين تكمن في القيام بهذه المهمة . ولبيان هذا الواقع قد لايبالى البعض أن يقول – مثلاً – : إن الدين ما وراء العقل. وإنه يردّ على الأسئلة التي تتجاوز حدود العقل الإنساني . ولا يخفى أنه لا يعنى البتتةَ – سابقًا أو لاحقًا – أن الطمأنينة التي يوفِّرها الدين ، والتي تقضي على القلق الذي تعاني منه الجبلة البشرية ، من خلال أجوبته ، أمرٌ لايسع العقلَ الإنساني أن يؤمن به ويستسلم له . وإن شئت قلت : إن الماء الذي يوفِّره الدين لتبريد غلة الفطرة أو الغذاء الذي يهيئه لسد جوع الفطرة ، إنه ماءٌ أو غذاء يصيب مجردُ تصوره وتخيله العقلَ والعواطفَ بالغَثَيان . فهذا لا يصح إطلاقًا .

وأما الأسئلة الأساسية الحيوية التي نعالجها في ضوء الدين ، فالواقع أنه لا يمكننا أن نتخذ حواسَّنا أو عقولنا مصدرًا للعلم بالأجوبة عن هذه الأسئلة . غير أن الإيمان أي أهلية القبول والإذعان لهذه الأجوبة ، لابد أن نتصف به على أية حال . وإلا فإن فقدنا أهليةَ قبول أمر من الأمور والاستسلام له ، فأنّى للدين أن يطالبنا بالإيمان به والإذعان له ؟ وهل يسوغ أن نكلف العين بالسماع أو الأذنَ بالرؤية ؟

وطَالَمَا تؤكد الكتب الكلامية القديمة عندنا في شأن الحقائق الدينية على إمكانيتها . أي أن الدين لا يطالب الناس مباشرةً بالعلم بالأجوبة التي يقدِّمها ، وإنما يطالبهم بالإيمان بها فحسب.

ويستلزم ذلك أن تحمل الفطرةُ الإنسانية أهلية الإيمان بهذه الأمور، كي تصح هذه المطالبة . فالدين الذي تأبى الفطرة الإنسانيةُ قبولَ توجيهاته أجدرُ بأن يكون دينًا للجنّ والملائكة ، وأما أن يكون دينًا للبشر فهيهات وهيهات .

وبالجملة أنها قصة طويلة ، ومن لم يقتنع بهذا البيان الموجَز ، فعليه أن يرجع إلى كتابي «الدين القيم» . وإنما أودّ هنا أن أقول لكم : إن ما قدمتُه لكم من الأصل الضابط للدين وحقائقه أمر معروف و مشهور يحكِّمه الناس – في الغالب – في المقارنات بين الأديان والملل المختلفة . وفي الأيام الأخيرة غلا المفكرون الأوربيون في ذلك ، ونفثوا في الأوساط الدينية ما تلاشى معه – لحدٍّ مَا – الفارقُ بين العلم والإيمان . أما السذّج من الناس ، فإن الدين – دائمًا – يطالب الناس بالإيمان أي يقول لهم : «آمنوا» فيردون عليه : إننا لا نعلم هذه الأمور . فكان كأن يُقَدَّم لأحد وردة ، ويُطَالَب بشمّها ، فيقول : إنى لا أسمع رائحة الوردة .

وإن ما أثير من التردد والريبة في شأن الملائكة ، والجنة ، والنار ، والبرزخ ، وأمثال ذلك من الحقائق الدينية في العقول المشربَة الأفكارَ الغرَبية ، كان يقوم على تلبيس أمر الإيمان والعلم هذا ، عليهم . فالدين يقول : آمنوا بالملائكة . فيرد عليه العقلانيون الغلاة بما يوحى إلى أنهم يقولون : إننا لا نرى الملائكة، مع أنهم لم يُطَالَبُوْا بالرؤية قطّ ، وكأنهم أُكِّد لهم أن الدين إنما يأتي بما يمكن إدراكه بالعقل والحواس . وإذاً يسوغ قبوله والانصياع له ، وأما أن الدين له أن يزيد العقل والحواس

علمًا على علمهما ، فهذا ما حُرِمَه الدين . وإن فئةً كبيرةً من «المتعقِّلين»[1] لاتزال تضرب بجناحيه داخل شباك هذه المغالطة .

على كل ، فقد كانت هذه قصة زمن مضى . وفي الأيام الأخيرة سادَت حركة جديدة الدوائرَ الدينية في أوربا نفسها ، وهي أنهم اتخذوا هذه القضية – وهي أن الدين وراء العقل – تكأةً لَهم ليأتوا بالعجب العجاب ، وهو أن الدين يزداد صدقًا وحقًا قدر ازدياده بعدًا عن العقل والمنطق . وإن الدين الذي أكّدت المعاييرُ العقلية صدقَ جميع معتقداته وسلامته من الزيف والغش ، نودي عليه بأنه ليس دينًا ، وإنما هو نوع من المعضلة العقلية .

إن عقيدة النصرانية الأساسية – أي عقيدة الولد لله تعالى – التي ترغم المرء على أن يعتقد الواحد ثلاثةً ، والثلاثةَ واحدًا والتي تُعَدِّ أكبرَ دليل على صحة النصرانية وصدقها ، ليس للعقل أن يقبلها ويخضع لها ولا للفطرة الإنسانية أن تستجيب لها .

فكان من نتيجة ذلك – ولن يكون سوى ذلك – أن العقيدة التي تصدم العقل أيّما صدمة ، وتجرح القلب أيّما جرح ، ظلت تحوم داخل نطاق أفواه أهلها ، دون أن تتجاوزها إلى القلب والعقل و تتبوأ منهما مكانها .

ظهور الكنيسة

وإنك لتقضي العجب من أن هذه «القضية الأفواهية» ، رغم أنها بدورها لم تستطع أن تتعدى اللسانَ واللهاةَ ، كما لم يرغب معتنقوها أن يُوَسِّعُوا نطاقها إلا أن النصارى يُوْلَعون بالمسيح عليه

[1] أي الذين يتكلفون العقل والفطنة .

السلام وَلَعًا يعزّ مثيله في تاريط الأديان العالَمية .

ولتكن أسباب هذا الولع ما كانت ، وسواء أدّى إليه إضفاء الصورة الإنسانية على الإلٰه أوكان يرجع ذلك إلى أن أصحابها طرحوا فكرةَ الولدية مغلَّفَةً بغلاف الكَفَّارة.[1] فاستحالت سلعةً

[1] أي أن من شرائع الأديان ، وأوامرها ما يُفْرَض فرضًا ، ويُلزَم إلزامًا ، وبناءً على ذلك يقدِّم إلى معتنقيها قائمةً من المتطلبات العملية . ومن ثَمَّ يقوم كل دين على «إيمان» و «عمل» . وإن الأديان كلها بصفة عامة تؤكد توجيهاتُه الأساسية على ضرورة كل من الإيمان والعمل . ومن الطبيعيّ أن يتساءل المرأ بعد ذلك عما عسى أن يجرّ إليه التقصير في التقيد بأحد جانبي الإيمان والعمل . واختلفت إجاباتهم عن ذلك اختلافَ ميولهم الطبيعية بين إجابة مركزة على جانب الإيمان و بين إجابة مركزة على جانب العمل . وإن قصة باب المعرفة والإحسان عند الهندوس ترجع إلى اختلاف وجهات النظر هذا. ومن هذا الاختلاف تفرعت الفرق المنتمية إلى الإسلام أمثال المرجئة والخوارج . فالمرجئة تعتبر الإيمان مِلاكَ الأمر ؛ فَمَن آمن، ولم يَعْمَلْ عملاً لم يحرم النَجاة ، بخلاف المعتزلة ، والخوارج القائلة بأن الإيمان الذي لا يؤدي إلى عمل ، لا يحمل قيمةً .

وتميل اليهود بصفة عامة إلى التركيز على العمل والذي تعبره بـ «الشريعة» . وعندما قام القديس «بال» بعرض فكرة «الولدية» على النصارى ، كان ينادي بجانب ذلك قائلاً : «ها قد بدا صدق الرب بدون الشريعة» .

فما هذا الصدق بدون الشريعة ؟ قال : أي الصدق الذي تلقاه كافة المؤمنين بالمسيح لأجل الإيمان به .

وسُمِّي الطريق إلى تلقى هذا الصدق بـ «الصدق المجاني» فيقول القديس بال في رسالته هذه : «وبوسيلة التخليص المتمثلة في المسيح يُعتَبَرون صادقين مجّانًا .

وبيانه أن الله تعالى جعله – أي المسيح – بسبب بذله دَمه، كفارةً تنفع بالإيمان به . (انظر : رسالة القديس بال إلى الروم ، الباب الثالث منها)

وكانوا يقولون : إنه من المستحيل أن يعاقب الله تعالى المرأ بسبب خطيئة واحدةٍ عقابين . وما دام أن المسيح تَحمَّلَ – مرةً واحدةً – الإثم عمن آمن به ، ورضي بأن يموت صلبًا ، فهيهات أن يعود إلى عقابهم مرةً ثانيةً على خطيئتهم . وهذه هي قضية التكفير والفداء . وإن هذا التساءل : ما ذا أعمل فأنجو ، والرد عليه بـ «آمِنْ بالمسيح تَنْجُ»

رائجةً في سوق الأديان وغير ذلك من الأسباب والوجوه .
وحدث أنه رغم أن هذه القضية ظلت تُحلِّق في نطاق الأفواه ، إلا أنها انشقت منها جذور وعروق دقيقة لا تُحْصَى ولاتُعَدّ ولا تقف عند حد ، وأخذت تنمو و تزدهر وتنتشر كالأخطبوط في أعماق الذين تبنَّوها . وما إن لقيت هذه الجذور جوًّا ملائِمًا لها حتى تفرعت منها فروع وأغصان ، فأزهرت وأثمرت حتى تَحَوَّلَتْ دوحةً باسقةً سمَّتْها الأوساط العلمية بـ «الكنيسة» (Church) مما جعل تاريط الأديان يعجز عن أن يأتي بمثله فيما سبق ، ويعزّ أن يُوْجَدَ له مثيلٌ في المستقبل بما تحمل من صفات وخصائص .

وكان المرء يزعم أن العالم المسيحي كله يتجمع تحت ظلال هذه الكنيسة ، وهو في الواقع كان مُكَبَّلاً بالجذور التي تشبه السلاسل الحديدية ، والتي تفرعت وامتدت في أعماقه ولَفَّت المسيحيين من مفرق الرأس إلى أخمص القدمين .

وكيف نشأت الكنيسة ؟ وكيف ابتدأت ؟ وما هي الحيل المقبولة أو غير المقبولة التي مارسها أهلُها في نقل رسالة المسيحية من نطاق اليهود – أو بني إسرائيل – الضيق إلى الأمم الأوربية من غير بني إسرائيل ممن كانوا لا يرون الخِتان جزءًا من إيمانهم، ودينهم ؟ و «شاوُل» – الذي تَسَمَّى بعدُ بـ «بولس» ، ويعرف اليوم بـ «القديس بال» – من هذا الرجل ؟ وكيف سار من مسقط رأسه : «طرسوس» بـ «كيليكية» في آسيا الصغرى[1] حتى بلغ

مما يردده العالم المسيحي كثيرًا .

(١) طرسوس Tarse مدينة في جنوبي تركيا الآسيوية (قيليقيا)، فيها ولد القديس بولس

فلسطين ، وظهر بها كتلميذ وَفِي للأحبار اليهود، واضطهد المسيحيين اضطهادًا بالغًا أولاً ، ثم أخذ رسائل من أحبار الهيكل توافق على اضطهاد النصارى أخيرًا وَسَار بها إلى دمشق ، وفي طريقه إليها يفاجئنا بدعواه أن روح المسيح تجلّت له ، فسمعها تناديه : شاوُل ! شاوُل ! ولِمَ تضطهدني ؟ فقال : من أنت يا سيدي . قال : أنا يسوع الذي تضطهده ، وقال له : قُمْ وادخل المدينةَ ، يُقَلْ لَك ما ينبغي أن تفعل.[1]

ثم كيف تحوّل من عدو لدود للمسيحية إلى مُبَشِّر بها وداعٍ إليها ؟ وما هي الأمكنة التي تنقّل فيها ، وكيف انتهى به المطاف إلى رومة الكبرى . – عاصمة الرومان – أسيرًا في عهد الملك «نيرون»[2] ثم قُتِلَ بها ودُفِنَ . ثم كيف اتُّخِذَ رومةُ مركزًا للمسيحية استغلالاً لمقبرة «بولس» هذا بها ، بالإضافة إلى زعمهم، وافترائهم أن بها قبر «بطرس» أحد حواريي المسيح.[3] وسُمِّي هذا

رسول الأمم . فتحها المأمون ٧٨٨م، وفيها دُفِنَ . (المنجد للأعلام ، ص ٤٣٥)

(١) راجع : سفر الأعمال ٩/٤–٥ .

(٢) نيرون Neron (٣٧–٦٨م) إمبراطور روماني (٥٤–٦٨م). ابن كلوديوس بالتبني. اتبع في البدء نصائح معلمه الفيلسوف «سينيكا» ثم طغى . قتل «إغريبينا» أمه، و «أوكتافيا» امرأتَه . واضطهد المسيحيين ، واتّهمهم بإحراق روما . اشتهر بفظائعه . انتحر . (راجع: المنجد ص ٧٢٠)

(٣) إن الفضل في عظمة كنيسة رومة وقداستها كان يرجع لحدٍ كبيرٍ ولمدّةٍ غيرِ قليلةٍ ؛ إلى مقبرة بطرس المزعومة هذه . وقد تمّ تفنيد هذا الزعم في الأيام الأخيرة ويُرىٰ أن بطرس مات يبشر في المناطق المتخللة بين العراق وإيران . وموضع الخلاف بين وجهة نظر القديس بال و القديس بطرس هو أن اعتقاد المسيح ولدًا لله تعالى يضمن نجاة المرءِ فيما يراه القديس بال ، بينما يرى القديس بطرس أنه يجب – بالإضافة إلى ذلك – امتثالُ

المركزُ فيما بعدُ بـ «كنيسة رومة» ؟ وكيف تمكنت السلطة المطلقة أو السلطة العليا – التي كانت تعكس القوة الجماعية التي كانت تحظى بها كنيسةُ رومة هذه باسم البابا – من العرش وغلبت عليه؟ ثم قامت سلسلة باباوات تخلفها باباوات أمثالها إلى ما لا ينتهى ، ثم امتدت سلطة البابا في كنيسة رومة ونفوذه الذي لا يعرف نهايةً ولا يقف عند حدٍّ ، يومًا فيومًا ، حتى أصبح الملوك لا يملكون تجاهه حولاً ولا طولاً فضلاً عن عامة الناس . إن نفوس المسيحيين الأوربيين وأموالهم وأعراضهم كان يملكها البابا وخلفاؤه الذين انتشروا كالحشرات في طول البلاد وعرضها ، واتّخذوا لأنفسهم كنائس ومعابد. فالناس جميعًا يكدون ، ويكدحون في كسب الأموال ، وما على الباباوات إلا أن يأكلوها أكلاً لمًّا.

إن أمثال هذه الأسئلة التي تستغرق الإجابةَ عنها الآلافُ من الصفحات ينبغي أن يراجع لتفاصيلها تاريط أوربا العام ، وتاريط الكنيسة الرومية ، ولكنّ التعرضَ لشيءٍ من الشواهد التاريخية على سبيل المثال ، قد يكفي الذين ليس لهم إلمام بالتفاصيل التاريخية فيما يتعلق بالدين المسيحي الصليبي ، وبما ظلت تعاني منه أوربا . بعد ما دَخَلت في الدين الصليبي هذا .

أوامر الشريعة الموسوية . وقد تَوَصَّلَ الباحثون في ألمانيا في الأيام الأخيرة إلى أن المسيحية التي أنشأها القديس بال تختلف عن المسحية التي جاء بها عيسى عليه السلام . وهذا الاختلاف يرجع إلى أول عهدها.

راجع : تاريط بائيبل بلبيكي ترجمة أردية لطالب الدين ص ٥١٨ .

وخلاصة القول أن الدين الصليبي الذي بشَّر به القديس «بال» وقضية الكفارة والفداء بالإضافة إلى فكرة «الولدية» ظلت تتوسع داخل أوربا حوالي ثلاثة قرون . وبذلت الحكومة الوثنية الرومية قصارىٰ جهدها في دحض هذه الحركة الدينية الجديدة والحدِّ منها ؛ ولكنها كلما زادت الحركةَ ضغطًا وكبسًا ازدادت الحركة انتعاشًا ونشاطًا ونَهْضَةً ، حتى مضت عليها ثلاثةُ قرون ، فيقال : إن الإمبراطور الرومي الوثني «قسطنطين»[1] عزم على قبول هذا الدين واعتناقه ؛ لتتحول الحكومة الرومية من عدوة لدودة للدين الصليبي إلى موالية ومؤازرة لها . فأخذت سلطة كنيسة رومة تمتد امتدادًا ملموسًا بفضل حماية الدولة لها .

وتاريط أوربا الموثوق به الذي ألّفه «كرانت» يورد بعض الوثائق التي مَنَحَتْها – الكنيسة – الحكومةُ الروميةُ من حين لآخر فيما زعمت كنيسة رومة . ومنها وثيقة قديمة معروفة بـ «منحة قسطنطين» وفيما يلي نص الوثيقة حسبما ترجمها كرانت :

«إن الإمبراطور قسطنطين الوفي الرحيم القادر الصالح ملك الأمم الألمانية والسريانية والجرمانية والبريطانية ، والهونية ، الزاهد السعيد الفاتح الغازي ذا المكانة العليا قد أصيب بـ «الجذام» فأشار

[1] قسطنطين الكبير (٢٧٤–٣٣٧م) ابن قسطنطيوس كلورس : امبراطور روماني ٣٠٦ . هزم خصمه «ماكسانس» على أبواب رومة ٣١٢م ، وأطلق الحرية للدين المسيحي ، وشجّعه ٣١٣م ، تخلص من ليقينيوس ٣٢٤م ، وَحَّدَ الإمبراطوريةَ واضعًا حدًا للنظام الرباعي . أسس عاصمةً جديدةً سَمَّاها «القسطنطينية» و دَشّنها ٣٣٠م . (المنجد ص ٥٥١–٥٥٢)

عليه العَبَدَةُ الوثنيون بأنه لن يبلَّ من مرضه إلا إذا اغتسل بدماء أطفال أبرياء . ثم إن القديس بال والقديس «فيتر» دَعَوَا لَه بالصحة ، فصح وأبل من مرضه فشكر الإمبراطور لهما ، وأصدر فرمانًا ينص على أن القس الأكبر في «كنيسة رومة» يُعَدُّ رئيس القساوسة في العالم ، وأنّ القديس «سلفستر» (Sylvestre)[1] يملك حصوننا في رومة ، ومدينة رومة ، وسائر الأعمال والمقاطعات في إيطاليا بالإضافة إلى الدول الغربية أي أوربا .

وينتهي هذا المرسوم - كما يقول «كرانت» - بهذا النص :

«وإن هذا المرسوم لن يُدْخَلَ عليه أي تعديل وتغيير ما دامت السماوات والأرض».[2]

وبالجملة أن سدنة الضريحين في رومة التي يقال : إن بها ضريح بطرس أحد حواريي المسيح المباشرين ، واسمه الأول شمعون ، كما يُزْعم أن بها مقبرة «بولس» وهو القديس بال - بشّروا الإمبراطور بأنه سيبلّ من مرضه ، وإن الإمبراطور بعدما أَبَلَّ - مَنَحهم هذه المنحة الملكية .

يقول «كرانت» :

«فكان لايقدر أحد - وحتى القرن الخامس عشر من الميلاد - ما لم تنتشر العلوم في أوربا - على أن يعدّ هذا النص مختَلَقًا أو

[1] سلفسترس (Sylvestre) بابا قديس . في عهده عقد المجمع النيقاوي الأول ٣٢٥م. (راجع : المنجد ص ٣٦١) .

[2] انظر : تاريط البابا لـ «كرانت» ص ٢٠٢ ، ترجمة أردية أنجزت في دار الترجمة بالجامعة العثمانية حيدر آباد ، الهند.

يساوره الشك في صحته».[1] ثم كان ما كان مما نتعرض له في المستقبل .

وسبق أن قلت : قد تمّ اليوم تفنيد الرأي القائل أن بها قبر بطرس ، ولكن مجرد تساور الشك والارتياب في صحته كان يرادف الردة والكفر منذ عام ٨٦٠م - أي العام الذي أعلنت فيه الكنيسةُ الوثيقةَ السالفة الذكر - إلى قرابة ألف سنة أو إلى ألفٍ ومأتي سنةٍ كما يقول «كرانت» .

ولا يقتصر الأمر على هذا الإعلان الوحيد ، وإنما تلاه عشرات من أنواع المكايد المتوالية حتى أن الكنيسة - كما يقول كرانت - أصدرت خطابًا موجَّهًا إلى الملوك وولاة الأمور وسائر الناس في عهد البابا «غرى» السابع المعروف في القرن الحادي عشر[2] ينص على ما يلي :

«إن البابا في رومة فاقد المثال وليس لأحد أن يقدح في أعماله، وإن كنيسة رومة لم ولن تُخْدَعَ أبدًا :

ويضيف الخطاب قائلاً : إن البابا يملك عزل الإمبراطور ، وإن النخوة الإنسانية خلقت قوةَ الملوك ، وإن رحمة الله خلقت القديسين .

[1] نفس المصدر ص ٢٥١ .

[2] غري أو غريغوريوس Gregoire السابع : القديس ١٠٧٣-١٠٨٥م ، قاوم الفساد في الكنيسة ، وتدخّلَ السلطة المدنية في الشؤون الدينية ، فاصطدم مع هنري الرابع إمبراطور ألمانيا . أحسن الصلات مع الأمير الناصر بن حماد في أفريقيا . (المنجد ص ٥٠٥)

وانتهى الخطاب بـ«إن البابا سيد الأباطرة».[1]

وليس هذا ادعاء محض فإن الذين لهم إلمام بتأريط القرون الوسطى في أوربا ، لا يخفى عليهم أن هذا هو الواقع . ومثل هذه الخطابات المكتوبة كانت تصدر في الغالب - كما يقول كرانت - تهديدًا وزجرًا للملوك ومنها : إن الله جعلنا - نحن البابا وخلفاءه - سيد الملوك والأباطرة لنستأصل ونُبيد من نشاء ونبذر ونعمِّر ما نشاءُ .

كما كانوا يدّعون : أن السلطة الدنيوية إذا ما أخطأت ، فإن للسلطة الروحية أن تداركها وتصحِّحَ مسارها ، وأما إذاما أخطأت السلطة الروحية فلن ينصف منها إلا الله تعالى .

وهكذا كان أصحاب السلطات والحكومة الدنيوية الأوربية مأخوذين مغلوبين على أمرهم من قِبَلِ أصحاب السلطة الروحية أي البابا وخلفائه ، فكانوا يمتثلون أوامر البابا بلا تردّد ، وهل كان لهم من ذلك بدّ ؟!

والشعب كله بصفة عامة في قبضة أولئك السلاطين ، والملوك، ولم يكن للأوربيين أن يخرجوا على أوامر الكنيسة .

وعلاوةً على ذلك سنَّت الكنيسة للناس سنةَ «الاعتراف بالذنوب» ، وكان خلفاءُ البابا قد تبوؤوا مكانهم على كل ميلٍ أو ميلين في طول البلاد وعرضها ، وبنَوا لهم ما سمّوه بـ «الكنائس» . ولم يكن يهمُّهم إلا أن يصغوا بآذانهم إلى فهارس الذنوب التي

[1] راجع : تاريط البابا ص ٢٦٨ .

جاءهم أصحابها يتوبون منها في خلوة بهم ، ليصدروا لهم صكوك الغفرانات على ما يتفقون عليه معهم من الأجور . ولا تزال كتب التاريط تُقَدِّم لنا صورًا من صكوك الغفرانات هذه مما كان يمنحه رجال الكنيسة التائبين من ذنوبهم ، وصك الغفران هذا يبدأ بهذا النص :

«ربنا يسوع المسيح يرحمك ، ويعفو عنك باستحقاقات ألامه المقدّسة . وبعد : فقد وهب لي بقدره سلطان رسله بطرس وبولس والبابا الجليل في هذه النواحي أن أغفرلك أولاً عيوبك الإكليروسية مهما كانت ، ثم خطاياك ونقائصك مهما كانت ، تفوت الإحصاء بل أيضا الخطايا المحفوظ حلّها للبابا وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة الرومية أغفر لك كل العذابات التي سوف تستحقها في المطهر ، وأردّك إلى أسرار الكنيسة المقدّسة ، وإلى اتحادها وإلى ما كنت حاصلاً عليه عند عمادك من العفة والطهارة.

وينتهى الصك بما يلي :

«حتى إنك متى مُتَّ تغلق في وجهك أبواب العذابات وتفتح لك أبواب الفردوس ، وإن لم تمت الآن فهي باقية لك عليةً تامةً إلى آخر ساعة موتك باسم الأب والابن والروح القدس . آمين[1].

والحاصل أن الكنيسة تولت أمر تولية الولاة وعزلهم ، وكانت معرفة الكنيسة بمعايب المرأ في حياته الشخصية من وراء

[1] راجع : إظهار الحق للشيط رحمة الله الكيرانوي الهندي ٢/١٢٠-٢٢١ ط : دولة قطر .

تلقي الاعتراف بالذنوب، كانت بمثابة أحبولة يستخدمها القساوسة في تحقيق ما تشتهيه أنفسهم على مرأى ومسمعٍ من عامة الناس الذين يئنّون تحت وطأتها ولا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة أو ينكروا عليهم من ذلك شيئًا ، وإن أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم كانت بيد هؤلاء القساوسة يتصرفون فيها بما تمليه عليهم أهواؤهم ، وتصبو إليه نفوسهم الأمارة بالسوء .

وراء ستار الكنيسة

إن تاريخ أوربا يطفح بتأويل ما قاله القرآن الكريم وهو يذكر رهبانية الكنيسة من قوله : (وكَثِيْرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُوْنَ)[1]. ومنه ما قال «موشم» في تاريخ الكنيسة :

«كان هناك اعتقاد بأن المتزوجين بهم مَسٌّ من الشيطان ؛ فالمتبوّؤن في الكنيسة منصبًا من المناصب، كانوا يمتنعون عن الزواج صيانة لأنفسهم من المسّ الشيطاني . وكذلك كانت النساء يعشن حياة العناس» .

غير أنه ماذا كانت نهاية هذه البداية ؟ يقول «موشم» :

«غير أن ذلك كله كان للتظاهر به ؛ حيث كانت مضاجع الرجال غير المتزوجين معمورة في الليل بالنساء غير المتزوّجات ، وكنّ يشبعن شهواتهم المحرمة» .

ويقول :

«إن المرأة عادةً ما كانت تحت تصرف رجل واحد ، وإنما

[1] سورة الحديد /١٦ .

كانت تتناوب نساء ، فاليوم امرأة ، وغدًا امرأة أخرى . وهكذا كان ذلك يتسلسل وراء الكواليس ؛ ولكنه كان يُتَظَاهَرُ بأن العوانس والعانسين يحافظون على عفتهم ونزاهتهم» .

«وإن ما تغلغل في أعماق الكنيسة المقدسة من عفونةٍ وقاذورة ربما كانت تقضّ مشاهدتُها وملابستُها مضاجع بعض القساوسة الصالحين فيها ، وتتركهم على أحرّ من الجمر، واشتهرت في خصوص ذلك قصيدة نسجها أحد الأساقفة، وهو «برنردس»[1]، وإليك ترجمة معنى شعر واحدٍ من تلك القصيدة :

«نزعوا من الكنيسة الزواج المكرم ، والمضجع الذي هو بلا دنس فملؤوها بالزنا في المضاجع مع الذكور والأمهات ، والأخوات وبكل أنواع الأدناس.[2]

وذكر أسقف برتغالي اسمه «الفاروس بيلا جيوس» ما كانت تعانيه عامة كنائس الدول الغربية من ميوعة وانهيار خلقي ، وخَص بالذكر «إسبانيا» قائلاً :

«يا ليت الإكليروسيين لم يكونوا نذروا العفة ولا سيما إكليروس أسبانيا ؛ لأن أبناء الرعية هناك أكثر عددًا بيسير من أبناء الكهنوت» .[3]

فرهبانيةُ الكنيسة مهما بدت لناظرها عفيفة إلا أنها اتخذت

[1] برنردُس أو برنار (القديس) (١٠٩٠-١١٥٣) راهب فرنسي ، قام بإصلاح الحياة الرهبانية ، فأسس دير كليرڤو (فرنسا) . دعا إلى الحملة الصليبية الثانية . له مؤلفات في اللاهوت والتصوف ، معلم الكنيسة . (المنجد ص ١٢٧)

[2] راجع : «إظهار الحق» ٢/١٢٥ .

[3] نفس المصدر .

قالب فسق الأكثر من رهبانها وكهنتها يومًا فيومًا . وادعاء القرآن هذا يكتظّ بشواهده تاريط أوربا والكنيسة .

وبالإضافة إلى هذه العفونة والقاذورة التي داخلت الكنيسة ، توسعت سلطة البابا اللاهوتية بفضل هذه القوة الكَنَسِيّة إلى أن أعلن «فرنسيس زا باؤلا – أحد أعضاء المجلس الأعلى للبابا.[1] مايلي:

إن البابا مأذون أن يعمل ما يريد حتى ما لايحل أيضًا .

وينتهي الإعلان بما يلي :

«وهو أكبر من الله».[2]

وكثيرًا ما كان يستخدم البابا سلطته الفرعونية هذه . و كتاب الأستاذ ميخائيل المنشور في بيروت عام ١٨٥٢م يعطيك قائمة مسهبة بسائر ما أدخل عليه البابا التعديلات بسلطته هذه . يقول ميخائيل : «وكان من جاري عادة البابا أن يُحِلَّ الحرام ، ويُحَرِّم الحلال مقابلَ ما يتلقَّاه من المال .

وهذا علاوةً على تجارة صكوك الغفرانات ، وتحليل الحرام أو تحريم الحلال بمقابل ماليّ ، وبالقرابين والأوقاف وغيرها من الموارد المالية التي لا تحصى ولا تعدّ . وكانت الكنيسة ، وسدنتها

---

[1] إن نظام الكنيسة يتكوّن من مناصب مختلفة تحمل أسماء مختلفةً فالأسقف – وهو منقول من اليونانية – أعلى هذه المناصب والوظائف ، ويرادفه في اللغة الإنجليزية كلمة : (Arch bishop) . ويتلو الأسقفَ : القسيس (Bishop) ثم البرليت (Pearlite) . ويسمى المجلس الأعلى للبابا بـ«ديكن» . ويبلغ عدد أعضائها سبعين عضوًا ، ويسمى كل عضو من أعضاء هذا المجلس الأعلى بـ «كاردينال» (Cardinal) .

[2] راجع : إظهار الحق ١٢٠/٢ .

يوغلون في بيع رحمة الله بثمن بخس . وهذا هو الواقع ، وليس من قول شاعر أو مجنون.[1]

وكان من جاري عادتهم أن يتواجد لزامًا أسقف المنطقةِ عند رأس المرء وهو في سكرات الموت . فإذا أشرف إقطاعيٌ وصاحبُ مال وفيرٍ على الموت نُدِبَ لَه الأسقف ، فَيرىٰ فيما يرى المراقب الخالي بنفسه ، أرواحًا خبيثةً سودًا ، لها عيون ناريةٌ تنزل لتتلقى روح الميت فيخبْر الأسقف الناس بما يراه ، فيتساءلون : ما الحيلة للخلاص منها ؟ فيقول : يجب أن تحبس الأحباس ، وتنذر النذور للكنيسة وأن يفعل كذا كذا . فإذا ما تمّ له كل ذلك جلس مطرقًا رأسه ليبشر الناس بوجه طلق متهلل بأن الأرواح الخبيثة كلها عادت أدراجها ، وأنه رآى أشباهًا من نورٍ وأرواحًا طيبةً بدأت تهبط الآن .

---

[1] هذا ، وقد امتدت شبكة من قبور الأولياء أو الشهداء بجنب الكنائس في طول البلاد وعرضها . ومما يبعث على العجب أن كل ميت حديثِ عهدٍ بالموت يفوق الأموات الأقدمين استمالةً لقلوب الناس واستجلابًا للقرابين المقدمة إليها . فجاء في تاريط إنكلترا: أن الفارّين من الحروب الصليبية قدّموا القرابين ، والنذور ، فرحًا بخلاصهم من براثن الموت وعودتهم سالمين إلى بلادهم ، وياله من سرور وغبطة !! فبلغ ما قُدِّم إلى قبر الأسقف «ملامس بيكت» ثمانين ألفًا وثلاث مائةٍ وستًا وثلاثين (٨٠٣٣٦) روبية ، بينما قُدِّم إلى قبر مريم ما يبلغ ثلاث مائةٍ واثنتين وثلاثين (٣٣٢) روبيةً فحسب . وأطرف منه أنه قدِّم إلى قبر ابن الله المسيح ، ما يبلغ واحدةً وثلاثين (٣١) روبيةً فحسب . ويبدو أنه لم يقدَّم قرشٌ واحدٌ باسم والد الابن !!.

ويضيف الكتاب نفسه : وقد حمل هولاء الفارّون – الذين كانوا يدّعون لأنفسهم نوعًا من الميزة في الحياة الدينية – من أورشليم أشياء مما يُتَبَرَّك به . ومنه قطعة من صليب المسيح وخرقته والحجر الذي آذى المسيح . وأعجبها : الشعاع الذي يُزْعَمُ أنه انبثق من نجم يسجد له المجوس اعتبارًا منهم أنه نجم المسيح .

وخلاصة القول أن الكنيسة اخترعت أنواعًا من المكايد والحِيَل التي تسوِّغ لرجالها و سدنتها أن يلتهموا – بشكل أو آخر – ما كسبه أهل البلد من الأموال بكدّ يمينهم ، وعرق جبينهم .

ومما لا شك فيه أن جل الأديان والملل في العالم ظلّت تشهد بين أبنائها و معتنقيها ، من يستغلّ مبادرة إذعان جمهور الناس للشؤون الدينية ، ورغم أنها تستمر هذه المراوغة والتلاعب بعقول عامة الناس بشكل أو آخر في العالم ليومنا هذا ، إلا أن النظام الذي وُضِعَ في الدين الصليبي باسم الكنيسة والبابا ، يختلف تمامًا عما عُرِفَ من قصص المخادعة والدجل والتلبيس . وذلك مما اِضطرني إلى أن أتناول الموضوع بشيءٍ من التفصيل والإسهاب رغم محاولتي الإيجاز ، فربما يعين ذلك على معرفة القارئ – لحدٍّ مَا – بالسلطة غير العاديّة التي كانت تتمتع بها الكنيسة والبابا .

وغاية ما شهدنا في الأديان ، والملل الأخرىٰ أن ملِكاً من الملوك في بعض العصور ربما يقع في نفسه شخصيةٌ دينيةٌ موقعًا حسنًا فيوظّف هذا الوقع والإعجاب من يخدمه في وجوه الخير أو الشر في عهده . ولكن النظام الكنسي للدين الصليبي الذي وضعه البابا ، لم يكن نظامًا فرديًا وإنما كان مستقلاً بذاته ، وظل عبر ألف أو ألف ومائتي قرن – كما يقول سجوك – يطلق : أن مثل الإمبراطورية والبابوية مثل القمر، والشمس سواء بسواء .[1] أي كان يُرى أن أباطرة أوربا فضلاً عن عامة الملوك والسلاطين

(1) راجع : ارتقاء نظم حكومة ١/٢٦٤ .

يستمدّون سلطتهم من البابا في كنيسة «رومة» كما أن القمر يستمدّ ضوءه من الشمس .

ويقول سجوك : «وإخضاعًا للولاة السياسيين للحاكم الديني كان قد تقرر أن أمر توليتهم يجب أن يكون بيد خليفة عيسى وهو البابا ؛ فإنه هو – دون غيره – يفضل الملوكَ ، والولاة .

وكان يقال : أن البابا خليفة حواريي المسيح ، وبطرس خليفة المسيح . يقول سجوك : «وبالتالي زعموا أن أي والٍ أو مِلكٍ عصى أوامر خليفة بطرس القديس كان على البابا أن يعزِله كما ادّعوا أن الذي يملك عزل السلطان يملك كذلك رفض توليته .

وهذا هو الأمر الوحيد الذي لا يوجد نظيره في الأديان سوى الدين الصليبي في أوربا ، ولو استخدم سلطةَ الكنيسة هذه أصحابُها ، وأحسنوا استخدامها لكان ولاشك – كما يقول سجوك – : وكان لزامًا أن يكبح – بشكل أو آخر – جماح السلطة الماردة النَفَعِيّة أي سلطة الإمبراطورية الراكبة رأسها . وإن أقرب وأيسر حلٍّ له فيها يبدو أن تستمر القساوسة – أي ولاة الكنيسة – في توجيه ملامهم و توبيخهم إلى هؤلاء الملوك» .

هذا ، ولا يعزبنّ عن بالك ما ملأ به رجال الدين الصليبي أوربا من الضلالات الدينية البشعة اِستتارًا بالكنيسة . وأن أنفس أهلها وأموالهم وأعراضهم أصبحت يستهدفها رجال الدين هؤلاء تحقيقًا لشهواتهم الحيوانية ، وإرضاءً لنفوسهم الأمارة بالسوء .

وليست هذه قصة سنةٍ أو سنتين ، وإنما توسع نطاق اعتداء

الكنيسة ، وطغيانها وامتدّ بشكل مدهشٍ لمدةٍ تناهز ألف سنة بدءًا من القرن الرابع الذي شهد بداية هذه الغارات الدينية . ولا يعجز بشر – خُلِق بمشاعر إنسانية – عن إدراك القلق والاضطراب الذي كانت تعاني منه الفطرة الإنسانية بطبيعة حالها .

الضغط المتناهي ، وظهور البروتستانتية PROTESTANTISM

إن الأوربيين الذين اعتنقوا الدين الصليبي ، كانوا يمرّون بهذه الفوادح كلها ، ويشاهدونها فيتململون ، ويحاولون أن يتململوا ، فلا يطيقونه. وكانت القوات العسكرية الملكية تمارس ضغطها عليهم ، فلا يستطيعون الحراك و لا يخفى سببُه . فإن القوة العسكرية أو قوة الشرطة لايهمّها إلاّ تلقي أوامر المِلك والوالي ، وتحقيق رغبته . وبما أن القوى الحاكمة في البلاد كانت تعجز عن مقاومة سلطة البابا ، والكنيسة لم يكن لأحد أن تسألها عما تأتي وتذر ، مما أدّىٰ – بالضرورة – إلى أن أصبح الإقدام على النيل من الكنيسة أو البابا أو العاملين تحت النظام البابوي مغامرة ، وتعريضًا لنفس صاحبه بالهلاك والدمار .

وهكذا ملكت الكنيسة السلطةَ السياسيةَ ، وتولّت مقاليد الحكم في البلاد في جانب ، وفي جانب آخر أصبحت جميع القساوسة بطانةَ المرء يلمّ بمناقصه وعيوبه الشخصية ، وجناياته وعثراته وزلاّته ، استغلالاً لما تتلقاه من اعتراف الناس لها بذنوبهم وآثامهم التي ركبوا مطيّتها . وإن الوقوف في سبيل الكنيسة ، وأهوائها – ولو ببنت شفة ينبس بها المرء – يستلزم كشف القناع عن عيوبه ، ومناقصه المكنونة المستورة . فكان ذلك بمثابة شباك

يصطادون به أفراد الناس حتى ضاقوا به ذرعًا ، ثم التقاليدُ والأعراف وما يماثلها من القوانين العامة التي تتطلب من المرءِ أن يترك الحبل على غارب صاحبه ، ويَدَعَه لشأنه . وإن عامة الناس يشعرون يومًا فيومًا مثل هذا الشعور . وهكذا أُتِيْحَ للكنيسة أن تتمادىٰ في اتّخاذ إجراءات عشوائية ترضي أهواءَها قرونًا متطاولةً.

بَيد أن لكل شيء حدًا يقف عنده – وإن شئت قلت : أجل ينتهى إليه – وإن الله القادر الذي سار بالجيل الإنساني قُدُمًا عبر عصور مجهولة من التاريط مرورًا بها بأوضاع مواتية ومعاتية ، هو الكفيل بتوفير الأسباب والعلل لكل فعل وردّه .

ولا يسعنا هنا الدخول في تفاصيل ظاهرة الأسباب والعلل التي هيّأها الله تعالى كَردٍّ فعلٍ على سلطة الكنيسة الخارقة التوسّعيّة السالفة الذكر ، إلا أنه لا يخفى أن ما بدأ به أدعياءُ الدين والملة – لا القطّاع والسرقة – من الاعتداء والاضطهاد ، كان يداخله الفساد والخلل . وإن المرء ليبغض السرقة و قطع الطريق ، ويقوم في وجوههم . وأما إذا مَثَلَ الشيطانُ مرتديًا رداءَ الملائكة – لا الشيطان – وتبين الناسُ أن هذه الأردية الملكوتية تحمل أرواحا إبليسية ، فلا شك أن الفطرة الإنسانية تشتاط غيضًا و غضبًا ، ويثور ثائرُها ثورانًا عظيمًا ضد هذا الطغيان والظلم . وكلما ازداد الشيطان تماديًا في تنفيذ لوائحه وبرامجه متسترًا بستار الكنيسة ، ازدادت فطرةُ العامة تحرّقًا وتوقدًا ؛ ولكن حُمَمَ هذا التحرق لم تكن توافق منفذًا لها فتنسابَ منه . وقد تجد ثغرةً من الثغرات سرعان ما تسدّها القوى القاهرة المستبدة .

وما قام به الكنيسة في تلك العصور من شنِّ حرب صليبية (Crusade) ضد المسلمين لإنقاذ مولد المسيح منهم ، ولقي فيها عَبَدَة الصليب من الهزائم ما يفوق كثيرًا انتصاراتِهم . وقام رجال الكنيسة بشيء من عمليات الذبح والقتل فَعِيْلَ من كل ذلك صبرُ الناس[1]

ويذكر أن الأوربيين الموالين للكنيسة سنحت لهم – ولأول مرةٍ – فرصةُ الاتصال المباشر بنظام دين جديد ، وهو الإسلام ، وممارستِه خلال الحروب الصليبية هذه ، كما بدأ بعض الملوك أعزةَ الجانب ، موفوري القوة ، ذوى العزيمة الصادقة ، بمواجهة الكنيسة ، والبابا في أوربا ، والتمنع على إرادتها ، وتعدَّت هذه المواجهة والمزاحمة ، وتوسعت حتى بلغت ذروتها ، ونالت من قوة الكنيسة نيلاً مَا.[2]

[1] هذا ، وقد كان البابا وخلفاؤه يحرّضون الآلاف بل مئات الآلاف من النصارى على الحرب ويعرِّضونهم لِلقتل والإبادة ، حتى ادَّعىٰ ابن فقير يدعىٰ بـ «استيفين» بإيحاء من بعض الرهبان أنه سعيد بزيارة الرب ، وبقطعة من الخبز ، وأمِرَ بأن يُعَبِّئَ جيشًا من الفِتْيان ، لتطهير مولد المسيح وإنقاذه ، وذلك عام ١٢١٢م ويقال أنه تمّ اختيار الفتيان ، وبجانبهم الفتيات الشواب ، واتُّخِذَ لهن لبسةً رجاليةً ، وأعلن الجهاد والحربُ ، وأرسل هذا الجيش المكوّن من الفتيان والفتيات من أوربا ، بعد ما أكَّدوا لهم أنهم لايلقون في سبيلهم بحرًا إلا جَفَّ لهم تلقائيًا . فَحمَل التجار النصارى هذا الجيشَ على السُّفن في «مرسيليا» Marseille حتى بلغوا بهم مصر ، فما لبث أن قام هؤلاء القساة ببيع هؤلاء الفتيان البوسآء فيها، كما تعرضت سفينتان منها للعواصف البحرية. ويُذكر أن آباءهم وأمهاتهم كانوا ينفجرون بكاءً فلا يجدون لهم مُصغِيًا. وقد عُبِّئ جيش من الفتيان مثل هذا غيرَ مرةٍ لقيَ مصرعه في سبيله .

[2] ومنهم فريدريك (Fried Rich) إمبراطور ألمانيا ، وهنري الرابع (Henri) ملك إنكلترا وغيرهما من الملوك والأباطرة الذين يذكر التاريط أحداثهم ، فيذكر – مثلاً – عن

وبالجملة تلت هذه الأسبابَ العويصةَ المتنوعةَ المتتاليةَ أمثالُها ، حتى تيسّر للنار التي كانت تضطرم في صدور العامة ضد الكنيسة، وحممِها الناشئةِ فيها ، أن تشقّ طريقها إلى الشارع .

والبروتستانتية – نسبة إلى بروتستانت Protestant أي الاحتجاج – التي يذكرها تاريط الدين الصليبي ، إنما كانت تعبّر عن أفواه النيران والحمم التي خرجت منها نارُ مقاومة الكنيسة إلى الساحة.

وقد تعاقبت شخصيات وأفراد في مختلف المناطق الأوربية – لا في دولة واحدة – تحدوها الشجاعة والجرأة ، جاهرت بمقاومة الكنيسة والبابا ، ومن أشهرها وأبعدها صيتًا : مارتين لوتر Luther[1] في ألمانيا، و«زونجلي»[2] في «سويسرا» و «كلفن»

هنرى الرابع أن «هيلدى براند» – أحد الباباوات – أصدر مرسومًا يقضي بلعن «هنري» وتشريده من الكنيسة ، فَردَّ عليه هنري قائلا : «إنك تبدو بابا ، وأنت في الواقع سيء الخلق، والسلوك» . (راجع : تاريط أوربا للكرانت ص ٢٧)

كما قام فيليب الجميل Philippe (١٢٦٨–١٣١٤م) ملك فرنسا بإحراق مرسوم أصدره البابا بونيفاتيوس الثامن Bonifatius (١٢٩٤–١٣٠٣) ونصه ما يلي :

«إن للبابا أن يخلع من شاء من الملوك ، ويقرَّ من شاء منهم على ملكه» . (راجع : ارتقاء نظم حكومة بوب، ص ٢١)

[1] مارتين لوتر Luther (١٤٨٣–١٥٤٦م) : راهب أغوسطينى، لاهوتي ، ومفكر ، وكاتب . بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني (البروتستانتية) وانفصل عى الكنيسة في شأن الغفرانات وسلطة البابا، والتبتل ، وإكرام القديسين ، والمطهر ، والقداس ١٥١٧م ، ونقل التوراة إلى الألمانية ، فكانت الترجمة حدثًا تاريخيًا وأدبيًا . (المنجد ص ٦١٥)

[2] زونجلى : (١٤٨٤–١٥٣١م) آلمته حال الكنيسة فدعا في سويسرة إلى مثل ما دعا إليه «مارتين لوتر» في مسائل الدين، وقد ابتدأت ثورته بالثورة على صكوك الغفران ، كما ابتدأ «لوتر» . وقد مات أثناء صراع وقع بين أنصاره المعتنقين لمبادئه وأنصار

Calvin[1] في «فرنسا» ، وغيرها ممن يرجع لتفاصيل تراجمهم إلى تاريط أوربا والكنيسة .

وكل محتج يرى أن ما خصّه الكنيسة لنفسها من احتكار الدين الصليبي ، أو أنها هي تستحق شرح الكتاب المقدس – التوراة والإنجيل و ما عداهما – باطل ، كما كان يرى أن المرأ لايضطر – لينجو بنفسه – إلى وساطة البابا في كنيسة «روما» أو خلفائه . وهذا ملخص قصة تستغرق الآلاف من الصفحات .

والحق أن هذا الاحتجاج والبروتستانت كان في أول أمره يتَّجه إلى الكنيسة والبابا و خلفائه والصبغةِ التي صبغوا بها الدين الصليبي ، وذلك أمر جدير بالتقدير بادئ ذي بدءٍ ، إلا أن الكنيسة لم يكن لها أن تصبر على هذا الاحتجاج الذي لم يستفحل أمره بعدُ ؛ فحاولت أن تداركه قبل أن يتّسع الخرق على الراقع أو – كما يقال – حاولت أن تمنع القطة من توسيع فَتْقٍ بسيطٍ يمكن رتقه بميلٍ قَبل أن يتسع فيستحيل رتقه بفيل .

هكذا بدأ الصراع بين الشعب والكنيسة . وما نقرأ في تاريط أوربا ما يسمونه بـ «محاكم التفتيش الديني Inquisition أو «لاشاروزنت» أو بـ «المجالس النارية» فإنها تكنّ هذه المصطلحات

الكاثوليك . ولم أعثر من ترجمته على أكثر من ذلك . (راجع : محاضرات في النصرانية للشيط : أبو زهرة ، ص ١٦٦ط : دارالفكر العربي ، مصر .)

[1] كلفين (يوحنا) Calvin (١٥٠٩–١٥٦٤م) مصلح فرنسي ، نشر في فرنسا وسويسرة مذهبًا حمله اسمه . أنشأ في جنيف حكومةً تيوقراطيةً . له كتاب «الأسس المسيحية» جعل منه أكبر لاهوتي عرفه الإصلاح . (راجع : المنجد ص ٥٩٢)

قصةَ ذلك الصراع النحس الذي أسفر عن المجازر الدامية ، ووقائع الحرق والنهب والسلب .

وإن مواجهة الكنيسة – ولو إيماءً أو كنايةً أو كتابةً أو شفويًا – فضلاً عن التصريح والمجاهرة بها – تعدّ ذنبًا لا يغفر . وأصدرت الكنيسة مرسومًا في هذا الشأن ، وقام سائر الملوك والولاة العالة في سلطتهم ، و ولايتهم – على الكنيسة بسلّ سيوفهم نزولاً عند مرسوم الكنيسة ، وتحقيقًا لرغبتها ، وجمعوا الأحطاب ، وأوقدوها نارًا ليحرقوا بها العصاة الخارجين عليه أحياءً من أقصى البلاد إلى أقصاها .

ثمّ ماذا كان ؟ لو كان ذلك قصة سنة أو سنتين لوَسِعَنا بيانُه، ولكن الصراع بين الكاثوليكية الرومانية – أي اَتباع الكنيسة – وبين البروتستانت – أي أعداء الكنيسة – استمر بكل قساوةٍ وعنفٍ طوال خمسة أو ستة قرون . وبالطبع كان البروتستانت أقلّ عددًا و أضعف جندًا ، فكانت الكاثوليكية الغالبة تفعل في كل منطقة وناحية من أنحاء البلاد بالبروتستانت ما شاء له الهوى ، ثم يرافع الأمر إلى المحاكم الدينية (Inquisition) أو ما يسمى بـ «محاكم النظر في قضايا الارتداد الديني . ويتلوه إجراءات بسيطة رسمية ، فإصدار القضاء بالقتل والحرق حيًا . فكانت تكون دماءٌ تهراق ، ونيران تُوقد، يتفرج عليها – بكل رغبة وشوق – أنصارُ الكاثوليكية .

ويذكر أن الجاني – بعد ما يقضى عليه بإلحاده وارتداده عن الدين – يُرْبَطُ بالسرير ويُضْجَعُ لقفاه ، ويُدلى بالسقف سلاحٌ ذو

حدّ يتنزل شيئًا فشيئًا حتى يقع على صدر الجاني خلال أيام عديدة، وهكذا يُقْتَلُ أو يموت مختنقا .

والبلادُ التي شهدت أمثالَ هذه المجازر الدامية ، وعددما شهدته منها ، وعدد من ذهب ضحيتها يمكن الإلمام بكل ذلك من خلال دراسة تاريط أوربا العام .

وما شهدته «فرنسا» من الفتنة التي عُرِفَت بـ«فتنة بارتهيلي» استمر فيها الأمر بإبادة البروتستانت - رجالاً ونساءً - عبر تسعة أيام كما يقولون .

ويذكر أن الذئاب الكاثوليكية كانت تشقق بطونَ النساء الحوامل لتخرج ما فيها حَيًّا ثم تلقيهن للكلاب تفترسهن وتلتهمهن ، فيتفرجون عليهن . إن دماء المقتولين حمّر ماء نهر «سين».[1]

وجملة القول أن الذين أُهلِكوا قتلاً أو حرقًا أو بغيرهما من طرق الإبادة خلال هذا الصراع يقدَّر عددهم بمليون نسمة . ولِمَ كان كل ذلك ؟ لسبب واحد ، وهو مخافة أن يفلت من أيديهم زمام السيطرة السياسية الذي غلبوا عليه بما أطلقوا عليه من المصطلحات الدينية من «ابن الرب» و «المسيح» و حواريه «بطرس» وخليفته : البابا .

---

[1] والذي ليس له إلمام باللغة الإنكليزية ، عليه أن يرجع إلى كتاب «كنز العلوم واللغة ، لصاحبه العلامة فريد الوجدي .

ونهر «سين» (Seine) نهر في القسم الشمالي من فرنسا ٧٧٦كم يجتاز باريس و يصب في بحر المانش . (المنجد ص ٣٧٨)

وإذا ما اعترض البروتستانت على البابا وخلفائه ، وأنكروا عليهم ، ذُكِّروا بـ «بطرس» ، وقيل لهم : إنكم تطعنون في خليفة حواري المسيح ، فيعارضونهم بالطعن في بطرس نفسه ، حتى اصطبغ هذا الاعتراض والإنكار بصبغة البحث والدراسة مما أسلفنا ذلك ، وتَمّ تفنيد الادعاء بأن قبر الحواري «بطرس» أو جثته في رومة ، واعتبروه أمرًا مزيّفًا لا أساس له .

وإذا ما قام قائم بتعزيز قداسة «بطرس» باسم المسيح وابن الرب ، عارضه المُصابُ بشيءٍ من التحرر الفكري بإثارة الشك في مكانة المسيح وجلالته ، مما أدَّىٰ بهم إلى محاولة إثبات شخصية المسيح أسطورةً من الأساطير . وعلى ذلك كان يُذكَّر بالرب تعالى إبقاءً على قداسة المسيح ومجده . ولا تعجب إذا كان رب المسيح نفسه عاد هدفًا تتوجه إليه سهام الطعن و النقد ؛ إذ أن أتباع البابا، وبطرس والمسيح ، لم يَدَعُوا شبرًا من أشبار أرض أوربا إلاّ وقد لوّنَته مآثرهم الدامية . وهذا ما يفيد قول سجوك : «وعندما بلغت النهضة الجديدة أوجَها في أوربا ضعضعت العقائد الدينية التي كانت تشكّل عمادًا يقوم عليه البابويةُ.[1] وهنا يتساءل المرأ عما كان يرجع إليه الضعف في العقائد الدينية .

ومن المؤسف جدًا أن المعنيين بتدوين تاريط أوربا لم يُولْوا هذا التساءلَ كبيرَ اهتمام ، ولا صارحوا في الرد عليه ، وإنما يذكرون أشباهًا من الأمور ، منها ما يتناول بيان العصر ومآثر ولاة العصر ،

---

[1] راجع : ارتقاء نظم حكومة بوب ، ص ٢٢٦ .

ووجهات نظر المؤلفين الذين يطرحون الآراء الدستورية للحكومة، بالإضافة إلى شيءٍ من علوم الطبيعة والفلسفة ، ورقيّ هذه العلوم والفنون ، وبأسلوب يحول دون بروز الأسباب الحقيقية وراء الضعف الذي يعترى العقائدَ الدينيةَ . فالذين يقرؤون هذه الكتب قراءةً غير متأنية سرعان ما يقع في نفوسهم – عن جهل وخبط – أن انتشار علوم الطبيعة و الفلسفة ربما ضعضع الأسس الدينية في أوربا.[1]

ورغم أنهم في تاريخهم هذا لا يستطيعون أن يَتَحَاشَوْا كلّ التحاشي من ذكر الكنيسة و البابا وسلوكه ، وما كان يتركه سلوكهما في نفوس الناس شيئًا فشيئًا ، وحتى في ثناياه وهوامشه، وهيهات أن يستطيعوه ، وإلا انقطعت للقارئ حبال التاريط التي تصل الماضي بالحاضر ، إلا أن ما تتطلبه صناعة التاريط من الصراحة والحرية في التعليق تفقدها كتبُهم ، وإنما هم في الغالب يخلقون الأحاديث خلقًا ، ويحاولون ما وَسِعَهم أن لا يتجلى للناس مغبةُ الدين الذي ينتمى إليه بلدُهم أو قومهم .

ومن هنا قد ينكر البعضُ وحتى أولئك الذين لهم دراسة كافية واعية لتاريط أوربا الفكرةَ التي سأتعرض لها الآن ؛ لأنهم – في الغالب – سبق أن سلكوا – في هذا الخصوص – مسالك شاء المؤرخون الأوربيّون الدهاةُ أن يسلكوها . وعلى أن هذه الأخبار كلها – ولله الحمد – توجد متناثرةً هنا وهناك في المراجع التاريخية الأوربية نفسها ، وإن لم توجد متّسقةً مرتّبةً . وقد حاولنا إيجاد الترتيب والنسق بينها في بيان كلمة «آثارهم» الواردة في القرآن .

[1] راجع : يورپ سولهوين صدى مين (أوربا في القرن السادس عشر) ص ١٩٩ .

والحق أن الضعف الذي طرأ الدينَ وعقائدَه في أوربا ليست رهنَ الاختراعات العلمية الحديثة مباشرةً ، كما لا تمتّ بسبب مباشر إلى التعديلات السياسية ، والدستورية التي مرّت بها أوربا في تاريخها ، إلى العصر الحاضر ، وإنما نشأ كله عن هذا الدين ، وتاريخه الذي كان ينسب إليه الأوربيون أنفسَهُم وحياتَهم الدينية ، ولا يزالون ينسبون إليه .

وبتعبير آخر أن عقيدة الولدية التي كانت تفرض علينا أن الخالق تَجَسَّد لنا في مخلوق والشَغَفَ المفرطَ بها، والعكوفَ عليها، والانصراف الكلي إليها : كل ذلك مما عبّد الأوربيين للكنيسة وباباواتها ، ثمَّ تمادى الكنيسةِ وممثليها في الاعتداءات والمظالم أورث في قلوبَ العامة ظاهرة ردّ الفعل على ذلك ، التي توسعت وامتدت حتى تجلَّتْ أول ما تجلَّتْ في البروتستانتية . فحاولت الكنيسة والولاة العالة عليها أن تواجه هذه الحركة العنيفة التي تذكيها نار ردّ الفعل ، تواجهها بالنار والحديد . فكانت هذه الحركة البروتستانتية التي انتقد مؤسسها أشد وألذع انتقاد ، وهو – كما نقله جونسون Johnson عن رسالته المسماة بـ «إسار بابل» – ما يلي :

«إنه – أي مارتين لوتر – لم يكتفِ برفض سلطة البابا ، وإنما عاد يهاجم الإدارة الكهنوتية المقدسة، وسند الروايات ، وما عرفته العصور الوسطى من مبدأ استحالة اللحم .[1]

[1] ومبدأ استحالة اللحم : مصطلح يخص بمناسبة العشاء الرباني، ويعنون به أن ما يتناولونه فيه إنما هو من دم المسيح ولحمه حقًا .

ثم يقول جونسون نفسه : «وإنه – أي لوتر – لم يبالِ بالتخلي عن التقاليد الكنسية . وأضاف :

«وكان على جزم قاطع بأن النجاة ، وما تتطلبه إدارة الكنيسة ، يمكن أن نتلقى كل ذلك من نصوص الإنجيل نفسه»[1]

ورغم ذلك بقي «لوتر» مسيحيًا ما دام على قيد الحياة ، وكما أن أتباعه النصارى كانوا على يقين بأن الإنجيل هو المنجاة لهم .

ولكن أنصار الكنيسة – أي الكاثوليكية الرومانية – طاردوا هولاء البروتستانت أي المحتجين بأفظع وأبشع أنواع الاعتداءات والظلم ، وقد مرّ بك صورة خاطفة منها . أفرأيت ماذا عسىٰ أن يؤدي كل ذلك إليه منطقيًا سوى ما أدى إليه .

ما لي و لأناس غيري ، ونَفسي تحدِّثني أني لو واجهت ما ظلت تواجهه أوربا عبَر قرون عديدة من مشاهد الوحشية والبربرية المخيفة الأليمة ، باسم الكنيسة والمسيح ، فربما وجدت نفسي مضطرةً إلى أن تستبدل اللادينيةَ بدينٍ هذا شأنه .

فالحق أن اللادينية التي تُعاني منها أوربا ، مما أفرزه الدين الذي تتمسك به أوربا . وهل كان هذا الدين سوى نظرية «الولدية» التي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله : (قَالُوْا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا) .

وَهَلُمَّ بِنَا نَتَأمل معنى كلمة «آثارهم» الواردة في القرآن

[1] نفس المصدر ، ص ٢٠٠ .

الكريم . فالآثار واحدها : «أثر» وقد مرّ بك ما قال في منتهى الأرب (القاموس الفارسي) في شرح هذه الكلمة ما معناه : الأثر: بقية الشيء ؛ والعلامة ؛ والهدى والسنة . ومنه : قطع الله أثره أي أباده وأفناه .

وبالجملة الأثر والآثار في اللغة العربية يطلق على ما يحدثه الشيء ، ويتركه من ورائه من المعالم .

وهذا شرح لغوي لكلمةِ «آثار» . ويتلوه كلمة «هم» الضمير العائد على الذين اعتنقوا عقيدة الولدية . ثم تَذَكَّرْ مجمل التفاصيل التي مرّ بها عقيدة الولدية انتهاءً إلى عصرنا هذا . وإن الذين اخترعوا عقيدة الولدية هذه في خصوص خالق الكون قَد مَضَوْا لسبيلهم ، تاركين وراءهم الكنيسة التي خلقت ذريتها ، وهي البابوات . ثم ما جرّ هذا النظام على الأوربيين من ويلات لا يهنألي ذكرُها ، مِما أدَّىٰ إلى بروز فكرة الاحتجاج التي لم تلبث أن اتسع نطاقها ، وامتدت حتى رفضت سلطةَ البابا في الكنيسة ، بل ازدادت تصلبًا وبذاءةً ازدياد خصومها اعتداء وقساوةً ، حتى رفضت وجود «بطرس» حواري المسيح نفسه ، ثم أثارت الشك في وجود المسيح كذلك ، وانتهت – والعياذ بالله – إلى ما يفقد الإنسان عنده كل ما يقوم عليه الإنسانية. أي تمهدت في أوربا السبُل إلى التشكيك في وجود والد المسيح ، وبتعبير آخر في وجود الله تعالى. ورغم أن عامة الناس ظلوا يذكرون الله والمسيح وإنجيله، إلا أن أفئدة كبارهم وعظمائهم في أرجاء العالم المترامية كانت هواءً لاتحمل شيئًا من ذلك .

وإلامَ تمسك الصدور ببناتها ، وأخيرًا رفعت الشيوعية البلشفية Bolshevism رأسها في شرق أوربا ، التي حملت الناس على أن يطلقوا ألسنتهم بما كانت تكنّه قلوب الناس في غرب أوربا ، فكان من الطبيعي أن يستحيل الإبقاء على الفوارق الجنسية بين الإنسان ، وغيره من الحيوانات . وكما أن ذبابةً تُولَد ، ومعها روحٌ ، و لها شعورٌ ، لتلد ذبابًا أمثالها ، فتموت وتفنى ، ولم يعُدْ باعثٌ على أن يقام للإنسان وزنٌ ، حتى يستحق ميزةً أكبر من ذلك .

إن موت الذباب وقتلها – مهما بلغ عدد أمواتها وقتلاها – لا يستدعي انتباهًا ، وإن هذه الفكرة عادت تتأصل في القلوب اليومَ في خصوص من يولد في هذا العالم بصفته إنسانًا . أرأيتَ هذا الإنسان الذي سجد له الملائكة ، كيف سقط في قرار هوة مظلمة مخيفة من الذل والهوان ، جريحًا بعقيدة الولدية ؟!

وهذا ما يفيده – فيما أرى – كلمة «آثارهم» الواردة في القرآن الكريم الجديرة بأن تُبْحَث في مجلدات، وأتركه لغيري مكتفيًا بهذه الإشارات البسيطة التي قدمتُها للقارئ[1]. وأتساءل: إن الذي تبين ببصيرته النبوية الآثار والعواقب المخيفة المفزعة بكل نواحيها ، مما أفرزه عقيدة الولدية هذه ، وسبق أن تعرضنا لشيء منها ، ولا يمكننا أن نقطع قولاً فيما ترتّب عقيدة الولدية هذه

[1] ولا يخفى أني تعلمت في مدارس من طرازٍ قديمٍ ، ولم أتخصص في علم التاريخ ، فليت أصحاب الدراسات الموسعة لتاريخ أوربا يقومون بشرح ما أجملت من الإشارات ، وعلى الله أجرهم .

من الآثار على الإنسان المنضمّ إلى صفوف الحشرات والهوامّ ، والذباب ، والفراش .

وإذا كان العلم بما مرّ أو يمرّ أو سيمر حَمَلَ أكبرَ ناصحٍ للإنسانية ومحسن إليها – صلوات الله وسلامه عليه – على أن يضحِّيَ في صيانتها من هذه الآثار والعواقب ، بكل ما ملكت يمينه ، وحتى بنفسه ، فإن ذلك لا يبعث على العجب والحيرة .

وبهذا ينتهي قصة الذين أُنْذِروا بالبأس الشديد اللدني . فتأمل – إذًا – ما يتلوها من الآيات .

خلق الكون كما يُؤَوِّله القرآن الكريم

١– ﴿إنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِيْنَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ اَيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً﴾ .

٢– ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُوْنَ مَا عَلَيْهَا صَعِيْدًا جُرُزًا﴾ .

هما آيتان من العشر الأولى من سورة الكهف وإن شئت قلت: الآيتان الآخرتَان من هذا الركوع . والآية الأولى منهما ، وإن كانت تتناول – فيما يبدو – تأويل خلق الكون بصفة عامةٍ ، وذلك أمر يردِّده القرآن الكريم في فترات متقاربةٍ ، وبأساليب مختلفةٍ ، ولخَّصْتُه بـ «إن ما في هذا العالم خُلِقَ للإنسان ، والإنسان لمن له كل ذلك» .

فَضَعْ هذا الأسلوبَ الذي اختاره القرآن الكريم لبيان تأويل خلق العالم العام ، والموضع الذي يوجد فيه، نُصْبَ عينيك ، وتَذَكَّرْ : أن ما على الأرض أي جميع ما تشتمل عليه الأرض من الكون مِما يزيّن هذه الكتلة المكونة من الطين ، والوحل ، والتي

نسميها بـ «الأرض» يضمّ – فيما يضمّ – الجبالَ الراسياتِ ، والأودية الخضراء التي تحتضن أنهارًا جاريةً ، والبحارَ الهائجة الزائرة ، والأزهار المفتحة ، والأشجار المثمرةَ ، والحدائق الغناء ، والغابات والساحات الفيحاء الخلابة الفاتنة ، وأمثالها لاتحصى ولا تعدّ ، كذلك – و لاشك – يضم الوجود الإنساني الذي يكنّ ما يضمن زينةَ الكتلة الترابية ؛ فإنه بدوره زينة للأرض ، وكذلك ما جُبِلَ عليه من سليقة صياغة الأشياء التافهة مصاغًا أجمل يخلب الفؤاد بذكائه ، ودهائه الصناعي . ولا شك أن سليقة الإنسان الطبيعية هذه زاد من زينة الأرض وحسنها ، وبهائها وروائها ، زيادةً ملموسةً ، وعلينا أن نؤمن بأن الوجود الإنساني – بجانب ما عداه مما على الأرض – قد ساهم في إصلاح هذه الكرة الأرضية ليعيش عليها هذا الإنسان المخرَج من الجنة أو وارثُها ، وكأنّ نوعًا من التسلية هيئت لهذا الإنسان – الذي سكن الفردوس – كي يتخذ مستقرًا عابرًا له .

وأيًا ما كان فإن الوجود الإنساني – بجانب ما على الأرض – يساهم مساهمةً كبيرةً في زيادة محاسن الأرض وجمالها ، وبهجتها وروائها . ومن المهم جدًا – كما ينبّه عليه القرآن الكريم – أن ننظر فيما يزيده الوجود الإنساني بسليقته هذه حسنًا وجمالاً . فلا يخفى أنه ليس هذا الإنسان نفسه وإنما هو هذه الكتلة الترابية ، وهذا ملخص الآية : (إنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْض زِيْنَةً لَهَا) .

ومن ثمّ نبّه إلى أن الحيلة في استخدام خزائن الحسن ، والفضل التي لا تنفد ، والتي تكمن في الفطرة الإنسانية – دون

الأرض أن يربط الإنسان نفَسه بخالق الكون ذي الفضل المطلق ، وأن يجعل رضاه مِعيارًا لما تتصف به الأعمال من حسن وقبح ، وخير وشرّ . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : (لِنَبْلُوَهُمْ اَيُّهُمْ اَحْسَنُ عَمَلاً) .

والآية بشطريها قد تشير – في الجملة – إلى أن الأرض لأجل انتهائها إلى الإنسان ، ولكونها مستقرًا مؤقتًا له أغدقت عليها معانى الحُسن والجمال ، ويتجلى كثير من قدراتها الكامنة ، مرتبطةً بالوجود الإنساني فَلْنُقَدِّر به ما عسىٰ أن تبرزه العلاقة والارتباط بخالق الكون من الخزائن التي يكنّه الوجود الإنساني . وفي نهاية الآيات العشر الأواخر من هذه السورة – عندما ذُكِرَ أنه لا ترغبُ نفس من النفوس في العودة من الحياة الفردوسية ، وبما أن الفطرة الإنسانية كعادتها ، تَمَلّ استمرارَ الحياة وتتابُعَها على نمط واحد ، وتَسأمها . وهل يكمن سرّ فضيحة الوجبات التي تقدمها مطاعم الوحدات السكنية الطلابية في الجامعات إلا في توحّد لونها وتتابعها على نمط واحد . ومراعاةً لهذا التساءل – ذكرت كلمات الله التي لا تحدّ ولا تحصى ، مما يوحي إلى أن السعي الإنساني المتواصل وظمأه الذي لا يرويه شيءٌ إنما يَبُلُّه أن يوجّه سعيه وبحثه إلى من لا يحدّ .

ويقول الشاعر الإسلامي الكبير الدكتور محمد إقبال رحمه الله[١] ما معناه :

---

[١] إقبال (محمد) ١٨٧٦–١٩٣٨م) أشهر الشعراء الفلاسفة والمفكرين المسلمين في هند القرن العشرين ، وأرفعهم مكانًا. ولد في « سيالكوت » . وتوفي في « لاهور » فاق غيره في

«ان التحرق والاضطراب هو الحياة ، وإنه الدوام والأبدية» .

وكما يقول الشيط الأكبر محي الدين العربي[1] : إن ما يشهد العالم من الأحداث المستجدة يُفْزِع الناس ، رغم أنها لو لم تستجدَّ في العالم ، لما استساغت الفطرة الإنسانية الحياةَ .

ودعنا من الخوض في تفاصيله ؛ فإنها ستمر بك – بإذن الله تعالى – في خاتمة سورة الكهف ، وإنما لَّمحْنا إليه تلميحةً ، ويهمنا هنا شرح معنى إحدى الآيتين من الآيات العشر الأُوَلِ من هذه السورة ، وأظن القارئَ قد رسط في ذهنه معنى الآية الأساسي بإذن الله .

وهلمّ بنا نتأمل: أن الجانبين من الوجود الإنساني – أحدهما: ما يساعد على زيادة الأرض حسنًا وجمالاً ، ورونقًا وبهاءً ، وثانيهما : ما يرجع إليه ظهور الحسن والكمال ، وبروزه مما يكنّه الوجود الإنساني نفسه – لِمَ قُدِّمَ عَليها ذكر الآثار والعواقب التي أسفرت عنها عقيدة الولدية .

وأسلفت أن ما شهدته الدول المسيحية ، والجهات الكنسية من حدوث اللادينية من بطن الدين ، وما دبّ إلى قلوب الموغِلين

التأثير على عقلية مسلمي شبه القارة الهندية ، وإثارة شعورهم الديني والثقافي . له دواوين عديدة منها : «رموز بيخودي» بالفارسية ، و «بال جبريل» و «بانك درا» بالأردية . (المنجد ص ٥٦)

[1] الشيط الأكبر محي الدين بن العربي : محمد بن علي بن محمد ابن عربي أبوبكر (٥٦٠–٦٣٨هـ = ١١٦٥–١٢٤٠م) ولد في مرسية (الأندلس) ، وتوفي في بسفح «قاسيون» في دمشق فيلسوف صوفي يلقب بالشيط الأكبر . له أربع مائة مصنف منها : «الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية ، والملكية» ، و «فصوص الحكم»، و «ترجمان الأشواق».(المنجد ص١٢، والأعلام للزركلي ٢٨١/٦ ط : دارالعلم للملايين)

في هذا الصراع من دبيب العنف والعناد ، والبغض والشحناء ، لم يقف عند النفوس الكافرة بالله ،وإنما دفعت الجحيمُ – التي أوقدتها نار الفتن الفرعونية ، والمشاغبات الطاغوتية اللادينية باسم الدين والملة – الناسَ المصطلين بها إلى الصدود والبراءة عن الله تعالى . ثم لِتَخْتَلِقْ أوربا وأمريكا في تأويل حضارتهما الصادّة عن الله ما شاءت من الأحاديث ، وتلجأ في ذلك إلى الفلسفة وتُلصق بالعلم ماشاءت من التُّهَم ، وتَحمل الناس على ذلك ، إلا أن الدارس – على بصيرة – لتاريط أهل هذه البلاد الديني ، والتقلبات الدينية التي شهدتها ، يدرك كل الإدراك أن هذا الدين وسلوك رجاله ، مما أدى بهم إلى حيث نراهم واقفين . وإن كنا لا نشك أنهم – بعد ما صاروا إلى ما صاروا إليه – استمدوا باللباقة الفلسفية، واستغلوا القضايا العلمية كذلك ، وإلا فالسبب الحقيقي الذي يرجع إليه الحياة اللادينية هذه ، إنما هو ما أشار إليه القرآن الكريم بكلمتين هما : «آثار» و «هم» .

وبالجملة كان ما كان ، وهو على أعين الناس ، وهم بدورهم لا يسترون ما يمتازون به من الصدود والإعراض عن الله تعالى في الغالب . وإنما نجد الصورة النهائية لهذا التقلب التاريخي ، وما يسمى بالاشتراكية أو البلشفية Bolshevism وغيرها ، تعتبر الصدود عن الله تعالى أبرز و أهم شعارها .

ولا نعدو الحق والعدل لو قلنا : إن جميع ما ينسب إلى الاشتراكيين في خصوص هذا الصدود عن الله ، و ما يبذل من المساعي في اعتبار ذلك بدعةً من الأمر ، أرى أنهم لا ذنب لهم

أكثر من أن ما كان يكنه صدور الذين حاولوا تشويه سمعتهم ، قد جَرَّأَ أولئك المشوَّهِين على أن يتفوهوا به ، ويطلقوا به ألسنتَهم، فكأن الباطن برز ، وظهر .

وسواء كان أصحاب القلوب أو أصحاب الألسنة أو أصحاب الظاهر أو الباطن ، لاشك أن أي واحد من هذه الأوساط لا يسعه أن يفكر في جانب الوجود الإنساني الذي يكمن فيه سرّ زيادة الأرض حسنًا وجمالاً . وقل لى : أنَّى يدِبّ دبيب التعرف على الله وفكرة الإله إلى العقلية الصادة عن الله تعالى ؟! وأنَّى يكون اتخاذ رضا الله معيارًا لما تتصف به أعمال الإنسان من الحسن والقبح ؟! وإذا ما أعوز القلوبَ قدرُ الله ومنزلته ، فأنّى ينبعث أو يبعث فيها الرغبة في التماس رضى الله تعالى والسعي حثيثًا وراءه .

والحق أن إبلاغ الشرطة وإن لم يتجاوز أن يكون طُرفةً من الطُرَف[1] إلا أن المعتز بانتمائه إلى الله تعالى يُمْنَعُ حقَه في المشاركة في الاجتماعات والمجالس المتحضرة الثقافية . وهل لأحد أن ينكر هذا الواقع . فما مصيره ؟. إنه بين أيديك وأيدينا . وإن الجانب الإلهي من الوجود الإنساني قد أصبح ميّتًا لا حراك به ، ولم يبق إلا شيء واحد أي أن الإنسانية تعلقت – بكليتها – بهذه الكتلة من

(١) يشير إلى ما قاله الشاعر الهندي : «أكبر» ونصّه ما يلي :

رقیبوں نے رپٹ لکھوائی ہے جا جا کے تھانے میں
کہ اکبر نام لیتا ہے خدا کا اس زمانے میں

أي أن رقبائي تنافسوا في إبلاغ الشرطة بأن أكبر – يعني الشاعر نفسه – يعتزّ بذكر الله في هذا العصر .

التراب والوحل ، ولا يهم المرأ سوى أن يلتقط لقاط الأرض ليزيد إلى حسنه حسنًا ، وإلى قيمته قيمةً . وإن استخدام ما يملكه الإنسان من الرصيد الغالي الثمين من الطاقات التي لا تنفد، والتي منها بدأ ، وإليها ينتهي – يتركه كصبي حديث عهد بالدنيا ، صفرَ اليدين من الفضائل الإنسانية، وإن بلغ مبلغ إديسُن Edison[1] في زيادة الأرض رونقًا وبهاءً عند موته . وهذا ما ينتهى إليه العجوز الذي قطع مراحل حياته كلها ليغادر هذا العالم. وكأنه يموت حين يموت على ما ولد عليه ، وإن لعب بدور فعال ملموس في رفع مستوى الأرض رونقًا وبهاءً.

وإن عقيدة الولدية هذه جرّت – فيما جرّت على العالم من الويلات – أن أصبح التراب يزداد كثةً ، ويلمع ، ويزداد لمعانًا ، ويزداد حسنًا على حسن ، وجمالاً على جمال ، وأما الإنسان فينهار ويزداد انهيارًا ، ويخمد ويزداد خمودًا . ولعلي أخطأت إذ قلت : إنه يموت على ما ولد عليه ، والحق أنه أقل ما يكون عندما يولد ، حيوانًا معصومًا لم يركب خطيئةً أو حيوانًا لايضرّ . وأما من عاش حياته في كنف هذه الحضارة الصادة عن الله تعالى ، فكم من ميّت مِنهم يجود بنفسه ، وقد جَدَعَ أنف الشيطان ، وفَضَحَه . وإن شياطين الإنس هولاء كادوا يصلون بهذه الأرض – التي تبدو جنةً من الجنات – إلى حفرة من النار إساءةً وضررًا.

والذي قلته قد كان وسيكون ، وأما ما يجلب هذا الوضع

(١) إديسُن (توما) : (١٨٤٧–١٩٣١م) . فيزيائي أميركي مخترع الآلات الكهربائية ، ومنها المصباح الكهربائي . وهو أول من حقّق عمليًا الفونوغراف . (المنجد ص ٣٠)

على المرء من عاقبة وبيلة مفزعة ، ففيما أرى أن الآية الأخيرة من الآيتين السالف ذكرهما قد تضيء الطريق أما من يتلمس الرد على هذا التساءل ، وترشده إليه .

أي أن الذين قطعوا كل صلتهم بالله ، وانصرفوا عنه انصرافًا ، ورضوا بحياتهم الصادة عن الله تعالى واطمأنوا بها ، قد أسفرت طمأنينتهم هذه عن اتّجاه جميع ما زُوِّد به الوجود الإنساني من الرصيد الهائل من الطاقات ، والكنز الكبير من القدرات ، بدلاً عن الخالق إلى زينة الأرض وجمالها . فأدت هذه العزلة الخشنة أو الانصراف الكلي إلى أن يكتظّ العالم اليومَ ، ولا يزال يكتظ بأحدث أنواع الكماليات وأدوات الترف اكتظاظًا لم يسبق له مثيلٌ في تاريط الإنسانية أو على الأقل في تاريط الإنسانية المعلوم . وإن الشمس كل يوم تطلع ، ومعها اختراعات جديدة ، وصناعات حديثة ، ولا يسدل الستار على منظر إلا ليرفع عن منظر مثله يأسر الأنظار .

وجميع ما يتمّ ويحصل في هذا الخصوص على مرأى و مسمعٍ منا جميعًا ثم إن الإنسان الذي أكب على زينة الدنيا وجمالها ، وتناسىٰ نفسَه ، وتناسىٰ ما تحمله نفسه من حسن وجمالٍ يجرّ – إلى جانب مظاهر الزينة وأدواتها ، أسباب الدمار والهلاك على هذه الأرض من الغيب إلى حيز الوجود والشهود ، من خلال هذه الاختراعات والمستجدات ، مما لايكاد يخفى عن أعين الناس . أرأيتَ هذه القنبلة الذرية، وما تحمله من ذارت جهنمية ، وتلك القنبلة الهيدروجينية (Hydrogen Bomb) وعجائبها ، بالإضافة إلى

المخترعات النارية التي سبق أن جَرَّبَها العالم ، فانظر إليها ، واقرأ قولَ الله تعالى في كتابه : (إنّا لَجَاعِلُوْنَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) وإذًا تدرك معنى هذا النص القرآني .

إن الإنسان انقطع عن الخالق ، وأخلد إلى الأرض بكليته ، وسوّلت له نفسه أنه قد بلغ ذروة المجد والكمال ، إذ رأى حلية من حلي الأرض تقلد عنقه ، وتحلي صدره ، ثم يفنى في زعمه هو .

والحق أن ما كان لله لو بقي يطوق عنق حمار، لقلنا إنه يقلد عنق حيوان حيّ يرزق ، ولكنه يهتز فرحًا بأنّه يحلي التراب والوحل ، وإن مصير الأفراد لم يكن لينبِّهه على تتابع النسل . والثقة بتتابعه ظل يضمد جروح صدره ضمادًا كاذبًا ، ولكن قوله تعالى : (إنّا لَجَاعِلُوْنَ مَا عَلَيْهَا صَعِيْدًا جُرُزًا) لا يدع هذا الضماد – الذي لا يطمئن به إلا الصبيان – على الصدور الجريحة طويلاً ، وكان كما يقول الشاعر الفارسي ما معناه :

«ماذا عسى أن يحتال به الدهاة بعد حيلتي هذه».

* * *

قصة أصحاب الكهف

إن قصة أصحاب الكهف – فيما أراه – رد على التساؤل الذي عسى أن يثيره نهاية الركوع من السورة ؛ ولكنه قبل الخوض في ذلك اسمع مني ما أقول :

اعلم أن ما مرّ بك الآن يضم – إلى الإنذار بالبأس الشديد – بشرىٰ بشرّ بها القرآن الكريم ؛ حيث قال : (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصَّالِحَاتِ اَنَّ لَهُمْ أجْراً حَسَنًا مَاكِثِيْنَ فيه أبَدًا) . (الكهف/٣)

فالآية الكريمة تبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنه لاخوف عليهم ، فإنه ، كما أن عقيدة الولدية تجر وراءها آثارها وعواقبها ، حتى يأتي على الأرض بذلك المستقبل المخوف المتمثل في «صعيدًا جرزًا» كذلك الإيمان والعمل الصالح من شأنهما أن تستمر نتائجهما وعواقبها ، متمثلةً في «أجْرًا حَسَنًا» والبديل الصالح للذين أخذوا أنفسهم بالعيش عيشةً متسمةً بالإيمان والعمل الصالح . وقوله تعالى : (مَاكِثِيْنَ فِيْهِ اَبَدًا) إنما يدل على أن حالة الغبطة والسرور هذه لا ينتابها خللٌ ، ولا يكدّر صفوها شيء ، مهما تعرض له «ما على الارض» من أوضاع وتقلبات .

فالقرآن الكريم بشر بهذه البشرى السارة . وإذا ما قرأها المرء متصفًا بالمشاعر الإيمانية الخالصة غير مبالٍ بما يحيط به من أوضاع

وملابسات يقَرَّ عيناً ، ويطيب نفسًا . ولِيَجِدْ ذلك كل من كان مؤمنا، بل يقضي ظاهره بأن تعم تلك البشرى الدنيا والآخرةَ معًا؛ فإن النص القرآني قد أطلق الأجر الحسن ، ولم يقيده بالحياة الدنيا، ولا بالحياة الآخرة ، والله أعلم بمراده .

إلا أن العقل الإنساني إذا فكرخاضعًا لما يتطلبه ما حوله ، فإن اليأس والقنوط من الإبقاء على الإيمان والمحافظة عليه يتسرب إلى القلوب ويسودها ؛ إذ أن ملابسات عقيدة الولدية هي بدورها خلقت جوًّا جعل الإبقاء على الإيمانِ في القلوب كالقبض على الجمر .

وأنا بدوري أشعر بأن ما بدأ به القرآن الكريم قِصَّةَ أصحاب الكهف متسائلاً بهذا الشطر من الآية: (أَمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيْمِ كَانُوْا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) فإنه جعل المخاطبَ في حيرة ثم قص عليه ما سيأتي من القصة ، يجعل المرء يتساءل بملء فمه : من ذا الذي عجب من هذا الأمر ، حتى ساغ للقرآن الكريم أن يختار هذا الأسلوب ؟ . وكشفُ هذا الإشكال يُحوِجنا – لزامًا – إلى اللجوء إلى الروايات الأخرى والاعتضاد بها .[1]

---

[1] ورد في روايات تفسيرية – وهي التي نعتها الإمام أحمد بأنها مما لا أصل له ، ومن الموارد الزاخرة بالأحاديث الواهية – أن قريشًا بعثت بعثًا يرأسه النضر بن الحارث إلى أحبار اليهود في المدينة ليتلقوا منهم ما يختبرون به صدق محمد ﷺ فيما يقوله . فكان مما أمر أحبار اليهود بسؤال محمد عنه : قصةُ أصحاب الكهف . فرجع البعث إلى قريش يُفضي إليها ما تلقاه منهم ، فسألته ، فنزل القرآن الكريم ردًا على ما سألوه .

ومن هنا بدأ الرد على ذلك بقوله : (أَمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيْمِ كَانُوْا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) . ثُمَّ ذكر قصتهم . ولا يسعني أن أقطع بدلالة هذه الرواية على كلمة

والـذي أرى أن هـذا التبـشير والـضمان بـه مما يحتـوى عليـه الركـوع الأول مـن الـسورة كفيـل بـأن يوقـع المـرء في حـيرة واستعجاب . وإن شئت قلت : إن ما تجره عقيـدة الولديـة وراءهـا من أوضاع وملابسات مما قد ابتلينا به اليوم ، لاشك أنه يبعث المرأَ على التـساؤل عمـا يـستطيع بـه الحفـاظ عـلى إيمانـه والإبقـاء عـلى حدود العمل الصالح بقوته الإيمانية ، فرد عليه القرآن الكريم : مـا لكـم تفزعـون مـن رؤيـة آثـار عقيـدة الولديـة وتتـساءلون بيـنكم : كيف السبيل إلى الإبقاء على الإيمـان ؟ وهـل يـسع المرأَ أن يعيش حياةَ إيمان وعملٍ صالحٍ في جوّ تجره عقيـدة الولديـة وآثارهـا عـلى العالم يومًا فيومًا .

وأرى أن القرآن الكريم حيـث يـشير إلى ذلـك ويـذكّر بقـصةٍ ماضيةٍ ، يحاول أن يؤكـد بـأن هنـاك مـن حـافظوا عـلى إيمـانهم في أحرج الساعات وأعصب المواقف كما صانوا حياتهم المليئة بالأعمال الصالحة من أن يشوبها شائبة ، وأنهم لم يزالوا يلاقون الأجر الحسن والجزاء الصالح الذي أنتجته تلك الحياة الـصالحة دون أن ينقطـع أو يزول . وكأن القرآن الكريم حاول التأكيد على أن السبيل إلى الحفاظ على إيمان المرءِ وعمله الصالح حفاظاً علميا وعمليًا مفتوحة ، ولـو أحاط به جوٌ من الكفر والفسوق من كل جانب .

«عجبًا» ، ومدىٰ توافقها معه ؛ فإن الرد على الأسئلة الأخرى لم يتعرض للعجب هـذا ، رغم أنه يوافقه . وليت شعري ما الـذي سوّغ لأحبـار اليهـود وعلمائهـا أن يتخـذوا مـن قصةٍ شهيرةٍ على الألسنة مِحكاً للنبوة و صدق زاعمها . وَهَبْ أن القصة لم تشتهر فـأنّى يجوز أن يُعْتَبر العلم بقصة تاريخية ماضية دليلاً على صدق النبوة .

ولا شك أن أكبر ما يبعث على العجب والحيرة في هذا العهد الذي يطفح بآثار عقيدة الولدية ، إنما هو : هل يمكن الإبقاء على الإيمان والعمل الصالح في هذا العهد ؟ وهل من سبيل إلى ذلـك ؟ وهذا تساؤل طبيعي ينشأ في القلوب ، ثم جاء الـرد عـلى التـساؤل الذي يجعل المرأ يخبط في حيرة عمياء بأن الإيمان سبق أن مـرّ ويمـرّ بمثل هذه البلايا والمِحَن . فأصحاب الكهف ومـا تعرضـوا لـه مـن محـن وفـوادح ، ثـم فـوزهم بالحفـاظ عـلى الإيمـان والعمـل الـصالح وعواقبه الحسنة في هذه الأوضاع العصيبة ، هل تَعُدّون ذلـك أمـرًا عجبًا غيرَ عادي لا يخضع للمبادئ والقوانين الطبيعية ، وإنمـا جـاء عفوًا وعرضًا ؟!

وهكذا ترتبط قصة أصحاب الكهف بما قبلها من الآيات فيما أرىٰ . وقد حان لي أن أتناول قصة أصحاب الكهف ، وما عبر به القرآن الكريم هذه القصة من نصوص وكلمات ، وما ينتج عنها ، ثم كيف تقضي هذه النتائج على العجب والحيرة مما وقعنا نحن وأنتم فيه حيث حسِبْنا الحفاظ على حياة الإيمان والعمل الـصالح في هـذه الأوضاع المعاتية العـصيبة عجبًا . وذلـك راجيًا مـن المـولى شـارح الصدور أن يشرحها وأن يقرب إلى قلوب الناس ما أريد أن أقوله . وما توفيقي إلا بالله ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .

مكانة القصة التاريخية

وإن المثل القائل بـ «الإنـسان حـريص عـلى مـا مُنِـعَ» لَيَـصْدُقْ على ما يصدق إلا أنه يحمل تأثيرًا مدهـشًا حقًـا فيمـا يتعلـق بقـصة أصحاب الكهـف هذه. ولقد نالت القصة شـهرةً واسـعةً في العـرب

وما يحيط بها من بلاد ودُول قبل أن ينزل القرآن الكريم، بل قال «غبن (Gibbon Edward)[1] في كتابه Decline and Fall of Roman Empire (تاريخ سقوط رومة): إن القصة قد تم العثور عليها مكتوبةً في اللغة السريانية . وألقى الأستاذ «كويدي» الإيطالوي[2] في الجامعة المصرية ما يسمى بالمحاضرات عام ١٩٠٩م وتمّ نشرها في مصر ، واقتبس «كويدي» هذه القصة من اللغة السريانية نفسها مباشرةً ، وكان هو أحد علماءِ هذه اللغة ، وأورد في خصوص الأسماء والأعلام في هذه القصة ما يسرّ الناظرين ويعجبهم .

وعلى كل فالذي أريد أن أقوله هو أن هذه القصة التي شهدها عهد من العهود الماضية ، قد انتقى منها القرآن الكريم أجزاءً وعناصرَ تعنيه وتهمُّه، ثم صرح بالنهي عن الخوض – دون جدوى – في تفاصيل أخرى لم يتعرض لها القرآن الكريم . وحذّر المسلمين من الوقوع فيها أيّما تحذيرٍ ، فقال : (وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيْهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) .

وخلاصة ذلك أن ما تعرض له القرآن الكريم صريحًا من عناصر القصة يجعلنا في غنىً عما سواه فيما سيقت القصة له . إلا أن ما نصّ عليه القرآن الكريم من النهي عن الخوض فيما عداه لم يبالِ به الأولون ولا الآخرون ، وغاب عن أنظارهم ما لأجله أورد القرآن الكريم القصة ولم يَرْعَوِ الأولون ولا الآخرون منا عن

[1] لم أعثر على ترجمته فيما وصلت إليه يدي من كتب التراجم .

[2] لم أعثر على ترجمته .

استفتاء كل من زعم أن لديه علمًا به رغم ورود النهي الصريح عن تخصيص عموم القرآن وتقييد إطلاقه بما لا يوازي قطعيتُه قطعيةَ القرآن وحتى ما نسبته أخبار الآحاد إلى رسول الله ﷺ – وإن سمّيناها أحاديث صحيحةً في مصطلح المحدثين – فلا يخفى على خلاب المدارس البدائيين امتناعُ الزيادة بمثل هذه الأخبار على كتاب الله تعالى فيما يراه الإمام أبو حنيفة رحمه الله.[1]

وقد صرح علي رضي الله عنه في خصوص بعض القصص الإسرائيلية كما نقله عنه القاضي البيضاوي[2] – بقوله : ما يرويه القصاص جلدته مائةً وستين . إلا أننا نرى كتب التفسير لا تزال تذكر هذه القصص .[3]

وعلى كل فسواءٌ راعى الناس في القصص الأخرى هذا المبدأ أو لم يراعوا إلا أن قصة أصحاب الكهف حيث حذّر فيها – عقب إيرادها – من التوسع في الاستفتاء والتساؤل عنها علاوةً عما ذكره القرآن الكريم – كان لِزامًا – وعلى أقل تقدير في خصوص هذه

[1] الإمام أبو حنيفة (٨٠–١٥٠هـ = ٦٩٩–٧٦٨م) النعمان بن ثابت التيمي ولاءً ، الكوفي ، الفقيه المجتهد المحقق ، صاحب المذهب ، أريد على القضاء فأبى فحبِس ، غني عن التعريف. (الأعلام للزركلي ٣٦/٨)

[2] البيضاوي (٠٠٠–٦٨٥هـ = ٠٠٠–١٢٨٦م) عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي ، أبو سعيد ، ناصر الدين البيضاوي : قاضٍ ، مفسر ، علاّمة ، ولد في مدينة البيضاء (بفارس – قرب شيراز) ولي قضاءَ شيراز مدةً . من تصانيفه: «أنوار التنزيل ، وأسرار التأويل» . يعرف بـ «تفسير البيضاوي» ، و «منهاج الوصول إلى علم الأصول» . (الأعلام ١١٠/٤)

[3] يشير إلى الخرافة التي تتحدث عن داؤد و زوجة أوريا . وارجع لتفاصيلها إلى المطولات التفسيرية .

القصة – أن يتناهي هولاء القصاص عن عادتهم ، إلا أنّهم – كما أسلفتُ – لم يُوْلُوْا أيّ اهتمام بما نصّ عليه القرآن الكريم في هذا الخصوص وبما جعل الله خالق السموات والأرض هذه القصة جزءًا من كتابه السماوي الخاتم فأعرضوا عن الهدف الأساسي كل الإعراض ووقعوا في اللغو والسفاسف مما يُسْتَحْيَى منه اليوم . ومنها البحث عن اسم كلب أصحاب الكهف ولونه ، وفي أي قالب وهيئةٍ يتم دخوله الجنةَ ، والعملة التي كانت ترجع إلى عهد الملك دقيانوس[1] والتي تم العثور عليها لدى أصحاب الكهف أكانت تساوي ظلف ولد الناقة حجمًا أو تصغره ، وأمثال هذه التساؤلات والمجاوبة عنها مما يطول ذكره ، يعدّ أمتع بحث وألذّه فيما تحمله كتب التفاسير القديمة لدينا.

وأنا أعذر القصاص الدقيانوسيين القدامىٰ إذ أرىٰ المتجددين المتنورين المعاصرين عاكفين على إثارة تساؤلات عن مكان القصة و زمانها ، فضلاً عن تلك الأسئلة الدقيانوسية . ثم إن هؤلاء المعاصرين لا يبالون باستفتاء من حذّر القرآن الكريم من استفتائهم لينالوا استحسانًا و تشجيعًا على هذه الدراسات القائمة على آرائهم .[2]

[1] دقيانوس أو داقيوس Decuis (٢٠١–٢٥١م) قائد روماني ، نادى به جنوده «إمبرلخورًا» بعد انتصاره على القوط فحكم ٢٤٨–٢٥١ ، اضطهد المسيحيين . (المنجد في الأعلام ط ٢٦ بيروت) .

[2] وأوسع الناس خُطى في هذا المضمار : أتباع الميرزا غلام أحمد القادياني (١٨٣٩–١٩٠٨م) فيقول ابنه وخليفته الميرزا محمود بشير في تفسيره : إن الخليفة الأول لوالده وهو المولوي نور الدين (١٢٥٨–٠٠٠٠هـ) أبلغه البعض أن هناك كنيسةً قديمةً معروفةً

بـ (كلوس تون برى) Gloston Bari بـ «إنكلترا» ، وضع حجر أساسها بها يوسف آرميتا خليفة حواري المسيح : فيلب . وهذه الخرافة هي التي بنىٰ عليها المولوي نور الدين ما زعم أن أهل «إنكلترا» من وُلد أصحاب الكهف ، وهم الذين يشير إليهم القرآن الكريم بأنهم ظلّوا نائمين نومة جهل مدةً من الزمان ، ثم أيقظهم الله ، ثم تمكنوا من بسط سيطرتهم على العالم كله فقيل له : ما العلاقة بينهم وبين أصحاب الكهف ؟ فأجاب : أن قصبة «كلوس تون برى» تقع على ضفة بحر في موقع يسمى في المصطلح الجغرافي بـ (Cape) فجاء «كيف» من كيب ، ومن «كيف» : «كهف» .

ولا أريد أن أحدث عن ضعف هذا المأخذ الذي لايتجاوز أن يكون من باب «حاجي» وزَانَ «جاجي» ؛ فإن أحد تلامذة المولوي نور الدين ألا وهو الميرزا بشير لم يصبر أن قال : إن هذا الزعم لا يعدو أن يكون خطلاً في الرأي وخللاً في العقل. وإن قصة كنيسة «كلوستون بري» من الخرافات والأسلخير . وأما اعتبار كلمة «كهف» ماخوذةً من «كيب»، فشتان بين الكلمتين: «كهف» و «كيب» كما يقول الميرزا بشير.

وقد أورد زعيم الحزب اللاهوري للقاديانيين ألا وهو المولوي محمد علي في تفسيره خرافة المولوي نورالدين هذه بزيادات عليها ، ولا يخفى أنه من بناء الفاسد على الفاسد ، لا غير . والحق أن ما أورده مولانا أبو الكلام آزاد (١٣٠٦–٠٠٠٠هـ = ١٨٨٨–١٩٥٨م) في تفسيره من دراسات و أخبار أجدر بالعناية من هذه الأقاصيص والخرافات من الناحية العلمية . ولكن أسلفت أننا في غنًى كل الغناء عن هذه الدراسات فيما يتعلق بالهدف الذي أورد له القرآن الكريم هذه القصة . ومن هنا أعتبر هذه الدراسات من إفرازات المساعي العلمية ، وإن لم نكن – فيما أرى – في حاجة إلى ذلك ، لندرك معاني القرآن الكريم . بل قد يجدر بالعناية – بجانب دراسات مولانا أبي الكلام – من الناحية العلمية ما أشار إليه الدكتور رشيد الدين حمو الميرزا بشير الدين من كتاب «كستيا كوميز آف روم» وما يحويه من دراسات وأخبار . فيقول الميرزا بشير الدين : إن هذا يسلط ضوءاً على من صبَّت عليهم الحكومة الرومية من المصائب تلو المصائب حوالي ثلاثة قرون . ويذكر الكتاب أن النصارى اتخذوا سراديب تحت الأرض مخافة الوقوع في أيدي الروم الغلابة . وتدعىٰ هذه السراديب بـ «كتيا كوميز» والتي تشتمل في الغالب على أدوار ثلاثة أرضية . وتشهد مدينة «رومة» شبكةً من هذه السراديب .

ويذكر الكتاب أن هذه السراديب تغطي مساحة خمسة عشر ميلاً مربعًا تحت الأرض على خراز منزل ذي خرقات مجهولة يخبط فيها السالك خبط عشواء . وشَاهَدَ

وأيًّا مَا كان فأنا بدوري أميل إلى أنه لا يبعثنا شيء على أن نقتل من أوقاتنا و أوقات غيرنا – دون جدوي – فيما يعتبره القرآن الكريم لغوًا لايجدي . وإنما يكفينا أن ندرك أن بقعة من الأرض وعهدًا من العهود شهدا قبل نزول القرآن الكريم فتنةً إيمانيةً تُشبه هذا الحدث مثل ما يواجهه الفئة البشرية التي تحاول العيش حياةً ملؤها الإيمان والعمل الصالح ، ولا تستطيعها في هذه الآونة المعاتية الشديدة . ومن مثل هذه الأوضاع كانت تعاني فئةٌ إيمانيةٌ في تلك الآونة ثم تمهدت لها السبل إلى العيشِ محافظةً على الإيمان والموتِ عليه .

ولم يتناول القرآن الكريم هذه القصة إلا لندرك مدى إمكانية استفادتنا من أسوتهم وسيرتهم في هذه الآونة التي فَتَنَتْ إيماننا اليومَ ؛ إذ أصبح العيش عيشةً ملؤها الإيمان و العمل الصالح في هذا الجوّ الإلحادي أمرًا عجبًا ، ولنستمع إلى هذه القصة المثالية في كتاب الله ثم لنتأمل : هل هي عجيبةٌ ومدهشةٌ حقًا كما ظنناها أو كما يؤكدون عليه .

ثم بعدما ذهب العجب من خلال هذه القصة المثالية التي

الميرزا محمود بشير بعينيه هذه السراديب في رحلته إلى أوربا عام ١٩٢٤م .
وعلى كل فإن هذا إن دل على شيءٍ فإنه يدل على أن هذه السراديب التي تسميها هذه الكتب بـ «Cave» كلمة تحولت في أوربا من «كهف العربية» قد كان الناس يلجاؤن إليها في العهد المبكر من النصرانية كما كانت توجد هذه الكهوف والسراديب في نواحي «رومة» فلا عجب إذًا أن توجد في غيرها من البلدان أمثالها . ثم من المؤسف جدًا ما حاول الميرزا بشير من التأكيد على أن الإنجليز من ولد أصحاب الكهف . وهل تجد ما هو أشد منه إثارةً للسخرية والضحك ؟!

ذكرها القرآن الكريم لِنَنْظُرْ : أن ما أنذر به القرآن الكريم الأمم المتبنية لعقيدة الولدية من البأس الشديد من لدنه وأخبر عن مغبة آثار هذه العقيدة ، أنها تتجسد في (صَعِيْدًا جُرُزًا) هل يسعنا أن نوازن ما يتولد منها من مصائب وفوادح مع حياةٍ ملؤها الإيمان والعمل الصالح ، وما جعله القرآن الكريم مصدرًا لـ (أجْراً حَسَنًا) وبديلٍ صالحٍ لا ينفد، ولم يقيد ظهور نتائج هذه الحياة المليئة بالإيمانِ والعملِ الصالح بهذه الحياة الأرضية أو بأنها تظهر للناس بعد ما يموتون .

وكما أسلفتُ يجب أن نقرأ قصة أصحاب الكهف هذه – فيما أرىٰ – توصلاً إلى كشف هذه الأسئلة ، ولا يسعنى أن أقطع بما يمكن أن يخرج أو يُسْتَخرَجَ من نتائجَ غاليةٍ أخرى من هذه النصوص التي عبّر بها القرآن الكريم عن هذه القصة . وإليك ما تَوَصَّلْتُ منها بعدُ ، والأمر بيد الله سبحانه وتعالى.

خذ المصحف الشريف واقرأه ، أو ترجمة معانيه إن لم تكن تحسن العربية ، تَجِدْ أول ما تجد في قصة أصحاب الكهف أن القرآن لم يقتصر على تعبير واحد وإنما اختار تعبيرين مفردين : مجملٍ ومفصلٍ يوضحان هذه القصة : (إذْ أوَىٰ الفِتْيَةُ إلىٰ الكَهْفِ فَقَالُوْا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءُ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الكَهْفِ سِنِيْنَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ اَىُّ الحِزْبَيْنِ اَحْصىٰ لِمَا لَبِثُوْا أمَداً) .

وهذا هو التعبير الأول عن القصة وسمَّيْتُه بـ «التعبير المجمل» . وكأنَّ هذا التعبير يتضمن أربع فقراتٍ أو أربع آيات ثم تَنَاول

التعبير المفصل بقوله: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) . وهذا التعبير لَخول يغطي بشكل عام صفحة ونصفها من المصحف ذي القطع الصغير .

الحكمة في تقديم الإجمال على التفصيل

ولا يخفى على العارف أن الاختصار والإيجاز من أبرز ما يمتاز به القرآن الكريم ؛ ولكن الأمر الجديد الذي نلمسه في هذه القصة أنه بدأ بتعبير مجمل ثم ذكرها بتعبير أكثر تفصيلاً و بسطةً . وقبل الخوض في التعبيرين المجمل والمفصل ، يجب أن نتأمل: ما السبب و الحكمة في إيراد قصةٍ واحدةٍ بتعبيرين : مجمل ومفصل ؟ ولا يدرك هذه الحكمةَ حقًّا إلاّ الذي نَزَّلَ القرآن الكريم ، وإليك ما توصل إليه هذا العبد الوضيع .

إن التعبير المفصل بقوله : (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوْكُمْ أَوْ يُعِيْدُوْكُمْ فِيْ مِلَّتِهِمْ) يدل على أن بلاءهم الإيماني بلغ ما يبذلون فيه أنفسهم أو يرتدون عن دينهم . وكأنها النقطة النهائية التي يمكن أن يرتقي إليها البلاء الإيماني العظيم . وهذا الشطر إنما يُوْجَدُ في التعبير المفصل ، وأما التعبير المجمل فلا يزيد على أن فتيةً أَوَوْا إلى الكهف ، ولكن ما الذي حملهم على هذا الأُوِيِّ واللجوء؟ نجد التعبير المجمل لم يتعرض له . وإنما يدلّ سياق الآيات وفحواها على أنها قصة بلاء إيماني ؛ فإنه جاء عقب التساؤل الذي يثيره خبيعيًا في القلوب ما يشاهد المرءُ من آثار عقيدة الولدية.

وذلك أن ما يجرّه هذه الآثار من الآفات والمصائب المتتالية

على العالم ، وصف القرآن الكريم الحياة ذات الإيمان والعمل الصالح بأنها وقاية من كل ذلك . ولكن من العسير جدًا الإبقاء على الإيمان والحفاظ عليه في هذا الجوّ الذي يخلقه هذه الآثار . فرد القرآن الكريم على ذلك قائلاً : لِمَ تعجبون من النجاح في الحفاظ على حياة الإيمان والعمل الصالح في مثل هذه الأوضاع ؟ فقد خلت من قبلها المَثُلاَتُ، والسعداء الموفقون حافظوا على إيمانهم .

وعلى كل فإن سياق الآيات وسباقها ، وإن دل على أنهم أَوَوْا إلى الكهف من جراء بلاءٍ إيماني حَملهم على ذلك إلا أن التعبير المجمل عن القصة لم يصرح بهذا الدافع الذي دفعهم إلى أن يقوموا بما قاموا .

ولا أرى إلا أنّ لكل شيء في العالم - كما هو الغالب - حدين : بداية ونهاية . وكذلك نشاهد أن البلاء الإيماني تنتهي إلى أن يضحي المرء بنفسه أو يرضى بالارتداد عن دينه . ويبدأ هذا البلاء الإيماني بحدوث جو تسيطر فيه الضلالات على غالب الناس و إن لم يَخَفِ المرء فيه على نفسه وماله ، وإن لم يكرهه أحدٌ على الارتداد عن دينه إلا أن القيام بالدين والإيمان وما يتطلبانه ، بدون اعتزال المجتمعات العامة والجو الجماعي يبدو متعذرًا أو مقيدًا مسلسلاً بأنواع من المتاعب الشاقة الفادحة على الأقل .

فالظاهر أن التعبير المفصل لاحظ ما يعاني منه المرأ من المشاكل والمتاعب عندما يبلغ البلاء الإيماني حدَّه النهائي . وأما

التعبير المجمل فإنما يشير إلى ما ينجو به المرء من الصعوبات التي تعتري مرحلة البلاء الإيماني الابتدائية .

ما يشتمل عليه التعبير المجمل

وهَلُمَّ بنا نَجْعَلْ هذه النقطة نصبَ أعيننا ، ونتأمل فيما يشتمل عليه التعبير المجمل ، وما يدل عليه من نتائج وعواقب .

ولا يخفى أن أول ما يدل عليه هذا التعبير : أن الذين بُلُوْا بلاءً إيمانيًا ألزموا أنفسهم باعتزال المجتمع العام في منطقتهم ، وبالتالي أووا إلى الكهف أي أنهم اختاروا لحياتهم مكانًا رأوه منجاةً لهم من موجات ذلك المجتمع الكافر اللا إيماني واللا أدري المشكِّك . والحق أن فكرة اعتزال الناس ، والانصراف عنهم في هذه الأوضاع القاسية التي تحيط بالبلاء الإيماني لا تحمل بدورها أهميةً؛ فإن أول ما يحدّث به النفس فيها إنما هو كما قال الشاعر الأردي ما معناه :

لنغادِرْ هذا المكان ، ونَعِشْ في مكان ليس به أحد

ليس به جليس ولا من يفقه ما نقول

إلا أن روعة هذه الفكرة الشاعرية تدوم ما دامت الفكرة فكرةً ، والخيالُ خيالاً ، وأما إذا تجاوز المرء الحدود الخيالية إلى حدود العمل والواقع ، فإنه يشعر بأن هذه الفكرة ليست أمراً هيّنًا بسيطاً مثلَ ما أشاد بها الشعراء .

وذلك لأن الإنسان خُلِقَ ميَّالاً إلى المؤانسة ، فلا يدوم خويلاً حيث يفقد من يأنس به ، ويوافق ومزاجَه. ولا يخفى أن الإنسان خبع على المدنية ، وذلك يعني أنه لا يستطيع العيش بدون من

يجانسه ويوافقه .

والأهم من ذلك كله أن الإنسان إذا ما اعتزل الحياة الاجتماعية انسدت أمامه سبل العيش وموارده ، رغم أن الناس جميعًا في حاجةٍ ماسةٍ شديدةٍ ، ولو إلى النزر القليل من الرزق ما يمسكون به رمقهم ، و يقيمون به ظهرهم . فهذا مالا يستغني عنه من خُلِقَ في الدنيا بصفته آدميًا لا ملكاً من الملائكة .

والأمر الثالث المجرب في هذا الصدد ما يشهده الحياة البدوية وما نص عليه القرآن الكريم في صدد الحديث عن هذه الحياة ، من أن العقل يتدهور إلى ما عبر عنه القرآن بقوله : (وَأَجْدَرُ أنْ لاَ يَعْلَمُوْا حُدُوْدَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ)[١]

ونِعْمَ ما قال الشاعر الفارسي ما معناه :

إن البداوة تحمِّق المرأَ

وتزري بعقله وتسفِّه حلمه

إن اعتزال جو المدنية والحضارة إذا كانت خير وقاية من سمومها ومفاعيلها الضارة في جانب فإنه في جانب آخر يعكس حياة تسبب الغباوة ، وتُكِلّ الذهن ، وتُظلِم العقلَ .

ضَعْ كل ذلك نُصْبَ عينيك وتأمل في آيات التعبير المجمل عن قصة أصحاب الكهف تَجِدْ – أول ما تجد – أن القرآن الكريم يخبر عن الذين أخذوا أنفسهم باللجوء إلى الكهف بأنهم كانوا فتيةً أي جماعةً من الشباب لا أنه قصة شخصٍ واحدٍ.[٢]

---

[١] سورة التوبة / ٩٧ .

[٢] وانطلاقًا من الزعم القائل بأن الإنسان إذا شاب على شيء صعب عليه مفارقته ،

ولك أن تستنتج منه أن المرء إذا عاد يشعر في البلاء الإيماني بأنه لا يستطيع أن يحقّق متطلبات الحياة ذات الإيمان و العمل الصالح في جوّ من الحضارة والمدنية بشكل عام شامل ، واضطُرَّ إلى أن ينقطع عنه ، ويقضي حياتَه في مكانٍ بعيدٍ عن مثل هذا الجو الشيطاني الخبيث ، لينجو بنفسه ، وبإيمانه فإن القرآن الكريم يرشدنا إلى أن نُعِدّ لهذه الحياة الكهفية رفاقًا ، وأصحابًا يونس بعضهم بعضًا ، ويساعد ويواسي بعضهم بعضًا .

والأمر الآخر الذي يؤخذ من هذه القصة أن أصحاب الكهف هولاء إذ أقدموا على هذه الحياة رأوا أنَّهم قد عادوا إلى من يُرَبِّيهم ، ويخلقهم حقًا ، وقد قطعوا كلّ صلتهم عمن عداه و: (فَقَالُوْا : رَبَّنَا) أي أنهم قطعوا صلتهم قطعةً واحدةً عن جميع مظاهر الربوبية الكاذبة ليرتبطوا في الحياة الجديدة بربهم الحق ، ويتشبثوا بأذياله ؛ فكانوا يعتزلون الكونَ ذا الأسباب العامة ؛ ولكن الذي خُلِقَ مُحْوَجًا إلى الأسباب أنَّى له العيش والبقاء غنيًا عن الأسباب ؛ فتراهم إذ انصرفوا عن الأسباب الظاهرة قد تمسكوا بكل قوة بمسبب الأسباب وخالقها ، فكان أكبر ما

أثارَ البعض هنا نقطةً تقول : إنه يجب أن يتحاشى المرء استصحاب المسنين للحياة الكهفية . وأما أنا فأرى أن المسنين إذا لم يرغبوا في هذا ، فلا عليهم، وأما إذا رغبوا فيه ورضوا به ، فلا يليق مفارقتهم . وأما أن القرآن الكريم وصفهم بـ «فتية» فإنما يرجع إلى أنهم كانوا فتيةً وشبابًا . فإذا عبر عنهم القرآن عن واقع حالهم ، وأنهم كانوا شبابًا وأحداثًا فما عسى أن يعبر عنهم بدونه يا ترى !!

وعلى كل فهذا – فيما أرى – تعبير عن واقع أمرهم ، ولا حاجة بنا إلى إثارة نقطة دون جدوي .

يسترعي الأنظار ويجلب الاهتمام عقب هذه النتائج الاحتياجية العامة – الفقرتان مما يشمله سؤالهم ودعاؤهم ، وأولهما : (رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) و ثانيهما : (وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَدًا) .

و «الرشد» كلمة عربية خالما استعملها القرآن الكريم وخاصةً في إزاء «الغي» . فالقرآن – من خلال استعماله لهذه الكلمة – يرشدنا إلى أنه يرجع إلى القوة الفكرية والنظرية التي يتمتع بها الإنسان . فإذا ما توصلت هذه القوة الفكرية ، والنظرية إلى النتيجة الخلخئة سمي «غيًا» ، وإذا ما توصلت إلىالحقيقة والواقع سمي «رشدًا» .

فأريد أن أقول : إن الفقرة الثانية من الدعاء حيث إنها ترجع إلى المشاعر الداخلية والميول المعنوية، فإنها تعني أن ما وُفِّقُوا له من المسلك الإيماني ضد الاتجاهات القذرة الخبيثة التي سادت المجتمعَ مما عبر عنه في هذا الدعاء بـ «أمْرِنَا» ، كانوا يرجون من الله تعالى في خصوص هذا المسلك الإيماني أن يُنِيْرَ قواهم الفكرية ، والنظرية بـ«الرشد» بعيدًا بها عن الغي والضلال أي كانوا يتوخون أن لا يخطوا خطوةً في سبيل الرقي الإيماني والسلوك البلخني إلا ويَحدُوْهُم ويقودهم هذا النور المعنوي من الرشد .

وبالنظر إلى هذا البيان يتعين ويتبين معنى كلمة «رحمةً» مما تشمله الفقرة الأولى من دعائهم ، ومسألتهم ، أي أن الرحمة وخاصةً رحمة رب السمٰوات والأرض تسع كلَ شيءٍ فيما ينص عليه القرآن الكريم بقوله : (وَرَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)[1]

[1] سورة الأعراف / ١٥٦ .

وحيث ذكرت كلمة «رحمةً» هنا بإزاء الرشد الذي هو صفة معنوية داخلية كانت قرينة دالة على أنهم كانوا يسألون - بجانب الحاجات المعنوية الداخلية - رحمةَ رب العالمين في شأن الحاجات التي يجوز أن نعبر عنها بالحاجات الظاهرة، ولوازم المعاش ومتطلباته .

والحاصل أن المرء إذا ما اعتزل الحياة الاجتماعية فإنه من الطبيعي - كما قلت - أن يهمه أمران همًا كبيرًا وهما : حاجات العيش ومتطلباته، والخوف من تدهور القوىٰ الفكرية والنظرية . وإن دعاءهم هذا ، ولا أقل فيما أرى - يشمل طلب التائيد والعون الإلهي من الغيب على قضاء هاتين الحاجتين البالغتين من الأهمية كل مبلغ .

ثم أرى بعد ذلك أن الرشد الذي تشمله الفقرة الثانية من الدعاء الذي دعوه ، وإن لم أقطع بما هيأ الله تعالى من الأسباب في الحياة الكهفية تحقيقًا لأمنيتهم هذه ، فإنه كما يدل على أن هذه الفئة الإيمانية كانت تواصي بعضها بعضًا بالحق وبالصبر اللازم ، وتحافظ على إيمانها ، كذلك لا عجب من أن تتهيأ لهم فرصة التلقي والاستفادة في حياة الاعتزال والانصراف هذه من توجيهات من سبقهم من أهل الإيمان و سالكي سبله ، ونصحهم عن طريق تراثهم المكتوب ، وبتعبير آخر كانوا يحملون معهم صحفًا ومخطوطات من صحائف الأنبياء قبلهم ، وما كتبه أتباعهم مما كان يستضيء به بصيرة أصحاب الكهف الرشدية ، فلا معنى لرفضه وإنكاره فيما يبدو .

وأَضِفْ إلى ذلك أن ما أضيف إليه أصحاب الكهف - بجانب الكهف - من الرقيم فإن عامة كتب التفاسير وإن نسبت إلى ابن عباس[١] قوله : «لا أدري ما الرقيم ؟ فإنها هي الأخرى تصرح بقوله الذي حكاه في الدر المنثور عن ابن المنذر[٢] وابن أبي حاتم[٣] من طريق علي[٤] عن ابن عباس قال : الرقيم : الكتاب»[٥].

وعلي : هو علي بن أبي طلحة الهاشمي ، والذين يدركون مكانة علي هذا فيما يرويه عن ابن عباس في التفسير[٦] لا

[١] ابن عباس (٣ ق هـ - ٦٨هـ = ٦١٩-٦٨٧م) : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ، ولد بمكة، ولازم رسول الله ﷺ ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة ، ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، ويجمع مجلسه بين الحلال والحرام ، والعربية ، والشعر ، والأنساب ، كان آيةً في الحفظ، سكن الطائف وبها توفي . (سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٣١/٣ ، و الأعلام للزركلي ٩٥/٤)

[٢] ابن المنذر (٢٤٢-٣١٩هـ = ٨٥٦-٩٣١م) : محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري . فقيه مجتهد ، من الحفاظ كان شيخ الحرم بمكة ، صاحب الكتب التي لم يصنف مثلها ، منها : المبسوط في الفقه والإشراف على مذاهب العلم ، توفى بمكة . (سير الأعلام ٤٩٠/١٤؛ الأعلام ٢٩٥/٥)

[٣] ابن أبي حاتم (٢٤٠-٣٢٧هـ = ٨٥٤-٩٣٨م) عبد الرحمن بن محمد أبو حاتم الرازي ، أبو محمد ، حافظ الحديث ، له التصانيف منها : «الجرح والتعديل» و«علل الحديث» . (سير أعلام النبلاء ٢٦٣/١٣ ؛ والأعلام ٣٢٤/٣) .

[٤] على (٠٠٠-١٤٣هـ) على بن أبي طلحة الهاشمي ، سالم مولى بني العباس ، سكن الحمص ، أرسل عن ابن عباس، ولم يَرَه، من السادسة ، صدوق قد يخطيء . (تهذيب التهذيب ص ٢٤٦ ، ط باكستان).

[٥] الدر المنثور ٢١١/٤ .

[٦] وَاعتَبِرْ ذلك بأن الإمام أحمد بن حنبل كان يقول : بمصر صحيفة في التفسير رواها على بن أبي طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا . (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٤١/٢ ط : مكتبة إشاعة العلوم بدهلي الهند) .

يعجزون عن إدراك مدى قوة تفسير كلمة «الرقيم» بالكتاب .

وعلى كل فقصدى أنه إذا كان يلزمنا أن نحدد المراد من «الرقيم» فإن اللغة هي الأخرى تدل على أن الكتاب والمكتوب يطلق عليه «الرقيم» ، كما أن أوثق أقوال الصحابة يقضي بأن المراد من «الرقيم»: الكتاب ، فَلِمَ لا نستوحي منه أن ما سألوا الله تعالى من توفير نور من الرشد فيما يتعلق بالفقرة الثانية من دعائهم قد استجاب الله هذه المسألة والدعاء حيث وَفَّر لهم «الرقيم» .

وخلاصة القول أن هاتين الحاجتين الهامتين في الحياة الكهفية أي التسهيلات المعاشية قد وَفَّرها الله تعالى لهم من لدنه . وكذلك دوام النور الداخلي ، وازدياده ورقيّه قد فَوَّضوا تحقيق هاتين الحاجتين إلى ربهم ليدخلوا في الحياة الكهفية .

ثم نجد فقرتين أخريَيْن يتضمنهما التعبير المجمل عن القصة أولهما : (فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا).

هذه الفقرة يدل ظاهرُها على أن الله القدير قد هيَّأ لهم هكذا ما يحافظون به على البصيرة المعنوية من «الرشد» ، و معنى ذلك أن اعتزال المجتمع الفاسد ، ومفارقته جسدًا لا يجدي كثيرًا ، ما لم يعرض المرء عن مذاكرة فساد ذلك المجتمع ، وما لم يجتنب المسامرة به ، والكذبِ واللغو من القول في ذلك .

واليوم إذ تصدر الصحف والمجلات حاملةً في خياتها النزر القليل من الحق والواقع ، بجانب الرصيد الهائل من الكذب والمفتريات ؛ فيطلع قارئها على ما يعنيه من الشؤون وعلى حوادث

وعلى هذه الطريق اعتمد البخاري في رواية أقوال ابن عباس في التفسير .

قد تهمّ قراءها فيما يخص مصالح أمتهم وديارهم ، وإن لم تخص المرء بعينه ، ولو لم يسع المرء المشاركة الفعالة في تغيير مجرى الأحداث والنوائب ورغم ذلك يعتبر أن العلم بتلك الوقائع ، والأحداث خير من أن يجهلها المرء .

ثم الحق أن الكثرة الكاثرة من قراء الصحف والجرائد والمتفرجين على الراديو وما يقرؤون أو يستمعون ثم ما يلتقي بعضهم ببعض ، وما يتبادلون من الآراء والأحاديث في ذلك ثم ما يترك الأحداث أو الأخبار السارة في القلوب من المفعول الطيب والأخبار المحزِنة من المفعول السيء إذا تأملنا في ذلك وجدنا جزءًا كبيرًا غاليًا من بين أربع وعشرين ساعة يذهب سدىً كل يوم من حياتنا ، ويضيع ضياعًا لا نرجو منه نفعًا أو عائدًا في هذه الحياة الدنيا ، ولا نلقى عليه أجرًا في الحياة التي تعقب الموت .

ثم تأمّل في تلك الأيام التي كانت تعوزها الجرائد والصحف فكان كل لسان نلخق يمثل صفحةً من صحيفة ، والعقول التي تختلق الأراجيف أصبحت بمثابة المطابع ، فينفث من شاء ما شاء ، ويشيعه ، فيتناقلون تلك الأراجيف والأخبار الزائفة حتى تصل من أدنى الأرض إلى أقصاها ، فكل آتٍ من بعض الجهات يهمس في آذان من ورد عليهم ما يهمس . ومن العسير جدًا أن نقدِّر تلك الأوقات الغالية من حياة الإنسان مما يقتله الشيطان ، ويضيعه بهذا الأسلوب الخادع . ودَعْ عنك ضياع الوقت وذهابه ؛ إذ هي صفة سلبية ، وتأمل في ذلك السيل العارم من الوساوس ، والأوهام ، والأراجيف وما تجره من الظلمات ، والأقذار ، مما لايعلم مداه إلا

الله تعالى . أرأيت الفلسفة ، والحكمة والشعر ، والخطابة و أمثالها لا تحصى ولاتعدّ ، أشدِدْ وأفَظِعْ بتلك الأسماء المخيفة التي حاولت وتحاول بثَّ الذعر والخوف في قلب الإنسان وعقليته ، عن خريق هذه الأهواء الإبليسية .

ولِيَقُلْ من شاء ما شاء ، وأما أنا فتجربتي تدلني على أن الاستفادة من النور اللاهوتي المتمثل في الرشد والهداية لَعسيرةٌ على الذين فتحوا قلوبهم لموجات الظلمات تنفذ فيها ، ولَخلقوا عنانها، تعبث بها كيف شاءت . أجل ! تلك الظلمات التي تجرها عقول المجتمع الفاسد ، وقلوبه وتفعل في الجوّ فعلها .

وأيًا ما كان فإن الآية السابقة وهي : (فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِيْنَ عَدَدًا) يتبادر منها ذهني إلى أن ما خلبوه من الله تعالى من نور الرشد فحالفهم التائيد والتوفيق من الله تعالى لذلك ثُمَّ إنه تم – كذلك – قطع صلة أسماعهم مع ذلك الجو الآسن الفاسد الذي خلقه المجتمع في ديارهم ، وفروا منه إلى الكهف ، فانقطعوا كليًا عما حدث ، ومضى في ذلك المجتمع ، وما نشأ فيه من أفكار و رؤىً فاسدةٍ قذرةٍ فكانوا فرحين بما هُيِّيءَ لهم بإزاء ذلك – ما يحافظ على رشدهم ويزيدهم رشدًا .

وذلك – فيما أرى – يقرِّب إلينا – كثيرًا – معنى هذه الآية التي أنهى بها القرآن الكريم التعبير المجمل عن القصة وهي قوله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ[1] أيُّ الحِزْبَيْن أحْصىٰ لِمَا لَبِثُوْا أمَدًا) .

---

(١) وهذا أسلوب قرآني خاصّ ، كثيرًا ما يرد فيه . ومن الزعم البلخل أن يقال : أ ليس الله يعلم الأمر قبل أن يقع ؛ فإن قوله: لِنَعْلَمَ لايمكن أن يستدل به على أن الله تعالى كان

ولم يبق إلا كلمةٌ واحدةٌ ، وهي «أحصى» ، ما المراد منها ؟ لو حددنا ذلك لم يَخْفَ علينا معنى ذلك ، وهذه الكلمة مأخوذة من «حصى» ، ومعناه في الأصل : العدُّو الحسبان، وحملها على هذا المعنى عامة المترجمين إلا أن هذه الكلمة نفسها وردت بصيغة الماضي في حديث شهير يتحدث عن أسماء الله الحسنى[1] وقال ابن الأثير[2] في النهاية في شرح هذه الكلمة : لَخاق قيام حقها ، ولَخاق العمل بمقتضاها .

وأورد الراغب[3] في المفردات[4] النص القرآني : (لَنْ

على غير علم به . وما هذا إلا من إفراز عقليتك . إنك تستخرج منه المفهوم المخالف ، وتنسب إلى القرآن ما هو منه برآء .

والحق أن المرأ قد يعلم أمرًا من الأمور إلا أن غيره لا يدري علمه به ، فيخلخبه بـ «أنا أعلم أنك أعطيت كذا كذا» . وذلك يخبر بعلمه بذلك . فالغرض عندئذ أن يخبر غيره بأنه عالم به ، لا أنه علم به حينئذ . وهذا ما يرمي إليه هذا الأسلوب . ولا تخلو اللغات الأخرى من مثل هذه التعبيرات والأساليب .

(١) الحديث رواه البخاري في التوحيد ، باب أن لله مائة اسم إلا واحدًا (٧٣٩٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعًا وتسعين اسمًا إلا واحدًا ، مَن أحصاها دخل الجنة». (فتح الباري ٣٧٧/١٣ ط : السلفية)

(٢) ابن الأثير (٥٤٤–٦٠٦هـ = ١١٤٩–١٢١٠م) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد فقيه أقام بالموصل ، وتوفي بها، كان عالماً بالقرآن والحديث والنحو ، وله فيها مصنفات ألّفها، وهو مفلوج . له : «النهاية في غريب الحديث والأثر»، و «جامع الأصول لأحاديث الرسول» . (المنجد في الأعلام ص ٨)

(٣) الراغب (٠٠٠–٥٠٢هـ = ٠٠٠–١١٠٨م) الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني المعروف بـ الراغب: أديب من العلماء والحكماء ، اشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي ، من كتبه : «محاضرات الأدباء» و «جامع التفاسير» و «المفردات في غريب القرآن». (الزركلي ٢٥٥/٢)

(٤) المفردات ص ١٢٠ ط: الميمنية ، مصر .

تُحْصُوهُ)[1] وشرحه برواية : «استقيموا»[2]، و حاول تقريب معنى الإحصاء من خلال حديث : «نفس تنجيها خير من أمارة لا تحصيها».[3]

وإذا وضعنا أقوال المحققين وشهاداتهم نُصبَ أعيننا ، وفسرّنا هذه الآية من سورة الكهف بأن المراد أن المدة التي استغرقها تلك الفترة ، وما كانت تحمله من قدَر وقيمة ، أي الفريقين أدرك ذلك حقًا، أي هل الذين أعرضوا عن المجتمع العام في ديارهم وأووا إلى الكهف كانوا موفَّقِين للوصول إلى القيمة الصادقة لزمنهم أم الذين خالطوا المجتمع الفاسد القذر هم الذين كانوا ادخروا عليهم زمنَهم، وحافظوا عليه من الضياع؟! .

ولا يخفى أنه لم يحقق النجاح حقًا إلا الذين اعتزلوا ذلك المجتمع الفاسد ، وما كان يحدث في جوّه القذر من أحداث و وقائع وما ينشأ فيه من أفكار وآراءٍ ، وسَدُّوا له آذانهم وقضوا مدة الحياة الكهفية في نور من الرشد . ولو لم نفسر الآية بما فسرنا به فالتساؤل عن مدة الحياة الكهفية من ناحية التقويم – هنا – هل يبقى له أهمية

(1) سورة المزمل / ٢٠ .

(2) الحديث رواه أحمد في المسند (٢٧٧/٥ ط : الميمنية) والدارمي في السنن (١١٠/١ كتاب الطهارة باب ما جاء في الطهور برقم ٦٥٥ ط : دارالكتب العلمية بيروت) وابن ماجة (في الطهارة وسننها ، باب المحافظة على الوضوء ١٠١/١ ط : دار الكتب العلمية بيروت) كلهم عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استقيموا ، ولن تحصوا ، و اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» .

(3) الحديث أورده الراغب في المفردات ص ١٢٠ دون أن يعزوه إلى مصدر حديثي ، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه ١١٩/١٩ ، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ .

حيث جعله القرآن الكريم النتيجة النهائية لحياتهم الكهفية .

وعلى كلٍ فالآيات التي تخص التعْبير المجمل عن قصة أصحاب الكهف لا تدل إلا على أن المرء إذا ما أصبح يشعر بأنه قد عجِزَ عن التغلب على الأوضاع المتردية أو مواجهتها فإن السبيل إلى الحفاظ على الحياة ذات الإيمان والعمل الصالح يكمن في اللجوء إلى الحياة الكهفية . ثم ما يساور المرءخبيعيًا في هذه الحياة الكهفية – بجنب المشاكل المعاشية – من مخاوف من الشلل الفكري والتعطل العقلي ، قد أرشدت الآيات المرء إلى أن يدعو الله تعالى أن يأمنه من هذين الخطرين .

وهذا التوجيه هو الذي تشير إليه بعض الأحاديث التي ورد فيها : «إن بين أيديكم فتنًا كقطع الليل المظلم ... القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي . قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : كونوا أحلاَسَ بيوتكم.[1]

وهذا ما يفيده الحديث الشهير الذي رواه البخاري[2] في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه.[3]

(1) الحديث رواه أبو داود في الفتن باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦٢) ٤٥٩/٤ ، وأحمد في المسند ٤٠٨/٤ من حديث أبي موسى .

(2) البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ = ٨١٠-٨٧٠م) : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، أبو عبد الله ، حبر الإسلام، وحافظ الحديث ، ولد في بخارى ، ونشأ يتيمًا، وقام برحلةٍخويلةٍ ، له الجامع الصحيح المعروف بـ «صحيح البخاري» ، و«التأريخ» ، و «الأدب المفرد» ، (الأعلام للزركلي ٣٤/٦) .

(3) الحديث رواه البخاري في الإيمان باب من الدين الفرار من الفتن (١٩) ٦٩/١ من

فهذا إخبار عما سيتعرض له المسلمون في الزمن القابل من الفتن كما أن النبوة الكبرىٰ العامة كانت تمر بالحياة المكية بما حكاه القرآن الكريم قائلاً : (إِنَّ الَّذِيْنَ أَجْرَمُوْا كَانُوْا مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا يَضْحَكُوْنَ و إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُون وَإِذَا انْقَلَبُوْا إِلى اَهلِهِمْ انْقَلَبُوْا فَكِهِيْنَ وَ إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوْا : اِنَّ هٰـؤلآءِ لَضالُّوْنَ)[1]

فكان أصحاب رسول الله ﷺ يعيشون أمثال هذه الفتن والأحداث ، ولم يكن يومئذ للمسلمين مسجد من حجر وآجر ، وإنما كانت جميع مشاعر الاحترام والتقدير ، ترجع إلىالشخصية المباركة أي الرسول ﷺ ؛ فقد أُلقِيَ عليه وهو يسجد سَلىٰ الجزور على مرأى من أصحابه أبناء الإسلام الغض الطري . وهذا ابن مسعود رضي الله عنه[2] يروي عنه البخاري ما حكاه من وضع رسول الله ﷺ ؛ حيث قال : وأنا أنظر ، لا أغني شيئًا ، لو كانت لي منعة.[3]

ما يحويه التعبير المجمل بصفة عامة

والحاصل أن التعبير المجمل إنما يدلّ على إمكانية المحافظة على

حديث أبي سعيد الخدري .

(١) سورة المطففين / ٢٩–٣٢ .

(٢) ابن مسعود (٠٠–٣٢هـ = ٠٠٠–٦٥٣م) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، أبو عبد الرحمن صحابي من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقربًا من رسول الله ﷺ ، وهو من أهل مكة ، أول من جهر بقراءة القرآن بمكة ، خادم رسول الله ﷺ وصاحب سرّه، ورفيقه في حلّه وترحاله ، وغزواته . (الإصابة لابن حَجر ٣٦٨/٢ وما بعد ؛ والأعلام ١٣٧/٤)

(٣) رواه البخاري في الوضوء باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (٢٤٠) ٣٤٩/١ .

الحياة الإيمانية في جميع الأوضاع والمواقف إن صدقت النيات . ولكن – كما قلت – قصة أصحاب الكهف يرجع فيما أرى إلى البشرىٰ التي تؤكد على أن الأجر الحسن أو النتائج والثمرات التي تعقبها الحياة المليئة بالإيمان والعمل الصالح ينتفع بها أهل الإيمان كل حين من الدهر ، أي أن هذا هو الذي يدل عليه النص القرآني: (مَاكِثِيْنَ فِيْهِ أَبَدًا) .

والنص القرآني الذي أعتبره تعبيرًا مفصلاً عن قصة أصحاب الكهف لو تأمّلنا فيه ، وجدنا أنه كَمَثَلٍ تاريخيّ يؤكد على صحة هذا الادّعاء . فدل على أن الإيمان بالرب أو المربي مما هو فعل اختياري من الإنسان يُشْبِهُ النورَ العامّ الذي يحيط بنا من كل جانب . ولكن إلى المرء أن يناله ويدركه من خلال استخدامه ما يتوصّل به إلى النور ، وهو القوة الباصرة . فلك أن تسخر هذه القوة على النور فتراه ، أو تغمض عنه عينيك فتحرم إدراكَ النور الذي يَتَلأْلأُ به العالم .

وكذلك شأن ربك والقوة التي خلقتك ، فإنه و إن كان يحيط بك من كل جانب ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد ، إلا أن التوصل إليه يُحْوِجُنَا إلى اتّباع الطريق الطبيعي للتوصل إلى ذات الرب وصفاته و أفعاله ، وما يرضيه و يسرّه . وذلك هو الإيمان ، والثقة بالنبوة والرسالة ، وإن حاستك الإيمانية لن تظفر بربك مالم تتَّبِعْ هذا الطريق الطبيعيّ ، والوسيلة الطبيعية المؤدية إلى ربك .

فالغرض أن التعبير المفصل عن القصة لايدل إلا على أن الفتية الذين نسميهم بأصحاب الكهف قد وُفِّقُوْا للإيمان بربهم والقوة

التي خلقتهم ، وهذا الفعل صدر عنهم ، ثم تَمثل الأجر الحسن أوالنتائج والثمرات على إيمانهم هذا متتاليًا ، وتجلت لهم عِيانًا ، وبترتيبٍ ونَسْقٍ لو اعتبرنا إيمانهم بذرةً لَبَدَا لنا أن هذه البذرة انشقت عن أوراقٍ ناعمةٍ ، وترعرعت ، وتشعبت منها أغصان تِلو أغصان ، مما يبعث على العجب والحيرة .

ويتلخص التعبير المفصل عن القصة أن الصراع الدائر بين أصحاب الكهف وقومهم اشتد وبلغ منتهاه ، الأمر الذي حكاه عنهم القرآن قائلاً : (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوْا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوْكُم اَوْ يُعِيْدُوْكُمْ فِيْ مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلَحُوْا أبَدًا) .

ويؤخذ منه أنهم كانوا يخافون الرجم إذا ما حافظوا على دينهم ، ولا يُنْجِيْهِمْ من ذلك إلا أن يرتدوا عنه فيرضوا بتدمير عاقبتهم و مصيرهم للأبد. وهكذا أدى خروج هؤلاء البؤساء على قومهم إلى وضع مؤلم أسوأ ، فكل واحد من قومهم يريد منهم إما أنفسهم أو يريد أن يحرمهم ما هو أعزّ، وأغلى لديهم من أنفسهم ، وهو إيمانهم و دينهم . لا يرضى به بديلاً . وقد كان لهؤلاء الفتية أن يتهوروا ، فيصادموا قومهم فَيُرْجَمُوْا أو يُقْتَلُوْا و ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى إلا أنهم أعرضوا عنه ، وآثروا اعتزال الجوّ المعادي السائد في قومهم (ومجتمعهم) و أووا إلى الكهف .

وهذا مما قد دل عليه التعبير المجمل عن القصة ثم يقول القرآن الكريم : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأهُمْ بِالْحَقِّ) . فقوله : (بِالْحَقِّ) أسلوب قرآني يرد في أمكنة كثيرة دالاًّ على معانٍ كثيرة . والمراد منه هنا أن القرآن الكريم لم يكن له أن يذكر هذا الخبر كقصةٍ

فحسب تُحكىٰ وتُسْمَعُ ، وإنما يتوخى من ورائها أن ينتفع بها كل واحد على قدر عقله ومداركه . ويتلوه التعبير المفصل عن القصة فبدأه بقوله : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوْا بِرَبِّهِمْ) .

إن الإيمان بالرب كان فعلاً اختياريًا صدر عن هؤلاء الفتية ، وكان لهم أن يعيشوا عيشةً ملؤها الانحراف والبعد عن ربهم ، كما كان يعيش قومهم إلا أنهم أبَوْا ذلك ، وسلكوا الطريقة الطبيعية الموصلة إلى ربهم ، وهو الإيمان ، فآمنوا به ، وعقدوا ملتهم به .

وهذا أمر كان بوسع هؤلاء الفتية ، وفِعلاً قاموا به ثم لنستمع كيف تجلى لهم الأجر الحسن على هذا الإيمان تباعًا فقال الله تعالى: (وَزِدْنَاهُمْ هُدَىً) .

ولعلك اكتنهت هذا النصَّ القرآني ، إن الفتية قاموا بما وجب عليهم من الإيمان بالله تعالى فأعقبهم الله أجرًا حسنًا متمثلاً في ثروة معنوية ، ونعمة داخلية ، أي أن هؤلاء الفتية وإن لم يظهر لهم ما يعتبره الرائي جزاءً وأجرًا على إيمانهم إلا أن الله زادهم بصيرةً ونورًا من داخلهم فما كان يفوق تصورهم أو كانوا يستحيلونه قبل الإيمان بالله ، أصبحوا يلمسونه ، ويتمتعون به ويرونه بهذا النور المعنوي الذي منحهم الله إياه ، وجدّوا في سيرهم وسلوكهم البلخني حتى بلغوا ما أخبر الله عنه في كتابه قائلاً : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوْبِهِمْ) .

والقلوب واحد «القلب» وهو عنصر من عناصر الكائن البشري ، وليس وظيفته إلا الخفقان والتقلب أي أنه يبقى خافقًا متقلبًا . وهذه هي الغابة الكثيفة المكتظة بالأسباب التي لا تقف

عند حد . وما دام هذا العنصر الخافق المضطرب من الوجود البشري ينفر ، ويصد عن رب هذا العالم فليس له إلا أن يلجأ من سبب إلى آخر ، وإلى ثالثٍ يتيه حيرانَ فِي واديه بل كلما ازداد المرء قلقًا واضطراباً وتَيَهَانًا، استحق أن ينال ثناءً و تقديرًا زائدًا، يضفيهما عليه المجالس الفاقدة الإيمان بالله تعالى .

وأما الذين توصلوا إلى القوة التي تنشئهم (وتربِّيهم) فيوفر لهم ربهم نورًا من البصيرة المعنوية جزاءً على إيمانهم وكلما ازداد هذا النور البلخني سطوعًا ، تجلىٰ لهم الحقيقة ، والربوبية الصادقة الواقعة أكثر فأكثر ، حتى يصبح هذا القلب الخافق أو العنصر المضطرب الحيران من عناصر الوجود البشري يُلقي نفسه في مثلجةٍ من الطمأنينة والسكون ، مما لايمكن وصفه وصفًا دقيقًا ، إلا أن يقال : كأن القلب قد تقطعت صلته نهائيًا عن كل شيء ليربط بالمصدر الحق للربوبية .

وإن هذه السكينة والطمأنينة يلتمسها الناس في القناطير المقنطرة من المال ودفاتر الحساب البنكي، والأرصدة الأخرى من المنقولات والعقارات . والذي يحظى بهذه النعمة البلخنة من ارتباط قلبه بربه ، يجد نفسه وداخله غنيًا بكلِ شيء وإن لم يجد في ظاهره وخارجه شيئًا وإنه – سواء سميته دماغًا أو قلبًا أو عقلاً أو علمًا – يكون بمنجاة من لعنة التقلب والتحول المستمر ، وبالتالي يتجرأ على إجراءات حاسمة لاتدور بخلد مَنْ تقطعت به الأسباب إلى الله .

وما يدل عليه التعبير المفصل الآتي في قصتهم في شأن هؤلاء

الفتية من قوله تعالى : (إِذْ قَامُوْا فَقَالُوْا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالاَرْضِ ولَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُوْنِه إلٰـهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) فإنهم رأوا بهذا النور البلخني الذي ازداد فيهم أن القوة التي تربينا هي رب السموات والأرض وما بينهما ، وإن تجلي هذه الربوبية الوحدانية قد سَوَّىٰ عليهم المعمورة والغابة ، وإن قومهم الذين حُرِمُوْا الإيمانَ ، وما ينشأ عنه من بصيرة ، لايكادون يفقهون أن ربًا واحدًا يكفي ربوبية هذا النظام الذي يكمن فيه التكاثر اللا متناهي.

إنهم استقلوا وجود خالقٍ واحدٍ يعقد مع سائر الكون علاقة العباد بربهم مما كانوا يستمدون منه فيعبدونه ، ويدعونه ، ويؤلِّهونه . وهؤلاء الفتية وجدوا بنورهم الداخلي أن ربوبية خالق الكون كافية و مُغْنية عما عداه كلّ الإغناء ، بينا كان قومهم يزيدون عليه قُوىً أخرىٰ توصلاً إلى هذه الربوبية ، وكأن الفتية في مصطلح علم المناظرة كانوا بمثابة المنكرين ، وقومهم مُدَّعُوْنَ ، ولا جدال أن البينة على المدعي، والمنكر يكفيه الرفض والإنكار[1]

وبناءً عليه حكى القرآن الكريم عن هؤلاء الفتية قولهم : (هٰـؤلآء قَوْمُنَا اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِه آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُوْنَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ) أي حجة غالبة تسيطر على العقل . وكأنه ترجمة لكلمة

[1] وإن الموحد في جميع مراحل التوحيد والشرك ومنازلهما بمثابة المنكر فمثلاً خالق الكون واحدٌ أو أكثر ؟ لايخفى أن الموحد يقول : لسنا في حاجة إلى إلٰـه آخرَ ، دون الله يخلق الكون بينما يزيد المشرك إلهًا بجنب إلٰـهٍ . فالبينة عليه . وللتوسع في الموضوع ارجع إلى كتابي : «الدين القيم» .

«سلطان» ثم قيدوه بـ «بين» أي واضحٍ . فالظاهر أن مرادهم به أن الإصرار على الأفعال الشركية مستندًا إلى القصص الكاذبة ، والتقاليد الواهية العتيقة ، والأوهام والوساوس ، أمر آخر ثم اعتبار من يعتبرها دليلاً وسلطانًا قد يكون مصطلحًا يخصه . وأما الدليل البين الظاهر الذي يسيطر على العقل ويخضعه خضوعًا لايسعه الإنكار والرفض ، فهيهات أن يأتي هذه الفئة المشركة بمثله على ما تأتيه وتَذَر . فإن الدليل الذي يعتبر سلطانًا بينًا حقًا لا يخلو من وجهين : إما أن يتركب من مقدمات تقوم على الحسّ والمعاينة ، ولا يخفى أنه لايمكننا الاستناد إلى الحس والمعاينة ، في صحة تواجد قوة دون الله تعالى تشاركه في ربوبيته .

وإما أن يقوم هذا الدليل على وحيٍ من الله تعالى ، وهو الذي نسميه بـ «المنصوصات» فالأمم المشركة لن ينفعها الوحي من الله تعالى و الإلهام منه ، إذ أن جميع العلوم التي وردت عن طريق الوحي إلى هذا الكون ليس فيه ما يدل على هذه الأعمال الشركية ، ولا يشهد بذلك .

والفقرة التي يتضمنها بيان هؤلاء الفتية فيما يأتي ، وما حكاه عنهم القرآن بقوله : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا) تشير – فيما يبدو – إلى أن المشرك لو ادّعى أن الله أمره بالشرك ، فليس ذلك إلا افتراءً ، وكذبًا على الله ، تعالى الله عن ذلك ومن أظلم ممن افترىٰ على الله كذبًا .

والحاصل أن المشركين إذ استقلوا ربوبية خالق الكون فادعوا الحاجة إلى اعتبار قوىً غير الله آلِهَةً هيهات أن يأتوا عليها دليلاً من

عقل ، كما لا يساندهم دليل من علوم الوحي والإلهام .

فهؤلاء الفتية نالوا – أول ما نالوا من الأجر على إيمانهم بربهم – أن زادهم هدايةً حتى وصلوا إلى ما يطمئن فيه قلب المرء وينجو من الاضطراب والذي يصيب العقل أو الذهن والقلب التائه. ثم إن هذا الجو من الطمأنينة والقرار شجعهم على أن قاموا، ولأي شيءٍ قاموا ؟

وقد بين القرآن الكريم السبب الذي كان يرجع إليه الصراع الدائر بين هؤلاء الفتية وقومهم فيما سبق ثم حكى عنهم قولهم : (وَإِذِاعْتَزَلْتُمُوْهُمْ وَمَا يَعْبُدُوْنَ إِلاَّ اللهَ فَأْوَوْا إِلىٰ الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ اَمْرِكُمْ مِرْفَقًا) .

وهذا يدل على أنهم إذ فارقوا قومهم – بما فيهم قرابتهم ، ومن يرجعون إليه في معالجة مشاكلهم الاقتصادية ، وفيهم أصدقاؤهم وزملاؤهم – لَقوا أجرهم على هذا الإيمان متمثلاً في روح رفيعة ، وهمة عالية ، حتى ضربوا كل ما كانوا يحتاجون إليه ويتمتعون به ، عُرْضَ الحائط وأعرضوا عن جميع الآلهة البلخلة التي استعبدت قومَهم كل الإعراض . فاستسهلوا أن يغادروا هذه التجمعات البشرية ويلجأوا إلى كهف في جبل من الجبال ليروا فيه مظاهر ربوبية خالقهم .

ونظرًا إلى هذا الاستعداد والقدرة ، اقترح بعضهم على بعض اللجوءَ إلى الكهف ، وبقوة تبعث المرء على العجب والحيرة البالغة. ولم يترددوا ولم يتلكأوا إذ كان يؤكد بعضهم لبعض على أن الرب الذي شهدوا ربوبيته ورحمته في العمران ، سيرونه يقينًا في

الكهف ؛ حيث لا يتصوره العقل الذي يضرب في متاهات الكون ذي الأسباب . وكأنهم قالوا : إنه سيتوفر لكم كل شيء حيث لاترون شيئًا من ذلك .

هذا وقد تضمن التعبير المجمل عن القصة دعاءَهم و مسألتهم، وأما هـٰـهُنا فيصف القرآن ثقتهم التي سعدوا بها بعد ما آمنوا بربهم. والحق أن هذا نوع من الأجر الحسن والبديل الصالح على إيمانهم منحهم الله إيّاه علاوةً على الأجور الأخرى. وأما المحروم الإيمان الشقي المرتاب ، فهيهات أن يجد ريح هذا اليقين والثقة والإذعان والطمأنينة . وكان دعاؤهم الذي يتضمنه التعبير المجمل عن القصة يشتمل على أمرين يرجع أحدهما فيما يبدو – كما قلت – إلى التسهيلات الاقتصادية، والثاني يتضمن خلب الحفاظ على الرشد والقدرة الفكرية العقلية ، كذلك تجد التعبير المفصل عن القصة يتناول تأكيد بعضهم لبعض على أمرين ، لا على أمرٍ واحدٍ . ولا مانع من أن يراد بهذين الأمرين ذانك الأمران اللذان أمَّلُوْهما حين دعوا ربهم .

وعلى كل فإن الأجر ، والبديل على إيمان أصحاب الكهف ظل يعطي أُكُلَه ، ويقوِّي عضدهم و يمنعهم . واستنادًا إلى ذلك فارقوا موخنهم العزيز ، وكما ينص القرآن الكريم المدينةَ والبلدة التي توفر «أزكى خعامًا» لمن أراده . وإن صح القول بأنها مدينة «أفسس»[1] الشهيرة التي اتخذته حكومة «أيونيا» القديمة[2] عاصمةً

(١) أفس (Ephese) مدينة قديمة في آسيا الصغرى على بحر «إيجه» ، تقع أنقاضها بالقرب من سلجوق الحالية (تركيا) كانت مركزًا تجاريًا هامًّا منذ القرن ٨ ق. م. ،

لها في آسيا الصغرى.[1] فذلك يعني أنها كانت توفر جميع ما يحتاج إليه المرء في هذه الحياة ، إلا أنهم فارقوا كل ذلك إلى حيث يفقدون كل ذلك ، وعلى ثقةٍ راسخةٍ رسوخ الجبال الراسيات بأنهم لن يُحْرَمُوْا شيئًا من ذلك هناك ، بما فيه قوام النظام الجسدي وعماده ، وما يحوّل فقدانه الحياة البشرية الروحانية موتًا أحمر . وهذا اليقين كان من معطيات إيمانهم في داخلهم . وأما خارجهم فانظر إلى ما يقول القرآن الكريم : (وَتَرَىٰ الشَّمْسَ إذَا

اشتهرت بعبادة الإلـٰه «أرخاميس» (Arthemis) بشرها الرسل بالمسيحية (المنجد في الأعلام ص ٥٤).

(٢) أيونيا (Ionie) : قديمًا منطقة تقع على ساحل تركيا الآسيوية الغربي ، وتمتد بين «أزمير» و «منديليا» . المنجد ص ١٠٤)

(١) تذكر عامة الكتب الإسلامية وغير الإسلامية مكان أصحاب الكهف : «أفسس» أو «أفيسوس» . ويقول الـ «بليكي» (Blackie) في كتابه (A Manual of Bible) إن المدينة كانت عاصمة حكومة أيونيا ، عُرِفَتْ كثيرًا بمعبد الإلـٰه «أرخاميس»، وبفلسفتها وفواحشها . ويضيف : و يسكنها بعض الأوريين من اليونان ، وبعض الفئات من الأمم الشرقية . فكانت الوثنية بها تجمع التقاليد الوثنية الشرقية والغربية إلى الإلـٰه «أرخاميس» (Arthemis) إلـٰه الأمم الوثنية الأوربية . ومعبدها بمدينة أفسس . ويقال : إنه تمّ بناؤه في مأتي عام . ويقوم سقفه على ١٢٦٧ عمودًا من حجر . وكل عمود منها أهداه ملك من الملوك إلى هذا المعبد ، وخول كل منها ستون قدمًا . وأما تمثال الإلـٰه «أرخاميس» فمُتَّخذٌ من خشب ، يعتقدونه نازلاً من السماء . وتطفح الأسواق بتماثيلها الفضية، تباع وتشترى ، ويحملها الزّوار إلى بلادهم يهدونها إلى أهليهم وإلى ذويهم . وقد توسع نطاق الفلسفة وارتقى فيها حتى أصبحت تعرف ليومنا هذا بالفلسفة اليونانية نسبةً إلى «أيونيا» هذه . كما عرف أهلها كثيرًا بالسحرو الشعوذة ، ولم يَشُق غبارَهم أحد في الفجور واللهو والعنجهية والكبرياء ، وتقع أنقاضها اليوم على خول مصب نهر «كينسفيتر» ولا يزال يوجد قرية اسمها «جوايا» ملكٌ للمسلمين الأتراك بين هذه الأنقاض . ويقول الرازي في تفسيره : إن الناس يطلقون في عهده على «أفيسوس» : خرخوس .

خَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِيْنِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ فِيْ فَجْوَةٍ مِنْهُ) .

أرأيت الأجر الحسن الذي أعقبه الإيمانُ بالله في هذه الصحراء القاحلة التي قلما تجود على المرء بما يستظل به . ثُمّ إن النص القرآني يفيد أنهم بعد ما وصلوا إليه هَيَّأَ لهم مقيلاً صِحِّيًّا عِلميًا حَسَنًا .

هذا ، وقد يمرّ البعض مرّ الكرام بهذا النص القرآني ملخِّصا إياه في أنهم لجأوا إلى كهف لا يدخله الشمس .

ما يفارق به الكهفُ الغارَ

إن الناس يملون لِخَالة نَفَسي في البحث ، وإلا فقد كنت أود أن أشبع هذا النص القرآني بحثًا وشرحًا ، ولا عليهم – على الأقل – أن ينظروا إلى أن كلمة «الكهف» عربيةٌ ، وكذلك كلمة «الغار». فما الذي حمل القرآن الكريم على استبدال كلمة «الغار» بـ«الكهف» هنا .

والحق أن الكهف وإن كان يوجد غالبًا في الجبال كما يوجد الغار إلا أنهما يفترقان في الواقع. فـ «حراء» و «ثور» مما يذكرهما التاريخ لاشك أنهما غاران قد لا يسعان إلا نفرًا قليلاً من الناس . ومن هنا سمَّى القرآن الكريم غارَ «ثور» غَارًا . ثم إنه قد تُحْدِثُ العوامل الطبيعيةُ نوعًا من الفجوة تمتد أميالاً . فالجبال التي كانت تحتضن عاصمة ويجانكر[1] في جنوبي الهند[2] يقال أنها تحتضن

[1] بيجابور أو ويجانكر (Bijapur) مدنية في جنوبي الهند (إقليم بيجابور) تزينها القصور والمساجد والآثار . منها روضة «إبراهيم عادل شاه» ، احتلها علاء الدين

سراديب طبيعيةً لُخول تكن الآلاف المؤلفة من النفوس ، ولهم أن يمكثوا داخلها أشهرًا ، يأكلون ويطبخون . ولا تعدِمُ الجبال في البلاد الأخرى أمثال هذه الكهوف . وكذلك ذكر الأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦–١٣٦٦هـ = ١٨٦٩–١٩٤٦م) أن ببلده لبنان كهفًا يكِنّ جوفُه جيشًا .

وقد نص القرآن الكريم على أن هذا الكهف كان يشتمل على فجوة سكنها أولئك الفتية . ونظرًا إلى معاني الفجوة في اللغة يسوغ لنا أن نقول: إنهم عثروا على قاعة واسعة أو رواق اتّخذوه سكنًا لهم داخل هذا السرداب الجبلي .

والمرء يعاني في مثل هذه السراديب أكبر ما يعاني : الظلمة ، والبلل ، والبرد وما ينشأ عن ذلك من كثافة وجراثيم . ولقد أدى بهم الأجر الحسن على إيمانهم إلى أن ما يكمن فيه ضمان إزالة سائر المخاوف من تولد الضرر ألا وهو الكرة النارية من الشمس ،

الخلجي عام ١٢٩٤. أصبحت عاصمة مملكة «بيجابور» الإسلامية في عهد السلطان «عادل شاه» ، احتلها أورنك زيب عام ١٦٨٦م ألحقت بنظام حيدر آباد . وهي اليوم من أهم مدن ولاية «كرناتكا» جنوبي الهند ، على بعد ٢٠٦١ كيلو متر من دلهي عاصمة البلاد . انظر : المنجد في الأعلام ص ١٥٧ ، وكتاب Road Atlas ط : إدارة الكتب الهندية ، دهلي ، الهند .

[2] ويقول الزبيري في تاريخ «بيجا نكر» (في اللغة الفارسية) ما معناه : والحق أن مدينة بيجا نكر ، وما حولها من الجبال تحتضن فجوات وغارات تمتد أجوافها ثلاثة فراسخ (تسعة أميال) وأربعة فراسخ (اثنى عشر ميلاً) وقد يتوسع أجوافها فيدخلها الضياء ، وقد تتضايق تضايقًا شديدًا . وإليها لجأ العدد الكبير من أهل «بيجا فور» – عندما سقطت المدينة – إلى هذه السراديب الجبلية ، فلم يطلع عليهم المسلمون إلا بعد مضي أشهر . راجع : ص ١٠٧ .

يخبر عنها القرآن الكريم بأن الله تعالىٰ أقام نوعًا خاصًّا من العلاقة بينها وبين الكهف فكانت الشمس ، وأشعتها ترتبط عند طلوعها وغروبها ارتباطين مختلفين : فعند طلوعها نسبت التزاور إلىٰ الكهف نفسه، أي أن الشمس كانت تزاور وتنحرف عن كهفهم. وبما أن القرآن الكريم عدّى التزاور هنا بـ «عن» فيدل هذا الأسلوب العربي على أن الشمس وأشعتها - بعد ما ترتبط بهذا الكهف - تتجاوزه .

ولا أرى إلا أن الشمس كانت تقع على مدخل الكهف لدى طلوعها ثم تتجاوزه . فالشمس لم تكن تدوم طويلاً في كهفهم ، وإنما كانت تقضي على ما أورثته ظلمةُ الليل من البلل والبرد ، وما ينشأ عنهما ليتجاوزه . وإن شئت قلت: إن الله تعالى قد هَيَّأَ لأهل الكهف ومن فيه فرصة الانتفاع بأشعة الشمس البنفسجية العالية لدى طلوعها . وإذا حانت للغروب نجد أن القرآن لا ينسب التزاور إلى الكهف ، وإنما ينسبه إلى أصحاب الكهف ، ويذكر أن الشمس كانت تزاورهم ، ولم يُعَدِّ الفعل بـ «عن» مما يدل على أن أصحاب الكهف كانوا بمنجاة من الشمس عند غروبها . ولا يخفى سببه ؛ فإن الشمس لا تزال تمدّ الكون بالحرارة سحابة النهار ، فلا يرغب أحد في الشمس عند غروبها ، ولا هي نافعة .

وهناك نقطة هامّة لا يمكن الإغفال عنها ، وهي أن القرآن الكريم لم ينسب التزاور عند الغروب إلى الكهف ، وإنما نسبه إلى أصحاب الكهف أنفسهم ، مما يدل على أن الكهف لم يكن يفقد الشمس كليًا عند الغروب ، إلا أن الفجوة التي سكنوها لم تكن

تصل إليه الشمس . ويُوْحَى إلى أن الكهف كان ذا وجهين : وجه بالجنوب ضاربًا إلى الشرق ، ووجهٌ بالشمال ضاربًا إلى الغرب . ولولا ذلك لم يكن هناك ، من حاجة إلى التصريح بإضافة الشمس عند طلوعها وغروبها إلى الشمال والجنوب . وعليه أرى أن الكهف كان يحتضن ممرًا للهواء نافذًا . وهكذا سخّر الله تعالى الأشعة الشمسية والتيارات الهوائية على تصفية الكهف وتطهيره (Disinfection) .

ولا يدري إلا الله تعالى في أي جزء من أجزاء الأرض ، وفي أي قطاع من قطاعات المدينة كانت تقع دار هؤلاء الفتية البؤساء وماذا كان موقعها من أسباب الصحة والراحة . ثم أرأيت كيف هَيَّأَ الله تعالى لهم منزلاً صِحيًا أوفق ما يكون (High Genic) مجانًا دون أجرة يسددونها في مكان قلما يجود عليهم بما يظلهم ويمنعهم حرالرمضاء .

ثم قول الله تعالى : (ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ ، فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَه وَلِيًّا مُرْشِدًا) يدل - فيما أرى والله وحده أعلم بالصواب - على أن الذي يظفر بالله ويصل إليه من خلال هذه الآيات ويفطن لهذه الإشارات فيؤمن بربه ، فإنّه يرى أن كل ذلك من عند الله ، ويكون على يقين تام من أن آيات الله ستظهر حيث يوجد الله تعالى . كما أن أصحاب الكهف آمنوا بربهم فوجدوا الله تعالى قد هيَّأَ لهم منزلاً لائقًا يسكنونه حيث لا يرجون به ظلاً يظلُّهم ، وإنما يورث هذه النعمة اليقينُ والثقةُ أجرًا على الإيمان .

والله تعالى يثيب المؤمن على إيمانه فيفتح له أبواب الهداية ، ويهديه سبُلَه ، وأما من استغنى ونآى بجانبه عن الله تعالى وتاه في آيات الله ، فإنه يعاقَبُ على كفره . فلا يتوصل بآيات الله إلى الله، وإنما يتيه في مفازة من الآيات والأسباب لايجد فيها علامةً يهتدى بها ، ولا ناصرًا يأخذ بيده ، وإن وجد فإنه يُحْرَم من يرشده إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم . أرأيت الذين يتنكبون عن صراط الإيمان لايزالون يبتعدون عن الصراط المستقيم و يَضِلُّون عنه ، ولو درسوا مؤلفات قادة الفكر ، والنظر والفلسفة ، وأعلامهم البارزين . ولا يزال المرء يطارده هذه اللعنة ما دام يدرس آيات الله مستنكفًا عن الله ، ومعرضًا عنه تعالى .

من عجائب الأجور الإيمانية

وهذا الذي أسفلناه يتناول مظاهرَ الأجر الحسن على الإيمان وآيات الله التي لا يهتدي بها الكفرة المجرمون إلى الله تعالى ، ولكن يجوز أن يخلخبوا بها ويدعوا للنظر فيها ؛ فإن هذه الآيات والمظاهر قد يعتبرها الأشقياء من الناس حاصلة بشكل عفوي دون أمرٍ أو قصد من أحد فحصلت لهؤلاء الفتية مصادفةً . وأما ما يذكره القرآن الكريم من عجائب الأجور الإيمانية فيما بعدُ ، فإنها لا يصبر على الاستماع لها إلا من يؤمن بها .

والغرض أن أصحاب الكهف إذ دخلوا الكهف حملوا معهم بعض الورق ، وعَلَّها كانت عملةً من فضة. وهذا يدل على أنهم لم يَتَحَاشَوْا – دون جدوى – أن يحملوا معهم إلى الكهف ما وسعهم حمله مما ينفع في هذه الحياة الكهفية . وربما حملوا معهم

شيئًا مما يفرشونه ، ويلتحفون به .

وأسلفت أنه لو قلنا – كما يشير إليه القرآن الكريم – إنهم حملوا معهم شيئًا من المخطوخات والصحف المكتوبة إبقاءً على الرشد ، والقوة الفكرية والنظرية ، فإنه قول يعضده ما رُوِيَ عن ابن عباس في معنى «الرقيم» .

وإذا رجعنا إلى ما يذكره عامة الناس في شأن القصة ، فإنه يسوغ للمرء أن يطلق لسانه بما شاء له الهوىٰ ، وأما إذا رجعنا إلى النص القرآني فإن من العسير جدًا أن يستدل به المرء على أن أصحاب الكهف غلبهم النوم فور ما دخلوا الكهفَ . وإنما أرى أنهم لم يكونوا في حاجة إلى النوم الممتد الذي صرّح به القرآن الكريم ، ما دام يعينهم على العيش ما حملوه معهم ، وعلى رأسه الرخب واليابس مما يأكلون ويشربون .

وعلى كلٍ فلا يَضطرّنا شيءٌ – فيما أرى – إلى أن نعتبر أصحاب الكهف نائمين عقب دخولهم الكهف ؛ فإن الظاهر يقضي بأنه لم يحدث بهم أمر غير عادي ، ما داموا ينتفعون بما حملوه معهم ، ولم يكونوا في حاجة إلى ذلك . ولما نفد زادهم ، همَّهم كثيرًا في هذه الصحراء القاحلة ما يأكلون ويشربون . فإن مما يسعهم – وهو الذي عملوا به عندما استيقظوا – أن يبعثوا أحدهم سرًّا إلى المدينة يأتيهم بما يأكلون ويشربون ، إلا أن الأوضاع التي فرّوا فيها من براثن أعدائهم ربما لاتسمح لهم بالتوجه إلى المدينة . وفي هذه الأوضاع الحرجة العصيبة يقدِّم لهم إيمانهم صورةً من الأجر والبديل على ذلك ما لا يطيقه عقل لم

يؤمن بربه .

وقول الله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً ، وَهُمْ رُقُوْدٌ﴾ يشعر أن نوعًا من النوم غريبًا غلبهم فقد وصف هذا النوم – في جانب – بأنه يحسب من يراهم أيقاظا ، وفي جانب آخر يتحدث القرآن الكريم عن ناحية من نواحي هذا النوم قائلاً : ﴿نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِيْنِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي غلبهم نوم عَميق فقدوا معهم كليًا ما قد يتمتع به المرء في نومه من الشعور النذر اليسير أو القدرة على التقلب ذات اليمين ، وذات الشمال ، وتولى الله تقليبَهم ذات اليمين و ذات الشمال .

ولا يمكن القطع بالمدة التي استغرقها نومُهم العميق ، وأخبر القرآن في نهاية القصة بأنهم لبثوا فيه ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا. ولا يخفى أن هذه مدة لبثهم و مكثهم ، لانومهم ورقدتهم.

وعلى كل فأقل ما يدل عليه أنهم غلبهم نوم عَميق أغناهم عما يأكلون ويشربون ، ما داموا نائمين ، إلا أن المكان الذي ناموا فيه قد يثير في قلوبهم أنواعًا من المخاوف : مخاوف من الحشرات الأرضية ، ومن السباع ومن السراق وغيرهم . وقضاءً على أمثال هذه المخاوف ربما قال : إن من رآهم يحسبهم أيقاظًا ، وهم رقود ، وأضِف إلى ذلك ما يقول القرآن : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيْدِ﴾ .

فهذه الصفة من صفات الكلب اليقظان ، وكأن الناظر إليه يراه قاعدًا .

هذا ومن الأجر الحسن على إيمانهم ما حكاه القرآن ، وصوّره قائلاً : ﴿لَو لخَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ، وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. وهذا الأجر الإيماني هو الذي وصفه الرومي[1] بقوله في الفارسية ما معناه :

إنما ذلك مهابة الحق تعالى ، وليس مهابة الخلق ، ليس من مهابة ذلك الرجل صاحب الثياب الرثة البالية .

ولم يخش أحد الحق ، واتّقاه إلا خافه كل من رآه جِنًّا كَان أو إنسًا .[2]

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) وليس هذا من أسلخير الأولين نسمعه ونحكيه ، وإنما هو أمر مشاهَد ملموس بأن أولياء الله الذين تعلقت قلوبهم بربهم كل العلاقة ، وغرقوا فيها ، يبدو أنهم أغفال عن الدنيا وما فيها ، وإن شئت قلت : أنهم نائمون رقود عنها ، وأما إذا فاوضت معهم ، واستشرتهم في أمر من أمور الدنيا فضلاً عن الشؤون الدينية ، فإنهم يأتون دائمًا بما يبعث على العجب كلَّ من ينكبّ على الدنيا و فنونها وشؤونها ليلَ نهارَ . وأنا بدوري لم ألْقَ أحدًا منهم ، ولم أسعد بالحديث معه إلا ألفيتُه مصداق قوله : ﴿تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً ، وَهُمْ رُقُوْدٌ﴾ ولو سعدتَ بالحديث معهم وجدتَ خبراء كأنهم أيقاظ ، والحق أنهم نائمون رقود عن الدنيا وشؤونها وصراعاتها . ورغم أني لم أجد على أبواب هؤلاء كلابًا ، إلا أنى رُبما وجدت رجلاً من الدنيا وعبد الدينار والدرهم. وان شئت قلت كما ينص عليه الحديث الشهير : كلب من كلاب الدنيا – قد وصل حباله بحبال هؤلاء الأتقياء البررة وأخلص لهم حبَّه مما يكون لهم تقاةً يتقون بها أعداءهم ويدفعون بها شر من ناوأهم .

وهؤلاء القوم وإن صفرت أيديهم من المال ، إلا أن الناس إذا رأوا أميرًا أو حاكمًا واليًا يتصل بهم ويخلِصَ لهم ودَّه فلا يتجاسر أحد من أعدائهم أن ينبس ببنة شفة تجاههم. ولن تعجز أن تجرّب متى شئت . فتجد أصحاب الجاه و العظمة والسطوة الدنوية إذا واجهوا صاحب إيمان رابط الجأش ارتعدت فرائصهم ، يريدون القول فلا يستطيعونه ، يسود قلبهم الرعبُ والمهابةُ ، ويريدون الجلوس لديهم فتخونهم قواهم ، فيرتجفون قيامًا . أقول ذلك دون مغالاةٍ فقد سعدت – والحمد لله على ذلك – بزيارة أمثال هؤلاء الكبار

وسواء استساغت العقول الكافرة ذكرَ هذه الأجور الإيمانية أو لم تستسغه ، إلا أن ما تعرّض له القرآن الكريم بعدُ من مظاهر الأجر الإيماني مما سَعِدَ به أصحاب الكهف ، لا يعجز المرء اليوم أن يلمس ويشاهد مظاهر هذا كله بشكلٍ أو آخر عندما يشهد مجالس أهل الإيمان . ورغم أن عددهم يتقلص يومًا فيومًا إلا أن العالم لم يَخْلُ بعد من هؤلاء النفوس الطيبة التقية ، ويسيرٌ على المرء الوصول إليهم في بعض الأنحاء البعيدة من المعمورة إذا صدقت نيته ، وتأكد عزمه .

إلا أن ما أعقبه القرآن في قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من الجمل التمهيدية التي تكشف القناع عن جانب من جوانب الأجر الإيماني الذي لقيه أصحاب الكهف ، وما يتبع هذه الجمل التمهيدية ، ربما يشق على عامة الناس فهمه وإدراكه .

وذلك أن المدة التي قضاها أصحاب الكهف في كهفهم مِمَّا ينيِّف على ثلاث مائة سنين – قبل كل شيء – أمر غير عادي بالنسبة إلى الأحوال العامة . ولا شك أن امتداد حياة شخص من الأشخاص امتدادًا ينيِّف على القرون لا يبعث كثيرًا على العجب والحيرة . ألسنا نؤمن – إيمانًا لا يزعزعه شكٌ وريبةٌ – بأن الملائكة أو الشيلخين لا يزالون على قيد حياتهم الشخصية منذ عهد مجهول من التأريخ ليومنا هذا بعد ما وُلِدوا ونُفِخَ فيهم الروح . ثم لا ندري المدة التي ستستغرقها حياتهم القابلة . ودَعْ عَنْكَ هذه

العظماء الأخيار . ولا أعدو الحق لوقلت : إن زيارة هؤلاء القوم يقرب إلى المرء معنى هذه الآية من سورة الكهف ، ويشاهد في مجالسهم كيف يتأتى للمرء الحفاظُ على أجره الإيماني .

الموجودات غير المرئية ، أفليس يزعم الناس امتداد حياة أعيان مرئية مثل النسر وغيره من الحيوانات والأحياء .

غير أنه لاريب أن امتداد حياة شخصية في القالب الإنساني مثل هذا الامتداد يخالف ما نشهده ونعاينه كل يوم من حياتنا . وإننا ، وإن لم نعجب مما نسمع من أن جبرئيل ، وميكائيل ، وإسرافيل، وأمثالهم من الملائكة لم يزالوا على قيد الحياة منذ خلقوا، ويظلون أحياءَ مدةً مديدةً فيما يأتي إلا أن امتداد حياة نوح ، وعيسى عليهما السلام على خلاف ذلك ظل يثير العجب والحيرة إذ كانوا بشرًا، وربما نُؤَوِّل امتداد حياة نوح وعيسى نوعًا من التأويل العقلي.[1] غير أن مثل هذا التأويل لايجوز بالنسبة إلى فتية الكهف هؤلاء .

---

(١) ولا يخفى أن نوحًا كان ينتمي إلى قرن من الجيل البشري الذي نُشِرَ على الأرض ليحييها و يعمِّرها . ويقول الجيولوجييون (Geologist) : لقد أتىٰ على هذه الأرض حين من الدهر كان يكون فيه السام الأبرص والحرباء وأمثالهما من الحيوانات مما لايزيد حجمه اليوم على شبر واحد أو على شبر و نصفه ، يقدر حجمه بضعف أو أضعاف حجم الفيل كما تفيد هياكل هذه الزحافات التي تمّ العثور عليها في المنلخق الثلجية ، مما يدل على أن القوة المنبتة التي تحملها الأرض اليوم ، كانت أضعافًا مضاعفة فيما مضى من الزمان . وإذًا فلا عجب أن نعتبر الوجود الإنساني قد انتفع بهذه القوة . ثم إن ما تذكره الروايات من طول قامة آدم عليه السلام ينسجم مع صفة الأرض كل الانسجام .

وأما امتداد حياة المسح ، فإننا إذا لاحظنا أن الوجود الجسدي للمسيح لم يكن يحمل نصيبًا بشريًا من جهة أمه، إذ أن المَلَك كما لايخفىٰ قد تمثل بشرًا و نَفَخَ في أمها فحملته. وإن كلام المسيح عقب ولادته في المهد وإحياءَه الموتى ، ونفخَه الروح في الميت من الحيوان ليطيرَ وإحداث آثار الحياة في الأعضاء التي تلاشت فيها آثارها أي إبراء الأكمه والأبرص ، كل ذلك مما جاء عن نسبته الملكوتية وامتداد الحياة من نتائج ذلك وثمراته.

وأضف إلى ذلك أنهم بعدما أفَاقوا ، وجدوا المدة التي استغرقها نومُهم ربما لا يتجاوز يومًا أو بعض يوم، وكما أسلفت أنه من العسير ، أن نقطع – من خلال النص القرآني – بالمدة التي استغرقها نومهم ، إلا أن ما يتلو هذا البيانَ التمهيدي من قوله تعالى : ﴿لِيَتَساءلُوْا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : كَمْ لَبِثْتُمْ؟ قَالُوْا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ورغم أن هذا التساؤل إنما كان عن لبثهم أي مدة إقامتهم لا عن مدة نومهم و رقدتهم ، غير أن تعرّض القرآن الكريم لتساؤلهم ومجاوبتهم بعدما أفاقوا يوحِي أنهم كانوا يتساؤلون عن المدة التي قضوها قبل يقظتهم ، ولاشك أنهم قبل يقظتهم كانوا نائمين لاغير .

وأيًّا ما كان فإن ما اشتهر على الألسنة من قصة أصحاب الكهف إنما يدل – وهو الذي يقتضيه فحوى النص القرآني – على أنهم قد فقدوا الشعور الحق بالمدة التي استغرقها نومهم ، أي أن هذه المدة التي وصفوها بـ« يوم أو بعض يوم» لم يكن بهذه المثابة من القلة . ولا عجب أن يعجز النائم عن التقدير الصحيح للزمن في نومه ، ثم إن الشعراء يرون الهجر يطيل على المرأ الشعور بالزمن بينما يقربّه الوصل تقريبًا مفرِخاً .

والمرأ يجد نفسه في النوم والحلم متوفرة على ما يستنفد شهرين أو عامًا من الزمان . فقد يرىٰ أنه تزوج ومضت على زوجته مدة الحمل ، وهي تسعة أشهر ثم وُلِدَ له ، ويتم كل ذلك وهو نائم ثم يستيقظ فتدله ساعته على أنه لم يَنَمْ إلاَّ نحوًا من ساعتين . ولا يخفى أنه يحصل ذلك في المنام .

وأما ما مضى على أصحاب الكهف من الزمان فلم يكن مضى في النوم . وغاية الأمر أن نجعل مثال المنام نظيرًا يبرر لنا القياس والاعتبار . وأما اعتبارهما أمرًا واحدًا ونوعًا واحدًا فهيهات وهيهات . وعلى كلٍ فإن الامتداد المفرط للحياة ثم اعتبار فتية الكهف هذا النوم أخصر وأقل للغاية ، كلاهما من مظاهر غير عادية للأجر والبديل على إيمانهم ، ومما لا يكاد يرجوه المرء في العادة . وأرىٰ أنه لم يقصد هنا إلا الدلالة على أنه لا يسعنا أن نعتبر العقل القاصر العلم والمشاهدة معيارًا لما ينتج عن الإيمان ويترتب عليه من نتائج وعواقب .

وإنما الواجب أن نكون على بصيرة بأن الإيمان يوفر للمرء كل ما يدركه العقل، وكذلك ما يعز على العقل إدراكه وتصوره. فإن الرب تعالى – الذي يؤمن به المرء – لا يعجز – إذا شاء – أن يوجده ويعين به المؤمن . ألا ترى فتية الكهف ، وما الذي أخرجهم من بيوتهم ؟ أليس الله تعالى قد هيّأ لهم منزلاً أكثر راحةً وأحسنَ نَعِيمًا ثم سخَّر لهم كلبهم يكلؤهم ، كما أحلخهم بظروف وملابسات تمنعهم في القفر اليباب من كل من يريد بهم سوءًا وشرًا .

وكما أسلفت أن مظاهر الأجر الإيماني هذه مما يشهدَه ويجربه كل عصر و زمن ، ولن نعجز أن نجربها اليوم كذلك ، إلا أن القصة لا تنتهي عند هذا الحد ، وإنما جلب على أصحاب الكهف إيمانهم ما يعجز عنه العقل البشري ، فامتدت حياتهم امتدادًا مفرخًا ثم ما يلاقي المرء من قلق عقلي وذهني من جراء

هذا الامتداد لم ينقذهم من ذلك إلا إيمانهم . ورغم امتداد ذلك الزمان رأوه أحصر وأقل للغاية ، كما أتيح لهم أن يجربوا أنهم قضوا هذه المدة المديدة دون طعام وشراب يتناولونه . ولا يدري إلا الله المدة التي استغرقها نومهم، إلا أنهم شعروا – بعد ما أفاقوا – بما يشعر به الرجل الذي ينام الليل ليستيقظ صباحًا كالمعتاد ، من الحاجة إلى الطعام والشراب .

فما يتلوه من قوله تعالى : ﴿قَالُوْا : رَبُّكُمْ اَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوْا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هـذِهِ إلى المدينة فلينظر أيُّها أزكى طعامًا فَلْيَأْتِكم بِرِزْق مِنْهُ﴾ إنما يدل على أن حاجتهم إلى ما يسدون به جوعهم لم يكن بلغ منتهاها من الشدة ، وإلاّ لم يأمروا بالبحث عن طعام أزكى . وهذه كرامة عجيبة من كرامات إيمانهم .

وأما ما أفرده القرآن الكريم بقوله (كذلك) من نتائج إيمانهم، فلعله يشير إلى أهميتها وعظمتها، أي أنها وإن كانت تتساوى في كونها من نتائج الإيمان ، إلا أنها تختص عما سبق من الآثار بكونها غير عادية فأفردها القرآن الكريم بالذكر عما سلف.

وأضف إلى ذلك أنه يتضمن لنا درسًا ونصحًا كما يقول الإمام الرازي[1]: «وهذه الآية تدل على أن السعي في إمساك الزاد أمر مشروع ، وأنه لايبطل التوكل» . وكذلك لو حملنا قوله على

(١) الرازي (٥٤٤–٦٠٦هـ = ١١٥٠–١٢١٠م) محمد بن عمر بن الحسن أبو عبد الله فخر الدين الرازي الإمام المفسر أوحد زمانه في المنقول والمعقول ، وعلوم الأوائل . من تصانيفه : «مفاتيح الغيب في التفسير»، و «المحصول في علم الأصول»، و «معالم أصول الدين» وما إلى ذلك . (الأعلام ٦/٣١٣)

ما ذكره الإمام بجانب الأقوال الأخرى في تأويله[1] قائلاً : وقيل : أيها أطيب وألذ[2]. فإنه يؤخذ منه أنه لايلزمنا أخلاقًا أن نمارسَ في سبيل السلوك الديني التنفير من الطيبات من الرزق ، أي مما يوافق مزاج المرأ وما يلتذ به .

ثم يقول القرآن الكريم : ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوْا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوْكُمْ أَوْ يُعِيْدُوْكُمْ فِيْ مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوْا إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا أمر أسلفته آنفًا ، أي أن الوضع الذي حمل هؤلاء الفتية على أن يفارقوا قومَهم ويغادروا وطنهم ، قد حكاه القرآن الكريم بلسانهم ، مما يدل على أن صراعهم مع قومهم ، وعداءهم لهم ، قد بلغ ذروته ومنتهاه من الشدة ، حتى جعلوا يخافون على أنفسهم خوفًا شديدًا أو يتخلوا – والعياذ بالله – عن الدين الذي استسهلوا كل صعب في سبيله ، ولم يزل يساورهم الخوف على ذلك و هم دَاخل الكهف آمنون . رغم أنهم بلغوا من الإيمان والثقة بالله – كما يشهد القرآن الكريم عليه – ما يسمى بـ «الربط على القلب» ثم تراهم يشيرون على الذي بعثوه إلى المدينة أن يتطلف ويترفَّقَ ويدخل السوق حيث لا يشعر به أحد بأنه واحد من أولئك الفتية ولم يأمروه أن يخاصم الناس ويواجههم.

(١) وأما القول في تفسير «أزكى» بأن المراد منه أنهم كانوا يشيرون على صاحبهم بالتحاشي عما لم يُزَكَّ ، وعما قرِّب إلى الأوثان ، فالظاهر أن كل واحد من جماعة أصحاب الكهف كان في غنىً عن مثل هذه الإشارة ، إذ لايخفى مثله على عامة الناس .

(٢) تفسير الرازي ٥/٦٩٩ ط دارالطباعة ، بـ «القاهرة» .

وربما يعتبر الذين ينظرون إلى ما يحدث في العالم ، وما ينشأ عنه من عواقب و نتائج دون أن يرجعوه إلى رضا خالق الكون وتأثيره وفعله فيه ، يعتبرون عَقلية أصحاب الكهف هذه تمثل الجبنَ والخَوَر والانهيار الخلقي ، الذي أصاب هؤلاء القوم فيما يرونه ، وأن السبيل الوحيد إلى إبراز قوتهم الخلقية أن يصادموا أكبر القوى المادية ، وأبلغها في أحرج المواقف وأعصب الأوضاع دون مبالاة بما يجرهم إليه هذه المصادمة والمواجهة ، إلا أني أسلفت – وحكاه القرآن الكريم هنا بلسان أصحاب الكهف – ما نسبه إليهم من الموقف الذي اتخذوه هنا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الموقف – سواء اعتبرناه تهورًا غير مجد أو لم نعتبره كذلك – يضيق السبل والإمكانيات أمام الوصول إلى الفلاح والنجاح .

أرأيت لو اضطُرَّ هؤلاء المصادمون مع أعدائهم وجهًا لوجهٍ إلى الارتداد عن دينهم ، أفلم يكونوا قد سدّوا أمامهم كل سبيل إلى النجاح والفوز . ولو استبدلوا الارتداد بالرجم فَقُضِيَ عليهم ، أفليس من شأنه أن يتلاشى معه للأبد كلُ الإمكانيات للتوصل إلى النجاح والفوز أمام غيرهم، مما كان مهيأً متوفرًا ببركة وجودهم، ولو كانوا بدورهم قد بلغوا منزلة القتل في سبيل الله .

وإن ما حكاه القرآن من قولهم : ﴿لَنْ تُفْلِحُواْ إِذًا أَبَدًا﴾ يفيد أن الخوف من حرمان الفلاح لا يرجع إلى الارتداد فحسب ، وإنما يرجع كذلك إلى الخوف من الرجم فيما يبدو ، وإن قتلهم في سبيل الله يؤدي إلى حرمان الناس من نفع أصحاب الكهف

العام المتعدي ، وإن كان أصحاب الكهف أنفسهم قد ضمِنوا لأنفسهم النجاح والفوز اللازم القاصر بقتلهم في سبيل الله .

حركة ثوريّة وظهور أصحاب الكهف

وسواء كان الذين يتّبعون ما يُمْلِيه عليهم عقلهم ، ويستشيرونه فيما يهمّهم أو الذين يؤمنون في الواقع بالعقل ثم يلبسون العقل لباسًا كاذِبًا من الإيمان والإسلام ، ويتعودون وضع نظم الحياة خاضعًا له ، فإن لحاملي مثل هذه العقلية أن يحدِّثوا أنفسهم ما شاؤوا ، وأن يسووا بين الأمور كما تمليه عليهم أهواؤهم ، وليسَمُّوا ما شاؤوا بالانهيار الخلقي أو الجبن، وأما الذين كانوا يعيشون حياتهم مؤمنين بربهم فتراهم كيف أتيح لهم أن يروا حينًا من الدهر كان قومهم فيه حريصين على القضاء عليهم نهائيًا ، وأعداء ألدّاء لدينهم الذي اعتنقوه ، إذ تحدث ثورةٌ جديدةٌ ، وإن البلدَ الذي فرّ منه هؤلاء الفتية إلى الكهف خوفًا من أهله ينشأ فيهم روح جديدة . وهذه الحركة الثورية يتناولها القرآن الكريم في الآيات التي تتلوه .

والحاصل أن مدينة الأعداء هذه – التي أخرجت هؤلاء الفتية منها مغلوبين على أمرهم ومخذولين بكل ما في الكلمة من معنىً – شهدت من بين أهله من يستهيمون بهؤلاء الفتية دون أن يروهم . ولم يَكْفِهِم أن يبدوا نَدَمَهم على الموقف القاسي الذي مارسه أهله تجاه هؤلاء الفتية ، ويتحسروا عليه ، وإنما أرادوا – كي يتداركوا بعض ما فاتهم – أن يشيدوا ما يحيِيْ ذكرى الذين ظُلِمُوا ، وأرغموا على اعتزال الناس لقاءَ إيمانهم بالدين الحق ، وقبولهم له.

فرأى الرآئي منهم أن يبنوا لهم بنيانًا تذكاريًا ، ورآى آخر أن البناء المحض دون أن يكون وراءه غرض صحيح لا طائل تحته ، والأجدر أن يبنوا مسجدًا يعبدون فيه الله الذي عانى هؤلاء الفتية في سبيله ما عانوا .

وخلاصة القول أن المنطقة والبلدَة التي اغتصّت بمن ناصبوا هؤلاء الفتية العداءَ ، وكادوا لهم كيدًا عظيمًا أصبحت اليوم عامرةً بمن يكنّ حبًا صادقًا تجاههم ، بل بمن يشغَف ، ويستهيم بهم دون أن يراهم .

ومما يبعث على العجب أن الأيام التي سادت فيها هذه الحركة الثورية حدث ما يزيدهم حيرةً وعجبًا . وذلك أن أهل المدينة بلغهم أن الفتية الذين فروا بدينهم إلى الكهف في غابر الزمان وظنوا كل الظن أن لا تلاقي معهم ، لايزالون أحياء أيقاظًا في الكهف نفسه ، فأنّى تمّ لهم ذلك ؟!

وتفيد الروايات والقصص ، كما هو المشهور على الألسنة أن أحدهم دخل المدينة ليأتيهم بطعام فدفع إلى الخباز عملةً مضروبة على عهد الإمبراطور «دقيانوس» الذي حكم هذه المدينة منذ حوالي ثلاث مائة سنين .ونظر الخباز إلى العملة الجديدة الكاسدة فسأله عنها و شاع في الناس ذلك حتى لم يجدوا بدًا من الاعتراف بأنه واحد من أولئك الفتية الذين أووا إلى الكهف خوفًا من أعدائهم فاقتص الناس آثارهم ، حتى بلغوا الفجوة التي تبوأ فيها أصحاب الكهف ينتظرون صاحبهم الذي بعثوه ليأتيهم بطعام .

ثم تجد الوعاظ والقصاصين يزخرفون هذه الرواية زخرفةً لا

مزيد عليها ، ويرد في الكتب من التفاصيل ما لا نجده في القرآن الكريم . والحق أن القرآن – كدأبه وعادته – لا يتعرض لهذه التفاصيل التي لا طائل تحتها ، وإنما يعنيه أن يورد مظاهر مختلفة يتبين فيها الأجر الإيماني. وبما أن هذا الوجه من الأجر الإيماني الذي ظفر به أصحاب الكهف مفردٌ بذاته عما عداه بدأه بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما أن الأجر الإيماني لأصحاب الكهف تبين فيما سبق من المظاهر ، كذلك ظهر مظهرًا جديدًا حيث قال : ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُواْ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيْهَا إِذْ يَتَنَازَعُوْنَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوْا: ابْنُوْا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ . قَالَ الَّذِيْنَ غَلَبُوْا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مِسْجِدًا﴾

وعلى كل فإن ما تم من الإعثار على أصحاب الكهف أي مفاجاة الاطلاع عليهم، لم يتعرض له القرآن الكريم لسببه المفصل، ولا لما حدث من كَلَفِ أهل هذه المدينة واستهامتهم بأصحاب الكهف ولِما أشْرِبَ في قلوبهم من حبهم دون أن يروهم فضلاً أن يقفوا منهم موقف العِداء ، فاقترحوا اقتراحاتٍ غير واحدةٍ ببناء ذكرىٰ لهم ، ولم يَزِدْ القرآن الكريم على أن يخبرنا بأن العثور على أصحاب الكهف تمَّ في تلك الأيام نفسها وكفىٰ . وذلك لأنه يتوخى من خلاله أن يُشْعِر بمدى مخالفة الإيمان لصاحبه ، وإلى متى يخالفه ، وبأن ظهور الأجر الإيماني لاينحصر في هذه الحدود المنطقية المحدودة التي يصلِ أو يمكن أن يصل إليها العقول المفكرة من خلال هذه المعلومات والمشاهدات .

والحاصل أن الذي ادّعاه القرآن الكريم أو الذي نادى به

المؤمنين وهو قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ أجْرًا حَسَنًا مَاكِثِيْنَ فِيْهِ أبَدًا﴾ إنما يعكس صورة مثالية تجربية عملية لهذا الادعاء أو النداء مما تمثل في ألوان شتىٰ أمام فتية الكهف هؤلاء ، وإن المدة المديدة التي أتَتْ عليهم في الكهف من شأنها أن يجعل الناس ينسونَهم ، ويبتعد عن ذاكرتهم ذكراهم .

سنّة الغرب في إقامة الذكريات

ترى أن ذكرهم لم يُطْوَ فيما بعدُ ، وإنما خَلَّد القرآن الكريم ذِكراهم ، وأبقى على معالمها لا في القلوب والأذهان فحسب وإنما تجد المدينة – التي ضاقت عليهم أرضها ، فخرجوا منها مغلوبين على أمرهم ، إلى صحراء قاحلة – قد استهام بهم أهلها ، وتنافسوا في إقامة ذكراهم .

فَمِنهُمْ من يُصِرُّون على بناء البنيان دون غرض وراءه آخر ، وهذا دأب الأوربيين والأمريكيين اليوم بصفة عامة فينفقون مآت آلاف بل عشرات الملايين على بناء و تشييد بعض المباني التذكارية بينما لا يجد بائس مسكين من المدينة نفسها ما يظله من هذا البناء التذكاري العملاق فيُضطرَّ إلى أن يبيت الليالي المظلمة القارّة الباردة التي تصطك لها الأسنان ، على الأرصفة والممرات وفي العراء .

وبإزاء ذلك فئة تقترح بناء البنيان للعبادة ، وهذه الفئة قد غلبت على أمر أصحاب الكهف كما يدل عليه القرآن الكريم . ولعل المراد منه أن هذه الفئة دانت دين أصحاب الكهف فغلبت على أمرهم . وأما القائلون بإنشاء البنيان دونما غرض و دون أن

يكون وراءه هدف آخر فكانوا يحاولون إقامة بناء تذكاري لهم بصفة كونهم أبطالاً من قومهم ، و بني جلدتهم . وما يتلو هذا الاقتراح كجملة اعتراضٍ مِن قوله تعالى : ﴿رَبُّهُمْ اَعْلَمُ بِهِمْ﴾ ربما يستهدف توجيه الطعن في أساس فكرة «البناء للبناء» مما يستند إليه المرخصون لها في الغالب قائلين بأنه لا يصح اعتبار هذه المباني التذكارية مبانيَ فحسب ، وإنما يقام هذه المباني التذكارية إحياءً لذكرى الصادرين عن الدنيا في قلوب الأجيال اللاحقة ، و تجديدها في نفوسهم . وكأن القرآن الكريم يرمي إلى بيان ما في هذا الأساس من ضَعف وعوار .

والغرض منه فيما يبدو – أن الذين سبقونا في هذه الحياة الدنيا تتجدد ذكراهم في علم الله تجددًا لا يعتريه خلل أو عيب مهما خال عليه الزمان وامتدّ . وهل نعتبر – حينئذ – ما يبذل من المساعي غير اللازمة في إحياء ذكراهم في الذاكرات الفانيات من خلال المباني التي كتب عليها الفناء والهلاك هل نعتبرها إلا لغوًا ، وما لا ينفع ولا يغني من جوع .

وكما أن هذا الشطر من النص يتضمن جملة اعتراض واحدةً وإن كانت أبلغ ما يكون ، كذلك ما يتبع قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في البدء من هاتين الجملتين كلاهما من هذا النوع أيضًا ، وهما قوله تعالى : ﴿لِيَعْلَمُوْا أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَ أنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَرَيْبَ فِيْهَا﴾ ولعل القرآن الكريم يحاول أن يُنبِّه بهاتين الجملتين كذلك على أمرين : أولهما: أن ما تمثل لأصحاب الكهف تِباعًا يستهدف أول ما يستهدف إلى أن ما وعده الله تعالى من الأجر

الحسن على الإيمان ، ومن أن المؤمن لايزال ينتفع – انتفاعًا لا ينقطع – بهذا الأجر على الإيمان . أي ما يتلخص من قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ أجْرًا حَسَنًا مَاكِثِيْنَ فِيْهِ أبَدًا﴾ فأراهم مدى صدق وعد الله تعالى لعباده ، ومدى مخالفة الإيمان ، ومعاضدته لصاحبه في أفظع الأوضاع وأحرجها .

والأمر الثاني وهو الذي يدل عليه الفقرة الثانية : ﴿وأنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَرَيْبَ فِيْهَا﴾ وقال القائلون في معناه ما قالوا ، وأما أنا فأرى أن المراد منه تنبيهُ الذين كانوا يشاهدون وعد الله يتحقق ، ويتجسد على أنه لامجال للشك والارتياب في تحقق الساعة أي القيامة التي تُعتَبرُ اسمًا آخر للنتيجة النهائية (Final Result) للإيمان والكفر .

وكذلك نجد البعض المصاب بالعقلانية يمارس التدقيقات العقلية الشديدة فيما لايسع للعقل رفضه ولا قبوله . فيزعمون – مثلاً – أنهم غير عاجزين عن تحقيق الجنة والنار وعذاب القبر وما إلى ذلك بالأدلة العقلية ، والطرق العلمية (Science) والعقل يسخر من مثل هذه السفاهة والحماقة والخَطَل . ولو أن العقل وحده أدّى إلى مثل ذلك ما كان الله تعالى ليقيم هذا النظام الجليل حقًا من النبوة والرسالة .

ودَعْني عن ذلك فإن الحديث عنهم ذو شجون ، وإنما أريد أن أقول : إن أكبر دليل على ثبوت أمثال هذه المغيبات ، إنما هو ما وعده الله أصدق الصادقين وخالق العالمين جل مجده من أنه

سيُحْيِي الموتى ويبعثهم – بعد ما يموتون – كما خلقهم أول مرة ، ونفخ فيهم الروح . وأن الذين سيُبعثون مرةً ثانيةً سيتمثل لهم نتائج ما عملوه وكسبوه . ولا شك أن أكبر وأصح و أحكم ما يدل على صدق هذه المغيبات إنما هو وعد الله به .

إنما الزمان أمر نِسبي

وهذا النص كذلك يشير فيما أرى إلى أن الذين شهدوا وعد الله على الإيمان يتحقق و يتجسد ما كان ليساورهم الريبة في ما وعد الله في شأن الساعة والقيامة . وأضف إلى ذلك أن جانبًا لطيفًا من جوانب هذا التنبيه ، ربما يعكسه – بالنظر إلى موقعه الخاص – التساؤل عن القيامة متى هي ؟ وقد يختلج في الصدور في شأن هذا التساؤل أن الناس يموتون منذ الآلاف من السنين مضت فإلى متى يلبثون ناظرين الساعة ؟! وبما أن القرآن الكريم قد تناول هنا في قصة أصحاب الكهف واقعَ شعور المرء بالزمان فدل على أن الشعور بِقِصَرِ الوقت وطوله ، لا يرجع إلى حدث من الأحداث ، وإنما يرجع قبل كل شيءٍ إلى الله القادر المطلق ، وإليه أن يُحدِثَ أي نوع من المشاعر والأحاسيس بأي زمن من الأزمان في قلوب الناس وصدورهم . وهذا القرآن الكريم ينص على أن الناس يبعثون يوم القيامة فيشعرون أنهم لم يلبثوا إلا يومًا أو بعض يوم.[1]

وإذا كان هذا هو واقع شعور الإنسان بالزمان فلا يختلف شعور من مات في القرن الأول الميلادي قبل ألفي عام عن شعور

[1] اقرأ سورة المؤمنون / ١١٣ .

من مات وسيموت بعده بألفي عام سنة ١٩٥٠م بالمدة التي تتراوح بين موتي هذين الرجلين ، والتي تمتد ألفي عام .

والحق أن المُلِمّ – ولو إلمامًا بسيطًا – بالفلسفة قديمها وحديثها لا يخفى عليه أن الزمان (Time) وهو ما يدركه كل الناس إذا تأملنا فيه تبين أن الزمان لا يكتنهه أحد ، ولا يمكنه الوصول إلى واقع أمره. أرأيت الشيء الذي لا يُرَىٰ بالعين ، ولا يُسمع بالأذن، ولا يشمّ بالأنف ، ولا يتذوق باللسان ، ولا هو مما يُدرَك باللمس كيف ساغ أن يعترف به من يعترف . وهذه السنوات والأيام والساعات والدقائق والثواني والجُمَعُ والخميسات ، وما إلى ذلك أهو شيء تراه بعينيك أم تسمعه بآذانك أم تشمه بأنفك أم تذوقه ؟ كلا ! ورغم ذلك كله تعترف به وتؤمن به ، وإليه يرجع شؤونك كلها ، وعليه تقوم .فهذه الحقيقة التي يسودها الريب والشك والتي وصفها القرآن الكريم بهذه الأمور النسبية هل من شأنها أن يبعث على العجب والحيرة من أية ناحية من نواحيها .

والحاصل أن ما يدِبّ أو يمكن أن يدِبّ إلى الأذهان من تيارات الريب ، والشك من الساعة أو القيامة عن خريق الوسوسة الزمانية فإن ما جرى على أصحاب الكهف كفيل بأن يقضي على وساوسه من خلال شعورهم بالزمان شعورًا واقعًا حقًا .

عدد أصحاب الكهف

هذا وما يذكر من اعتناء الناس بأصحاب الكهف ، لم يقتصر على المدينة التي أخرجتهم على أهلها ، وإنما يدل قوله تعالى عقب ذلك : ﴿سَيَقُوْلُوْنَ ثَلاَثَـةٌ رَابِعُهُـمْ كَلْـبُهُمْ وَيَقُوْلُـوْنَ : خَمْـسَةٌ

سَادِسُهُمْ كَلْبُهمْ رَجْمًا بِالغَيْبِ وَيَقُوْلُوْنَ : سَبْعَةٌ وَثَـامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ على أن أصحاب الكهف هؤلاء قد أولاهم الأجيال اللاحقةُ اهتمامًا كبيرًا وعنايَةً بَالغةً عندما تمّ العثور عليهم فيما بعدُ ، وأشدد بهم عنايةً ، واهتمامًا أن الكلب الذي صحبهم – فضلاً عن أنفسهم – عاد كلبًا من التأريخ الإنساني نشأ منه مذاهب فكرية شتىٰ في عدد أصحاب الكهف بهذا الكلب وبدونه .

فهذا الإمام الرازي يروي في تفسيره ما يوحي إلى أن عدد أصحاب الكهف بهذا الكلب و بدونه يشكل نقطةً خلافيةً هامةً بين مختلف الأحزاب النصرانية في العرب بعد ذلك بمئات من السنين ؛ فحزبٌ عُرِفَ يومئذ بـ «اليعقوبية» كان يتبنى – كما تقول هذه الرواية – الرأيَ الأول ، ويقول : ثلاثة رابعهم كلبهم ، وحزب آخر يُدْعَى بـ«النسطورية» ، يقول : خمسة سادسهم كلبهم والله أعلم بالصواب.[١]

ومن قال بالقول الثالث يقول أهل التأويل منا: إن الأصح هو القول الثالث . ويقول الرازي : إن القرآن الكريم وصف القولين الأولين بـ «رجمًا بالغيب» فدل على أن القول الثالث أقرب منه إلى الواقع . ثم استدل الرازي على صحة القول الثالث بوجوه ، منها: أن القرآن الكريم أفرد الكلب بالذكر ، وعطفه بالواو .

ويبدو أن القولين الأولين قد غلا أصحابهما في ذلك ؛ أولَوْا الكلبَ – بجانب أصحاب الكهف – من الاهتمام ما سوَّىٰ بين وجودِ الكلب ، ووجود أصحاب الكهف . فَخُيِّلَ إليهم أن الكلب

[١] التفسير الكبير للرازي ٧٠١/٥ ط : دار الطباعة ، مصر .

قد اندمج فيهم ، فلم يرضوا بالفصل بين الكلب وأصحاب الكهف بالواو . ولو صوَّبنا رأي المفسر منا أن القول الثالث هو الذي يعبر عن الواقع تعبيرًا دقيقًا ، فلعل القرآن الكريم يحاول – بزيادة واو الفصل – استدراكَ ما توهّموا من العينية و الاندماجية.[1]

ويبدو أن عدة أصحاب الكهف بالكلب وبدونه قد تحولت قضيةً هامةً شغلت أذهان العالم ولا أقلَّ من العرب ومن حولهم . والقرآن الكريم كدأبه يحذِّر المسلمين – دائمًا – من الوقوع في مثل

---

[1] وما غالى قوم في دينهم إلا تسربت إلى معتقداته أمثال هذه الأوهام والخرافات البلخلة . كما يزعم أن المرء ليزداد صلاحًا وخيرًا حتى يتحول من آدمي إلى إله يُعْبَدُ . وهذا ما يُدْعَى بـ«فكرة الفناء في الأصل» أو أن المرء يتحول من آدمي إلى مَلَكٍ كما يجنح إليه النصارى بصفةٍ عامةٍ . ومن هنا تصف الأوساط النصرانية الجنة التي نوّه بها القرآن الكريم بـ«الجنة الحيوانية». وما هو إلا قول شاعرٍ أو مجنون، كما لا يخفى ؛ فإن القرآن الكريم لايذكر إلا الواقع والحق، وإنه لم يطرح فكرة التحول إلى إله أو ملَك. فالبشر بشر مهما بلغ .

ولعل القصد هنا كذلك أن كلب أصحاب الكهف لم يزل كلبًا مهما كان وصار ، وأنه لم يتحول بشرًا ، وكما أن الكلب لا يتحول بشرًا بعدما يموت كذلك القول بأن المرء يتحول – بعد ما يموت – كلبًا جزاءً على ما اكتسب من الإثم ، وما رَكِبَ من الخطايا والذنوب ، كما يقول أصحاب فكرة تناسخ الأرواح ، إن كلُّ ذلك إلا لغو من القول وزور. وقد تسرب إلى المسلمين – بحكم اختلاطهم مع الأمم الأخرى – أمثال هذه الرؤى والمزاعم في شأن كلب أصحاب الكهف ، وما أشهر شطر بيت فارسي من نسج الشيخ سعدي ما معناه: إنه – أي كلب أصحاب الكهف – اقتفى أثر الصالحين فتحول بشرًا صالحًا .

ويذكر بعض الكتب أن روح كلب أصحاب الكهف ستدخل الجنة متجسدةً في جسد «بلعم باعورا» وأن روح «بلعم باعورا» ستدخل النار في جسد ذلك الكلب ، وكل ذلك غلو وإفراط . ولكن لنتأمل أن إيمان أصحاب الكهف كيف صيَّر كلبهم – فضلاً عن أنفسهم _ أمرًا بالغًا من الخطورة والأهمية كل مبلغ في التاريخ البشري .

هذه الأمور العقيمة ، وما لا يعنيهم . وحيث قال هنا : ﴿قُلْ رَبِّيْ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ اِلاَّ قَلِيْلٌ . فَلاَ تُمَارِ فِيْهِمْ إلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيْهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إنما سار على هديه ونهجه ذلك مما تصفه الأحاديث النبوية بـ «ترك مالا يعنيه» وركَّزَ على روح القصة التي تفرض على المسلمين أن يتقيدوا به في واقع حَياتهم ونَبَّهَهُمْ على ذلك قائلاً: ﴿وَلاَ تَقُوْلَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّيْ فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا﴾.

على المؤمن أن يتبع سبيل الإيمان بعيداً عن طريق الإلحاد

وظاهره يفيد أن الذين تعوّدوا النظرَ في أحداث الكون بدون الخضوع لله تعالى ، و وضع نظام حياتهم في ضوء ذلك قد حُذِّر المؤمنون تحذيرًا شديدًا منهم ، وأُكِّد لهم تأكيدًا بليغًا على أن يتحاشوا كل التحاشي عن مثل هذه العقلية الزائغة الملحدة الكافرة، وعلى أنه لابد أن يضع المؤمنون نصب أعينهم قصة أصحاب الكهف ، وما واجهوا من الأوضاع القاسية في أول أمرهم ؛ إذ فقدوا كل أمل في الحياة ، وتعرض دينهم لخطر شديد . ولو فكروا في أمرهم بمجرد عقلهم لزلت أقدامهم زلات لا يعلم مداها إلا الله تعالى إلا أنهم سلكوا سبيل الإيمان ، ولم يخطوا خطوةً إلا سائلين ربهم أن يعينهم ، ويثبت أقدامهم ، ويسدد خطاهم .

فأراهم أن سالك سبيل الإيمان لن يُخْدَعَ ولن يخسر ، وأن الإيمان وما يترتب عليه يحوّل الأوضاع المتردية المتدهورة للغاية أوضاعًا حسنةً هادئةً . وأن المطرودين المبعَدِين يُحَلَّون أسمى مكانةً وأعز منزلاً، ويشادبهم ، ويقام لهم ذكريات . ويزداد اهتمام الناس بهم حتى نشأت مذاهب فكرية شتى في عدتهم ، وأصبح

كلب من الكلاب - بفضلهم - قضيةً من أهم القضايا في التأريخ البشري .

والحق أن المسلمين لم يظهر فيهم مذاهب فكرية في شأن أصحاب الكهف كما ظهرت في النصرانية الفرقتان اليعقوبية والنسطورية إلا أنَّ أصحاب «الرقى والتمائم» من المسلمين - سلفًا وخلفًا - قد استخدموا ، ويستخدمون أسماء أصحاب الكهف وكلبهم فيما يهمهم وينفعهم . وقال السيوطي[1] في كتابه «الرحمة في الطب والحكمة : أن لهذه الأسماء تأثيرًا كبيرًا عجيبًا خاصةً في معالجة الأرواح الخبيثة[2] وجاء في ترجمة المحدث الجليل قطب رحى الإرشاد والسلوك في هذا القرن الرابع الهجري الشيخ / رشيد أحمد الكنكوهي[3] أنه كان يستخدم هذه الأسماء لما ذكره السيوطي من الغايات والأهداف ويكتبها بنفسه ويستكتبها لمن

---

[1] السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ = ١٤٤٥-١٥٠٥م) عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي : إمام حافظ مؤرخ ، أديب له نحو ٦٠٠ مصنف من الكتاب الكبير والرسالة الصغيرة ، نشأ في القاهرة يتيمًا . من كتبه : «الإتقان في علوم القرآن» ، و«الأشباه والنظائر» ، و«الحاوي للفتاوى» ، و«تفسير الجلالين» . (الأعلام ٣٠١/٣) .

[2] وقال في تذكرة الرشيد في ترجمة الكنكوهي وكذلك السيوطي إن أصحاب الكهف هم : شليخا و مكسلمينا ومرخونس بيونس وسار بنوس واكفشدخنوس دونواس . وكلبهم : قطمير وقيل : قطمور .

[3] الكنكوهي (١٢٤٢-١٣٢٣هـ = ١٨٢٦-١٩٠٥م) رشيد أحمد المحدث الجليل الفقيه الكبير ساهم مساهمةً فعالةً ملموسةً في نشر العلم والإصلاح الديني . اتُّهم بالمشاركة في الثورة ضد الحكومة الإنجليزية في الهند فأُخِذَ وزجَّ به في غياهب السجن ، ولبث فيه بضعة أشهر . من تصانيفه : «الفتاوى الرشيدية» ، و«تصفية القلوب» ، و«هدية الشيعة» و «جمعة في القرى» . اقرأ «تذكرة الرشيد» بالأردية ، ط: ديوبند .

يطلبها منه من ذوي الحاجات .

والحاصل ، أن المنهجين اللذين يستقل بهما المرأ في التفكير في المستقبل بالنظر إلى الأوضاع الراهنة : أحدهما : منهج يتبعه الذين لا يوجسون في أنفسهم خيفةً من مشيئة الله وإرادته سوى ما يمليه عليهم حسّهم وعقلهم ، بل يسخرون ممن يلاحظ أوامر الله تعالى بجانب العلل والأسباب الحسية والعقلية ويصارحون بـ «ما لله يدخل بيني وبينك؟» وإن آثار عقيدة الولدية قد فرضت على معظم الجيل البشري - اليوم -خريقة التفكير هذه .

والمنهج الثاني وهو الموقف الذي يلقِّنُنَا ما قصّه القرآن الكريم من قصة أصحاب الكهف ونظرًا إلى ذلك أمرنا القرآن بـ :﴿وَلاَ تَقُوْلَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّيْ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إلاَّ أنْ يَشآءَ اللّٰهُ﴾ ليضع المؤمن نصب عينيه مشيئةَ الله في كل خطوة يخطوها .

ويتلخص ذلك في أن المؤمن لابد له من أن يلاحظ في كل خطوة يخطوها - بجانب العلل والأسباب العامة - مشيئةَ الله القاهرة وإرادته الغالبة. وهذا أسلوب الفكر والعمل الإيماني مما يبشر بأن الله لم يَضيِّعْ أجر الإيمان وأن المؤمن يمكث في انتفاع مستمر لا ينقطع ، من نتائجه وعواقبه ، ويعقبه ما أمر بقوله : ﴿اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ﴾ .

وهذا يفيد أن الإيمان بالله لا يعني أن يخضعَ له المرء يومًا من حياته ، ثم يدفن ذكره في ناحية من نواحي ذهنه وعقله ، لا يذكره ولا يأبَهُ بِهِ ، وإنما يجب على المؤمن أن يحيي علاقته مع الله الحي وعبوديته له ما دام على قيد الحياة . وإذا ما ذَهُلَ عَنه يومًا

وأنساه الشيطان فَلْيُعِدْ ذكراه ويوقظ الشعور به في قرارة نفسه ، ثم يعقد أملاً فيما يشير إليه قول الله تعالى : ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِيْ رَبِّيْ لأَقْرَبَ مِنْ هذَا رَشَدًا﴾ .

والظاهر أن المراد منه أن المرء إذا أخذ نفسه بالعيش عيشةً إيمانيةً كما عاش أصحاب الكهف فإنه يزداد هدايةً ورشدًا ، حتى يبلغ منزلة السكينة والطمأنينة التي وصفها القرآن الكريم بقوله : ﴿وَرَبَطْنَا عَلىٰ قُلُوْبِهِمْ﴾ .

كذلك يُنَبِّهُ المؤمنَ على أن يرجو من ربه هذا الأجر البلخني على إيمانه كما أن أصحاب الكهف سَمَا بِهِم إيمانُهم إلى المنزلة العالية والدرجة الرفيعة، من الربط على القلب . وليكن المؤمن آملاً في أنه هو الآخر يعطيه ربه الأجر على إيمانه جزيلاً .

مدة لبث أصحاب الكهف كما يراها القرآن الكريم

والحق أن القصة وما يتوخاه القرآن من تنبيه المسلمين من خلالها ، قد بلغت نهايتَها إلا أن شطرًا واحدًا من القصة أي امتداد الحياة البشرية امتدادًا مفرخًا لاشك أنه أمر لايكاد تستسيغه عقلية الذين تعودوا العيش معرضين عن أوامر العزيز المقتدر . وحاول القرآن تقريب القضية إلى الأذهان في النهاية إلا أنه بدأ ببيان المدة الصحيحة التي قضاها أصحاب الكهف في كهفهم ، فقال : ﴿وَلَبِثُوْا فِيْ كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِيْنَ وَازْدَادُوْا تِسْعًا﴾ .

والأسلوب الذي اختاره القران في ذكر السنين، حيث ذكر مدة لبثهم ثلاث مائة سنة ثم زاده تسعَ سنوات قد علله الرازي – فيمن علّله – فقال : كانت المدة ثلاث مائة سنة من السنين

الشمسية و تسع سنين من القمرية.[١]

ودع عن ذلك فإنه يرجع إلى علم الحساب ، وإنما يسبب هذا الشرود الذهني . أنه لم يُعْهَد مثل هذا الامتداد في الحياة الشخصية الإنسانية بصفة عامة فيقول القرآن الكريم : إنكم إذ تلتمسون الأساس والسبب وراءه فأمعنوا النظر في البحث والنقب أكثر، فأكثرهم تَفَكَّروا أن ما يشهده الكون من الأحداث والوقائع هل ينحصر حلقات عللها وأسبابها في الشهادة والمعاينة ، أي أن ما يصل إليه العقل الإنساني العام من حلقاتها عن طريق الحسّ إليها تنتهي هذه العلل والأسباب دون أن يعدوها ؟ خُذْ حشيشًا من الحشائش العادية أو عَقَّارًا من عقاقير الغابة هل لأحد أن يدلّنا على العوامل الطبيعية التي أدت بهذه الحشائش والعقاقير إلى البروز والظهور للناس : جذور فأوراقٌ فَسَاقٌ فأغصانٌ فأثمارٌ ، فأزهارٌ ، وما تحمل من خواص ومميزات وما نشهد في مثل هذه النباتات المتنوعة من العجائب والغرائب هل يتيسر لنا أن نفسر كل هذه الطرائف بالأسباب والعلل أو العوامل والحوافز الفانية مما يشهده الكون . وما أشار إليه القرآن الكريم – وهو يذكر مدة لبث أصحاب الكهف ، في الكهف – من قوله : ﴿قُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوْا لَه غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يُنَبِّهُ على أن اعتبار المرء علمه المحدود المتناهي معيارًا يقيس به ما جاء من عند الله عز وجل خطأٌ عقليٌ فاضح ؛ فإن علم الله تعالى يشمل الشهادةَ – أي قوانين الكون الحسي – وقوانين الغيب ويحيط بهما جميعًا .

(١) تفسير الرازي ٧٠٦/٥ .

فلينظر الإنسان الجاهل أنّى له الطعن فيما أخبربه العالِم الخبير؟! ويوضح إحلخة الله بكل ذلك علمًا قوله : ﴿أَبْصِرْ بِهِ ، وَأَسْمِعْ﴾ .

وهذا يرجع إلى أن الله تعالى - دون سواه - يطلع على الحكمة التي تكمن فيما يفعل بعباده . ففتية الكهف هؤلاء آمنوا بربهم سائلين نصرتَه وعونَه ، وقد علم صدقهم وإخلاصَهُمْ له ، وسمع ما سألوه، فأراد أن يريهم رأي العين ما ترتب على إيمانهم، وعلى ما أحسنوا الظن بربهم من آثار ونتائج أو أجر وبديل . فأراهم وهم أحياء وأرى غيرهم كيف تمثلت لهم أنواع من عجائب نصرة الله وعونه ، منها ما يعجز العقل الإنساني عن تصوره قبل أن يقع . فشهدوا - مثلاً - أن الحياة - التي لاتجاوز عادةً ثمانين أو تسعين عامًا - قد تجاوزت ثلاثةَ قرون .

وهذا يرجع إلى العلم والجهل فأمِرَ الذين لايعلمون أن لايرتابوا - دون جدوى - فيما يخبر به الذين يعلمون ، ولايصروا على أن يوافق علم العالم على ما عجز عنه جهل الجاهل . ولا شك أن هذا الإصرار إصرار جاهل غبي .

ولم يقف القرآن في إرشاده وأمره عند هذا الحد، وإنما بلغ به: ﴿مَالَهُمْ مِنْ دُوْنِه مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِيْ حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ .

لايستحيل العقل - كذلك - امتدادَ الحياة البشرية

إن الناس يمرون بهذا النص القرآني مرّ الكرام اعتبارًا منهم أن هذا أسلوب خاص من أساليب القرآن رغم أن السر الذي يكشف القناع عنه هذا النص الآنف الذكر وما أرشد إليه من

الطريق الناجح إلى إدراك الكون ، ونظامه إذا ما ظفر به المرء فإنه ينسدّ له - وللأبد - كلُ ما ينفذ منه الأوهام والوساوس صغيرُها وكبيرها إلى مثل هذه القضايا كلها فضلاً عن قضية امتداد الحياة البشرية هذا الامتداد المفرط .

ولا يسعني - هنا - الخوض في تفاصيل الموضوع إلا أني - وباختصار - أذكِّر بما قصه القرآن الكريم علينا ، ويقال إنه قصة عزير عليه السلام - . وذلك أنَّ الله تعالى أماته مائة عام - ولم يضرب على أذنيه - ثم بعثه ثم سأله عن المدة التي تراوحت بين موته وبين مبعثه ، ولم يشعر عزير بهذه المدة المديدة التي استغرقها نومه ، فقال : لبثتُ يومًا أو بعض يوم . فقيل له : بل لبثتَ مائة عامٍ ، ثم أمر أن ينظر إلى خعامه وشرابه لم يتسنه ، ولم يتغير منه شيءٌ وبقي كما كان خريًا خازجًا .

وأما الحمار الذي كان يركبه ، فقد مات وعاد رميمًا تفرق حوله . واقرأ هذه القصة بطولها في سورة البقرة من القرآن الكريم. وإنما يهمني هنا أن أقول : إن الآية التي عُرِفَت بآية الكرسي في القرآن تبعها هذه القصة ثم قصص أخرى متتالية ، وهي محادثة إبراهيم مع ملك من ملوك عصره في شأن سنّة الموت والحياة . والقصة الثالثة تتحدث عن خيور أربعة وما حدث بها ، أُرِيَهَا إبراهيم حين سأل اللّهَ ذلك .

وأرى أن الله تعالى حين وصف نفسه في آية الكرسي وصفها - قبل كل شيء - بـ «الحي» وذلك ليتميز وجوده تعالى عن وجود المادة الميتة ، ثم وصف نفسه بـ «القيوم» فأرى أن قصة محادثة

إبراهيم ترجع إلى صفة الحي التي وصف بها نفسه . وهذا تنبيه على أن الذي حُرِمَ الحياةَ أنّى له أن يجود بها ؟. وأما ما تشير إليه قصة عزير عليه السلام من أن الطعام والشراب مما يتسارع إليه الفساد والسَنَهُ سرعةً لا تقدر ، بقي خريًا وخازجًا مدةَ مائة عامٍ . وأما الحمار الذي يحمل قوة البقاء والدوام أكثر مما عداه فقد فسد وعاد رميمًا .

وهذا يؤدي بنا إلى أن ما في الكون كله لايحتاج إلى الله تعالى في وجوده وحدوثه فحسب وإنما يحتاج – كذلك – إلى إرادة والله ومشيئته في كل ما يحدث فيه ، وفي كل لحظة من لحظات وجوده، فكان من نتيجته المعجزة أن ما يتسارع إليه الفساد لم يفسد ولم يتسنَهْ ، وأما الحمار المسكين، فقد فسد وعاد رميمًا .

معنى كلمة القيومية

ويوصف علاقة الخالق بالمخلوق هذه بـ «القومية» مما يفيد أن ما يزعمون أن الخلق في غنىً عن أمر الله وتأثيره في جميع ما يحدث فيه من تغيير وتبديل زعمٌ خلخئ على الإخلاق في خصوص نظام الكون .

فلندرك إذًا أن نسبة الموت إلى الشيء الموجود الحي – بعد وجوده – لا ترجع إلى المجهول من خبيعة ذلك الموجود وفطرته ومزاجه ، وما إلى ذلك وإنما هو شأن مشيئة الله وإرادته وإذنه أن يُبقي على الشيءِ ما رضي ببقائه ووجوده ، ويحرمه الوجودَ والحياةَ إذا ماشاء ذلك .

وهذه السنة الإلهية لاتقتصر على الموت ، وإنما يخضع لسنة

القيومية هذه كل خلق في كل ما يحدث فيه ، وفي كل جانب من جوانب هذا التغير .

فتأمل إذا فيما يتلو ذكر حياة أصحاب الكهف الطويلة من قوله تعالى : ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُوْنِهِ مِنْ وَلِي﴾ هل يدلّ ذلك إلا على أن المدة التي قضوها لم يُعِنْهُمْ عليها أحد إلا الله تعالى ، وأنى يكون ذلك فإن نظام الكون كله يخضع لسنةٍ واحدةٍ جامعةٍ ، وهي قوله تعالى : ﴿وَ لاَ يُشْرِكُ فِيْ حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ .

وإذا كان هذا هو الواقع فإن الحياة التي خلقها خالقها يُمِدُّها ما شاء ، ويقطع حبلها إذا ما شاء ، وما كان لأحد أن يشاركه في ذلك . وإن وصول الوجدان – لا العقل – إلى هذه العلاقة التي تربط الخالق بالمخلوق يمثل ذروة الكمال التي يمكن أن يصل إليها الحياة الإيمانية . وهذا ما يعبر عنه الصوفية بوحدة الوجود إلا أن الجاهل الغافل عن ذلك يرميهم بأنهم يدعون إلى القول بـ (وحدة الموجود) وشتان بينهما ، قَاتَلَهُم اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُوْن .

مدة لبث أصحاب الكهف من الناحية التأريخية

وكأن القرآن الكريم قد أنهى قصة أصحاب الكهف . وما يتلوه من الآيات وإن لم ترتبط بقصتهم مباشرةً إلا أنه لا ينفصل كليًا عن قصتهم، ولو شئنا لجعلناه من مؤدىٰ هذه القصة ومعطياتها . وسنأتي عليه بإذن الله في المستقبل ويجدر بنا الآن أن ننهي أصل القصة لندخل في قضية هامشية .

ومن المهم أني حاولت كل المحاولة أن أقصر شرحي على النص القرآني بصفة عامة ، وأما ما يذكره القُصّاص في شأن

أصحاب الكهف فلم أتعرض له عن قصدٍ وعمدٍ ، وإن جاء شيء من ذلك فإنه لا يعدو أن يكون ذكرًا هامشيًا . وكذلك أقصد هنا ذكر أمرٍ هامشي :

إن الأسلوب الذي اختاره القرآن الكريم حين ذكر لبث أصحاب الكهف ومدة مكثهم ، فقال : ﴿وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ قد سبق أن حكيت عن الإمام الرازي ما قيل من أن هذا الأسلوب يشير إلى ما بين السنين الشمسية والسنين القمرية من التفاوت . واستشكله الرازي بأنه لا يصح بالحساب . وإذًا فما الحكمة في هذا الأسلوب ؟ هذا ما أريد الحديث عنه .

إن النص القرآني لا يحدد العهد الذي شهد قصةَ أصحاب الكهف هذه ، وأما الروايات الإسلامية وغير الإسلامية فتصرح بأن حواري المسيح بدأوا التبشير ، وتفرقوا في المناخق المختلفة فكان منهم من بلغ هذه المدينةَ المركزية التي سميت بـ«أفسس» في آسيا الصغرى ، وبشروا أهلها برسالة المسيح عليه السلام فلقيت الرسالة آذانًا مصغيةً وقلوباً واعيةً في فتية من بين هؤلاء الوثنيين ، فنازعوا قومَهم ، وضاقوا بهذا النزاع والصراع ذرعًا ، وفروا إلى كهف يأوون إليه .

فهذه قصة تأريخية تناولها الأخباريون قديمًا وحديثًا ، وحتى المحدث الجليل الشهير ابن حزم الأندلسي المتوفى عام ٤٥٦هـ[1] قد

[1] ابن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ = ٩٩٤-١٠٦٤م) علي بن أحمد بن حزم الظاهري أبو محمد عالم الأندلس وأحد أئمة الإسلام، كانت له ولأبيه رياسة الوزارة ، وتدبير المملكة، فزهد بها ، وانصرف إلى العلم والتاليف . يقال : لسان ابن حزم وسيف الحجاج

تعرض في كتابه «الملل والنحل» لما سَامَه الوثنيون الروم النصارى في بدء أمرهم من النكال والعذاب الشديد ، وقال : فبقوا على هذه الحالة لا يظهرون البتةَ ، ولا لهم مكان يأمنون فيه ثلاث مائة سنة بعد رفع المسيح.[1]

ثم فصل ابن حزم الكلام على أن إمبراخور القسطنطينية : «قسطنطين» كيف دان الدين المسيحي بعد مرور ثلاث مائة سنة ثم تيسر للنصارى أن يعيشوا دون قيد أو حظر ويسيروا في الأرض يبشرون بدينهم جهارًا بل ويمارسوا – بجانب التبشير – إكراه الناس على اعتناق الدين المسيحي .

قارن هذه الرواية التأريخية مع ما أخبر به القرآن الكريم من أن أصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا ، فإن استنتجنا منه أن مدة الاضطهاد والاختفاء التي مرت على النصارى عامةً قضاها أصحاب الكهف في كهفهم وإن الثورة الدينية التي شهدتها المدينة جعلت أهلها يعقدون مع هؤلاء الفتية علاقة الحب والوله ، والتقدير والاحترام ، وإن لم يَرَوْهُمْ بأم أعينهم . كلُّ ذلك تم خلال الثلاث مائة سنة هذه ، ثم عثر عليهم الناس فمرت مدة تسع سنوات على هذا العثور . وإن القرآن الكريم أشار بأسلوبه إلى ما بين هذين الزمانين من التفاوت .

وهذا التوجيه أقرب التوجيهات والتأويلات فيما أرى ،

شقيقان . من أشهر مصنفاته : «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ، و«المحلى» في الفقه . (الأعلام للزركلي ٤/٢٥٤-٢٥٥) .

[1] الملل والنحل ٤/٢ .

ويدل هذا على أن القصد من ورائه إراءتُهم الإيمانَ والأجرَ على ذلك . ومن ثم أتيح لهم الحياة الممتدة هذا الامتداد المفرط وإن البلد الذي خذلهم ، وأسلمهم أهله فخرجوا منها قد أولع أهله بهم وَلعًا غريبًا ، واهتموا بهم اهتمامًا غير عاديٍ . ولعلهم عاشوا بعد ذلك تسع سنوات ثم أتتهم المنية حسب السنة الإلهية العامة القاضية بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1] والله أعلم.[2]

---

(1) سورة آل عمران /١٨٥ .

(2) إن تفاسير كل من الحزب اللاهوري ، والحزب القادياني المنشقين من الفرقة القاديانية لم تعتبر حياة أصحاب الكهف هذه حياتَهم الشخصية ، وإنما عَزَتْ هذه المدة التي تقدر بثلاث مائة سنة – إلى أمة النصارى ، وزعمت أن هذه المدة لا تعبّر عن حياة الأشخاص والأفراد ، وإنما تمثل عهد حياة الأمة النصرانية الكهفية الذي مر عليها قبل أن يعتنق قسطنطين المسيحية .

وقد حاول الميرزا «بشير» مستدركًا على تقويم السنوات الميلادية التأكيدَ على أن ما أفرد القرآن الكريم من ذكر السنوات التسع بأسلوب خاص قد يشير إلى أخطاء التقويم هذه . ولاشك أنه أمر غير ملائم ، وغير منسجم فيما يبدو . وأعجب منه جرأته وإقدامه على التحريف والتبديل؛ فإن القرآن الكريم ينص بكل صراحةٍ على أن الفتية الذين أووا إلى الكهف هم أفاقوا من نومهم ، وعليهم عثر الناس وعلى إقامة ذكرياتهم ألحُّوا ، وفي عددهم نشأت مذاهب فكرية وآراء ، وهم الذين لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين . فليت شعري بأي نص من النصوص القرآنية أضفت العقلية القاديانية على الأشخاص والأعيان صبغة القوم والأمة ولعله يقصد من خلال عمله التحريفي هذا أن امتداد الحياة الشخصية بما أن العقل لايتحمله عادةً فآثر أن يستدرك على القرآن الكريم دون أن يستدرك على هذه العقلية الخلخئة رغم أن الطموحات غير العادية مما يقصد القرآن تحقيقه في قلوب الناس في شأن الأجر الإيماني لايتم ولا يتحقق إلا إذا تعرض لهذه المظاهر غير العادية بجانب المظاهر العادية للأجر الإيماني ولو شطبنا من ذكرهم وقصتهم العناصر التي لاتتم تجربتها في العادة فإن ذا لايعني إلا إسقاط جناح الحمامة الذي يحمل رسالة الحبيب إلى الحبيب . وكان الهدف الذي استهدفه سياق هذه القصة في القرآن الكريم قد

أحكام تضمها سورة الكهف

وقصة أصحاب الكهف تنتهي بأحكام ، هلمّ بنا نتأمل في معناها ، ومدى ارتباط قصة أصحاب الكهف بتلك الأحكام ، وأول هذه الأحكام ما يلي:

تلاوة الكتاب

قال الله تعالى : (وَاتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُوْنِهِ مُلْتَحَدًا) أي الزَم قراءة الكتاب الذي أوحي إليك.[1]

وهذا الحكم يبدأ بواو العلخفة ، وأرى – وهو الذي يقتضيه المبادئ والأصول – أن ما بعد واو العلخفة مرتبط بما قبلها من مضمون الجملة ، وإذًا لِنَلْتَمِسْ هذا الارتباط .

ولعلك تذكر أن كلمتي «الرقيم» – التي أوّلناها بالكتاب – و «الفتية» – أي جماعة من الشباب – قد استوحينا – فيما استوحينا

قام هذا العمل التحريفي بنزع روحه منه وتقويض بنيانه . وهل لغرض منه إلا الإشعار بأن الإيمان يبقى في أحرج الساعات وأعصب الأيام منجاةً ، وللمؤمن أن يستفيد منها. نعم لو جعلنا قصة أصحاب الكهف الشخصية تؤمي إيماءً إلى عهد الاضطهاد والضيم الذي مر على النصرانية فقد يسع ذلك من باب الإشارة ، وأما استنتاج التعبير عن الحادث الكلي – دون الحادث الجزئي والشخصي – من النص القرآني فلا يعدو أن يكون تحريفًا ، وأضغاث أحلام.

(1) هذا ما فسر به الرازي «التلاوةَ» .

منهما – أن الحياة الكهفية التي تجعل المراء بعيدًا عن ضوضاء المدنية والحضارة ، وما يخاف فيها المرء –خبيعيًا – على نفسه من التدهور العقلي والخمود الذهني ، فإن التركيز الكبير على الحفاظ على القدرات الرشدية مما يحتوي عليه التعبيران : المجمل والمفصل عن القصة، يرمي إلى القضاء على هذه المخاوف. وإن هاتين الكلمتين: «الرقيم» و «الفتية» تدلان على أن الحفاظ على الرشد أي الإبقاء على سليقة الفكر والإدراك حيةً نابضةً فاعلة إنما يكمن تدبيرها العملي في الاستمرار على قراءة الكتاب والانصراف إليه في الحياة الكهفية بالإضافة إلى قضاء الحياة الكهفية بصحبة أصحاب وأصدقاء ، دون الانقطاع والتخلي عنهم ، وكأن ما تمناه الخواجه الحافظ[1] من الحياة في شعره الفارسي القائل ما معناه:

صديقان لبيبان ، وسكرانان من الخمر العتيقة
وفراغ ، وكتاب ، وناحية من نواحي بستان

قد تم تبريره من خلال النص القرآني .

ولكن الحق أنه لابد أن أعترف بأن هاتين الإشارتين اللفظيتين من القرآن الكريم إذا كان القارئ يراهما غير كافيتين في الدلالة على هاتين النتيجتين الهامتين فأحْرِ بذلك ، وأضف إلى ذلك أنه لاشك أن هاتين الكلمتين قد أوغلتا في الإجمال والإبهام بالنظر إلى

[1] الخواجه الحافظ (٥٢٩–٥٨٥هـ = ١١٣٥–١١٨٩م) يوسف بن أحمد بن إبراهيم، أبو يعقوب الشيرازي حافظ، كان شيخ الصوفية بالرباط الأزجواني بـ «بغداد» رحل في خلب العلم إلى بلاد عدة، وصنف ، وخرج ، وكتب الكثير ، كان ظريفًا حلوَ المحاضرة. (راجع الأعلام للزركلي ١٢٤/٨ ط : دارالعلم للملايين ، بيروت، لبنان)

النتائج التي يقصد تخليصهما منهما . فَهَبْ أن تاويل كلمة «الرقيم» بالكتاب حق وصواب ؛ فإن ذلك لا يقتضي أكثر من أنه يوحي إلى الاشتغال بالكتاب في الحياة الكهفية ، وأما أنه لابد من اختيار كتاب دون كتاب يحقّق هذا الهدفَ أم أن هذا الأمر يشمل كل ما توفر من أنواع الكتب : خيرها وشرها ، عاليها وسافلها ، رخبها ويابسها ، صادقها و كاذبها فلا شك أنه لايمكن القطع بذلك من خلال تأويل كلمة «الرقيم» بالكتاب أيَّ كتابٍ كان ، رغم أن أيام الفتن التي تحوِج المرء إلى اللجوء إلى الحياة الكهفية من المشاهد المجرب أن وباء الكبر و الخيلاء والإعجاب بالنفس تسود المجتمع الإنساني بشكل فاحش بجانب الأوبئة والأمراض الأخرى ، فنجد كل من لديه قدرةٌ فكريةٌ ، ومن يتّصِف ولو بمسحة من سليقة البيان والإعراب عما توصل إليه بقوته الفكرية نجدهم قد وقعوا في معضلة من تكوين النظريات و وضع التخطيطات كما يقومون بدعاء الإنسان المفتون إلى هذه الاقتراحات المختلفة المنحوتة ، وقد عبر اللسان النبوي عن عهد الفتنة هذه بـ «إعجاب كل ذي رأي برأيه».[1]

[1] حديث : إعجاب كل ذي رأي برأيه : شطر من حديث خويل رواه أبو داؤد (في الملاحم باب الأمر والنهي ٥١٢/٤ برقم ٤٣٤١ ط: عزت عبيد) ، والترمذي (في التفسير باب ومن سورة المائدة ٢٤٠/٥ ط: دارالكتب العلمية) ، وابن ماجه (في الفتن باب قول الله تعالى: (يـٰا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ١٣٣٠/٢ – ١٣٣١ برقم ٤٠١٤ ط: دار الكتب العلمية ، بيروت) كلهم عن أبي أمية الشعباني قال : سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة ! كيف تقول في هذه الآية: (وَعَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم) ؟ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : ائتمروا بالمعروف

وما أفظع وأشنع ذلك الوضعَ الذي يجعل بني آدم يتيهون حيارى في الطلاسم التي صورها القرآن الكريم قائلاً : (كَالَّذِيْ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِيْنُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ)[١] فتجد سيلاً عارمًا من الخطبات تفور ، وركامًا من الكتابات والمقالات بعضها فوق بعض ، ورغم أن خطابات وكتابات هذا العصر تطفح في الغالب بما يخلب الأفئدة ، ويأسر القلوب؛ ولكن لم يتم تقييمها المنطقي بالرأي الصائب يومًا من الأيام إلا تبيّنَ أن الذين يدعونهم جاهلون غافلون عن حقائق الحياة الأساسية ، وأن الدعاة لهم ليسوا أقل منهم جهلاً وغفلةً . ويبدو أنهم يخبطون خبط عشواء في التموجات والمظاهر الخارجة البادية على السطح دون الخوض إلى داخلها ، والغور في حقيقتها ، ويحاولون أن يجعلوا غيرهم يخبط في اللطمات السطحية الظاهرة .

وإن هذه الجهود غير الواعية للعواقب أدت فيما مضى ، وتؤدي اليوم ، وستؤدي في الغد إلى أن الذي اعتبرناه اليوم «سفينة نجاة» تحولت في غده إلى هاوية الموت ، وأن الإنسانية لاتزال تتحول وتتقلب ظهرًا لبطن في هذا العهد الفاتن ، يركلها ويرفثها النظريات المستجدة المتقلبة والتخطيطات المتنوعة الحادثة ،

وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا ، وهوىً متبعًا ، ودينًا موثرةً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك – يعني نفسَك – ودَعْ عنك العوامَّ ؛ فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيها مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله . وزادني غيره: قال : يا رسول الله ! أجر خمسين منهم؟ قال : «أجر خمسين منكم» . واللفظ لأبي داؤد ، وقال الترمذي : «هذا حديث حسن غريب» .

(١) سورة الأنعام /٧١ .

والاقتراحات اللامعة البارقة بأرجلها ، فلا يقرّ هؤلاء المعجبون بآرائهم قرارًا ، ولا يدعون سواهم يقر لجنبه مضجع .

ولاشك أننا لو جعلنا نطاق الدراسة والقراءة يشمل كل نوع من الكتب في هذه الأيام الوقحة الراكبة رأسها فربما يكون ذلك خير سبيل لقضاء الوقت وقطع أجزائه ، ولكن تأمل أن هذه الحياة الكهفية هل من شأنها أن تبقى حياةً كهفيةً بكل معنى الكلمة أو أن حياة التوسع في الدراسة والقراءة هذه لا تزال تبقى حياةَ فتنةٍ في الواقع مهما بدت في ظاهرها .

ثم تأمل في «الرقيم» وتفسيره بالكتاب ، وحاول أن تدرك هذه الإشارة المجملة التي تحتويها كلمة «الرقيم» وتفسيرها بالكتاب في ضوء أول حكم قرآني تلا قصةَ أصحاب الكهف ، وأعِدْ قراءة نصوص هذا الحكم ، وأمعن النظر فيها .

ولاشك أنه – كذلك – يرشد إلى قراءة الكتاب وتلاوته ، وهل ذلك يشمل كل كتاب بما فيه الكتاب الذي يدأب مؤلفوه في إعداده متخذين الحياة الإنسانية موضع بحثهم و نقاشهم ونصبَ أعينهم ؛ فهم يكتبون دون أن يحدِّدوا مبدأ هذه الحياة و منتهاها ، وما الذي عسى أن تتطلبه هذه الحياة أو يمكن أن تتطلبه إذا أدركنا مبدأها .

وعلى كل فإن كلمتي الرقيم والكتاب مهما أوغلتا في الإجمال والخفاء إلا أن النص القرآني : (مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ) هل يدع مجالاً للإجمال و الإيهام .

وإن كتاب رب الإنسان وخالق الكون هو الكتاب الوحيد

الذي من شأنه أن يوفر لقارئه ضياءً ونورًا ولو سادت ظلمات الفتن – بعضها فوق بعض – الكون من أقصاه إلى أقصاه وإن لنا أن نتعرف بهذا الكتاب على الحقائق الأساسية التي تكمن في حياتنا ، وبه نتوصل إلى الحقائق الثابتة القائمة التي لا تزحزحها تقلبات الليل والنهار ولا يمكن أن يتنكر لها المرء حينًا من الدهر ماضيًا أو حالاً أو مستقبلا . وهذا ما يدل عليه النص القرآني: (وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه)[1] التي يتضمن هذا الحكم . أرأيت الذي يحيط علمه بكل شيء : غائبه وشاهده ، وماضيه و قابله أنّى لأحد أن يبدل كلماته ؟! و أنّى يتسرب إليه البطلان ؟! وبناءً عليه ينتهي هذا الحكم بقوله : (وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُوْنِه مُلْتَحَدًا) .

وحاصل ذلك أن الحياة المثمرة في الواقع – سواء سميتها حياةً كهفيةً أو حياة اعتزال – لن يظفر بها حتى أولئك الذين يفزعون من كلمات الخالق بجانب كلمات المخلوق – ويعيشون أو يريدون أن يعيشوا حياةً لايعمرها مذاكرة كتب من صنع الخلق، ولا استفادة من كتاب أنزله الخالق البارئ .

فأنْذِرَ هؤلاء القوم بأن حياةَ العزلة هي الأخرى لن توفّر العزلة والهدوء ، وأنها وإن بدت فيما يبدو حياةَ عزلةٍ وخلوة وهدوء إلا أن منافذ الأبخرة التي يولّدها ذهنُ المرء وعقله – وإن لم

[1] ولاشك أن المراد من نفي التبديل والتعديل في السنن والقوانين ما يرجع إلى الجهل وقلة التجارب ، وأما مراعاة الأوضاع المختلفة التي يمر بها المريض ، وتحكيمها في مواصفة العلاج له ، فهو أمر يتطلبه علمُ الطب وحذاقة الطبيب ، وإن عدَم التعديل في جرعات الدواء حينئذٍ يعدّ دليلاً قلخعًا على جهل الطبيب ، وإهماله في مهنته ، وهذه هي قصة النسخ الوارد في الأحكام الإلهية، والقصةَ بطولها .

يكن غيره – لاتزال مفتوحةً على مصراعيها عليه . ومالم تُمْلأ هذه الجمجمة الإنسانية بالأحجار مكان اللب والعقل ، فإنه لايسع أحدًا أن يجد السيل العارم من الوساوس والأوهام التي يثيرها داخلُه . وإن التجربة تؤكد عليهم أن ما اعتبروه «ملتحدًا» ، فلجؤوا إليه ، قد واجههم بمفازة من الأفكار والرؤى التي يفرزها عقولهم وأذهانهم . فيتبين أن الحياة الكهفية الحقيقية لن يتوصل إليها المرء لا في الخلوة ولا في الجلوة إذا ما أعوزه توجيهات ربانية.

والذين يرغبون في الاستجمام في الخلوة الإلٰهية التي وصفها القرآن الكريم بـ «ملتحدًا» قد يحسن بهم أن يهتموا بتفسير الإمام الرازي أي اهتمام ، فقد قال الإمام في تفسير كلمة (اتْلُ) ما معناه العام : تابِعْ قراءتَك . قال : «اتل» : يتناول القراءةَ ، ويتناول الإتْبَاع أيضًا.[1]

والذي له إلمام بمعنى كلمة التلاوة – التي هي أصل : «اتل» – لا يسعه أن يتنكر لتفسير الإمام هذا. وإن الحديث ليطول جدًا ، وإلا فقد كنا في حاجة – وهو الذي أرغب فيه – إلى أن أتناول تفسير الإمام المجمل هذا بشيءٍ من البسط والتفصيل، غير أنه موضوع مفرد بذاته ، وإنما يهمني هنا – بعد كلمة «الرقيم» – كلمة «الفتية» التي أوّلناها بـ «جماعة من الشباب» كي نستوحي منها اتخاذ رفقة في الحياة الكهفية . و – كما أسلفت – هذه الكلمة لا تفي بهذا الهدَف المنشود ثم ما ينشأ من التساؤلات عن هذه الحياة الكهفية ، فمثلاً : من هؤلاء الرفقة الذين سيتم

[1] تفسير الرازي ٧٠٩/٥ .

اختيارهم ؟ وما هي المعالم التي تهدينا إلى هؤلاء القوم الذين يمكن أن نستفيد منهم في الحياة الكهفية ، ويعودون علينا بخير ؟ و الأهم من كل ذلك التساؤل عن نوع العلاقة مع هؤلاء وهل يستلزم ذلك أن يتوافق جميع الرفاق بعضهم مع بعض في جميع مناحي الحياة ، وأن يصطبغوا جميعًا صبغةً واحدةً في سيرتهم وسريرتهم . ولا شك أن هذه الكلمة الواحدة لاتوفر لنا ردًا كافيًا شافيًا على هذه التساؤلات كلها . ولكن اقرأ الحكم التالي للحكم الأول .

الحضّ على الصبر

قال الله تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ ، وَالعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهْ) وأهم هذه الكلمات التي يتضمنها هذا الحكم إنما هي الكلمة الأولى : «اصبر» ، ومعناها : أمْسِك .

ولا يخفى أن الصبر إنما يطالب به في الغالب في الأوضاع والمواقف المعاتية . وعليه إذا استنبطنا منه أنه لايمكن التوافق والانسجام الكامل بين الرفقة ، فهذا ما يقتضيه كلمة «اصبر» وكأن السائرين إلى الحياة الكهفية أنْذِرُوْا - قبل كل شيء - بأن الشريطة الأولى على من يخوض هذا الغمار أن يقوم كل رفيق ومصاحب بإيقاظ علخفة الصبر في نفسه تجاه رفيقه ليستديم هذه العلاقة الودية ؛ لأن التوافق والانسجام الكامل في جميع مناحي الحياة من أقصاها إلى أقصاها ، وفي كل خطوة من خطواتها ، قد لا يرجى بين رجلين من أب و أم واحدين ، بل نجد الخالق القادر - رغم إبقائه على توحّد المتطلبات النوعية - قد ميّز بين أفراد

البشر في مظهرهم و صورتهم الظاهرة ، تمييزًا يجعل فردين من النوع الإنساني ربما لايوافق أحدهما الآخر ذاتاً وسمتًا وصوتًا ولهجةً ، وإنما يعرفون بمظاهر الاختلاف هذه مما يتصف به كل فرد من أفراد البشر . ثم إنك إذا لاحظت المتطلبات النوعية ألفيت كل شخص : عينَه وأذنه وأنفه بل كل عضو من أعضاء جسده يوافق محل ذلك كله محلّه من الشخص الآخر مع أن الخالق القدير لم يكن يعز عليه - إذا شاء - أن يركب العين في بعض الأشخاص البشرية في قفاه دون وجهه مما هو المشاهَد . وعلى كل فهو يعكس ظاهرةً عجيبةً من التوحّد والتعدد.

وما تراه من اختلافات المظهر بين شخص وآخر تجد - كذلك - كل فرد من أفراد البشر يحمل نوعًا من الخصائص الذاتية فيما يرجع إلى مشاعره و ميوله الداخلية ، وفطرته وسليقة تفكيره، وما إلى ذلك ، وإن لم نطلع في بدء أمره على هذه الخصائص الشخصية .

وإذا كان هذا هو الواقع فالتوافق والانسجام الكامل بين الرفقة والأصحاب في جميع مناحي الحياة و في كل جانب من جوانبها ، إذا ما رجاه راجٍ ، فإنه لا يعدو أن يكون رجاءً بلخلاً بكل معنى الكلمة ، ورجاءً لايجني منه صاحبه - بعد ما يجرّبه - إلا الخداع والحرمان . فالذين يرغبون في الصبر على حبل الصحبة والرفقة ، ويحرصون على أن يجنوا ثمرات منافع الرفقة لآخر لحظة من لحظاتها، إنما نشير عليهم بأنه لابد وأن يواجهوا في حياة الرفقة هذه - بجانب مواقف الوفاق - موقف الخلاف وما يسوء

المرء وينغص عليه صفو العيش ، ومن هنا أصدر القرآن الكريم أمره باختيار الرفقة بقوله : (وَاصْبِرْ) وهذا – ولا أقل فيما أرى – ينمّ عن الرد على من يتساءل عن نوع العلاقة مع الرفقة.

اختيار الرفقة

والأمر الثاني مما يُثَارُ هنا يتمثّل في معيار اختيار الرفقة ، أي أنّ الرفقة الذين أمر القرآن الكريم باختيارهم ما هي الملامح والآيات التي يمكن أن نتوصل بها إليهم ؟ فاقرأ الرد على ذلك في النص الآتي: (الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَه).

ومما نشاهد في الغالب أن الناس في مثل هذا الموضع ، يستخلصون من النصوص القرآنية خلاصةً مصطنعة من عند أنفسهم ؛ ليمروا عليها و هم يشعرون أو لا يشعرون . فمثلاً يستخلص من هذا النص السالف الذكر أن القرآن الكريم يأمر – بالنسبة إلى الرفقة – أن يتم اختيار أصحاب الدين ، إلا أن هذه الغفلة – في خصوص النصوص القرآنية على الأقل – يجر على صاحبه حرمانًا كبيرًا .

ولاشك أن الذي يحمل هذه الصفات لايكون إلا صاحب دين ، ولكن كل صاحب دين لايحمل هذه الصفات فيما أرى ؛ فإن فئةً كبيرةً من أتباع الدين في كل عصر تعتبر التراتيب الدينية المتمثلة في قوانينها وسننها أقصى ما يتطلبه الدين ويقتضيه ، وترجو أن الحياة الفردوسية ستتجلى لها كنتيجةٍ طبيعيةٍ كما أن تناول الترياق يؤدي بالمريض إلى الشفاء والصحة ، فلا يهم هذه الفئةَ إلا قيمةُ القانون وأهميته ، وأما الذي قَنَّنَ هذه القوانين

وشرعها ، فلا ترتبط به سوى الارتباط القانوني والنظامي ، ولا ترغب في الارتباط به ، كما أن المريض إنما يهمه ما يصفه له الطبيب من الأدوية ، ويدرك أن التوصل إلى الصحة والشفاء لايحتم عليه الارتباطَ المباشرَ بالطبيب .

وبإزاء ذلك فئة من أتباع الدين أهمّ ما يميز حياتهم ما يعتبره القرآن الكريم علامةً و آيةً ، وعرّفهم بها في نصه الآنف الذكر ، وهو قوله تعالى: (الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ والعَشِيِّ) .

فهذه أول علامة قرآنية يتعرف بها على أولئك القوم ، ويقول الشوكاني[1] في تفسير الآية : كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات.[2]

ولا يخفى على العارف أن هذا ما يقتضيه الأسلوب العربي ، وحاصله أن بث الشعور بالعلاقة الاحتياجية مع خالق الكون ورب العالمين ، وإحياءَه، في دخائل الإنسان بشكلٍ دائمٍ مستمرٍ لايشوبه انقطاعٌ و انفصال ، ثم تحكيم هذا الشعور في الرجوع إلى الله كلما مسّته حاجة صغيرةً كانت أو كبيرةً ، وفي دعائه إياه مما يتحوّل شغله الشاغل ، ودثارَه وشعارَه ، وإن ما يسببه هذا الفقر التام . والاحتياج المطلق والمسألة المحضة ، والاستجداء الخالص من السمو والعلو به وما يجود به عليه هذا الذلُ والهوانُ من العز

(1) الشوكاني (١١٧٣–١٢٥٠هـ = ١٧٦٠–١٨٣٤م) : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني : فقيه ، مجتهد من كبار العلماء باليمن ، من أهل صنعاء ، نشأ بصنعاء ، وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ ، ومات حاكمًا بها ، لـ ١١٤ مؤلفًا ، منها : نيل الأوطار، وفتح القدير . (الأعلام للزركلي ٦/٢٩٨)

(2) تفسير فتح القدير ٣/٢٧١ .

والرفعة ، هو الذي يصوره هذا النص القرآني : (يُرِيْدُوْنَ وَجْهَه) .

والحاصل أن ما يجزاه الداعون ربّهم بالغداة والعشي على دعائهم وندائهم ، يتجلى لهم فيه ربهم وفضله وكرمه ، أكثر من نتيجة منطقية عن حياتهم القانونية . وإن أنظارهم لاتحيد يومًا من الأيام عن وجه الله وحتى الجنة إذا ما تتمثل لهم يرونها تُمثِّل لهم قالبًا من رضى الله ورضوانه ، ويرون أنه تعالىقد تجلى لهم في مرضاته .

وخلاصة القول أن العلاقة الاحتياجية مع الرب تعالى ، واتّخاذ وجهه مقصدًا ومرادًا ، هما العلامتان اللتان عرّف بهما القرآن الكريم الرفقةَ الذين تتأكد الحاجة إليهم من خلال كلمة الفتنة الواردة في قصة أصحاب الكهف . والحقُّ أن الحياة الكهفية - التي يُنْصَحُ بها - وخاصةً في أيام الفتنة - لا يمكن الانتفاع بها إلا بمثل هذه الرفقة ذات الدين التي أصبح الدين مطلبًا داخليًا لامحيد عنه في حياتها .

وأما الذين يقضون حياتهم مسايرين للقانون المفروض عليهم من خارجهم ، فمن الصعب عليهم الصبر على هذه اللطمات في أيام الفتنة العارمة ، والصمود لها . فأرى أن القرآن الكريم عرّف بهاتين العلامتين على المعيار الذي يمكن تحكيمه في اختيار الرفقة التي تحقق هذا الهدف .

نوع العلاقات والارتباطات

وأما نوع العلاقات والارتبلخات بهذه الرفقة في هذه الرحلة، فكما قلت : إن كلمة «اِصْبِرْ» تشير إليه إشارةً مجملةً ، فتأملْ في

تفاصيل هذا الإجمال ، تَجِدْ في نهاية هذا النصّ قوله تعالى : (وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

تأمَّلْ قبل كل شيء - في كلمة «زِيْنَةَ» التي تقدمت على «الحَيَاةِ الدُّنْيَا» في هذه الآية ، والحق أن ما يلتذ به المرأ في هذه الحياة الدنيا الأرضية ، وما يهيئ به لنفسه من أسباب الترف و وسائله ، وإن لم يكن مما يضطر المرأ إلى مباشرته مما اصطلحوا عليه في علم الاقتصاد الحاضر بـ Luxury (وسائل وأسباب الترف) أرى أن القرآن الكريم يصف مثل هذه الأسباب بـ «زينة الحياة الدينا» .

ولا يخفى أن مباشرة أسباب الزينة هذه لم يستنكرها القرآن الكريم فحسب ، وإنما أنحى باللآئمة والزجر على الذين يستنكرونها ، وإذاً فلا يمكن أن يتوخى من المنع عن اتخاذ زينة الحياة الدنيا الهمَّ الأكبر والغايةَ المنشودة ، إلا التنبيه على أنه لا ينبغي أن نجعل أسباب الزينة هذه نصبَ أعيننا ، وبتعبير آخر : بذل كل ما لديه وراء ذلك ، وتجنيد الطاقات والقدرات كلها فيه، وله العيش ما عاش ، وعليه الموت إذا ما جاءه الأجل كما يعتبر أئمة العهد الجاهلي الجُدُد ذلك هدفَ الإنسان الأولَ والأخيرَ، ويكاشفونه بكل صراحة وبشكل لالبس فيه ، وبتعبيرات خلاّبةٍ فاتنةٍ أمثال «مستوى العيش العالي Raise of Standard of Living وما يماثله .

فهذا معنى اتخاذ زينة الحياة الدنيا الهدفَ والغايةَ ، وهلم بنا نتأمل فيما يرشد إليه هذا الحكم.

ولا يخفى أن الله تعالى حذّر في الآية السالفة : (وَلاَ تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) من صرف الأنظار عن الرفقة في الحياة الاجتماعية ؛ ولكن هذا المنع ليس على إطلاقه ، دون قيد و شرط ؛ فإن ما يفيده قوله الآتي : (تُرِيْدُ زِيْنَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا) يدل على أن المنع مقيَّد ومشروط بهذه الحال.[1]

وحاصله أن القرآن الكريم يمنع من صرف الأنظار عن الرفقة لاتخاذ زينة الحياة الدينا الهدفَ المنشودَ والهمَّ الأكبر ، فكأن ما أفاده قوله : (اصْبِرْ) مجملةً يفَصِّله هذا النصُ القرآني .

وودّي أن أقول – فيما توصلت إليه بفهمي القاصر على الأقل – أنه إذا كان بعض الرفاق يباشر أو تعوّد – لسببٍ مَا – مباشرةَ أسباب الزينة والترفيه في حياة الرفقة الدينية علاوةً على الحاجيات اللازمة في مختلف شعب الحياة من اللباس والطعام وما إلى ذلك ، خاضعًا لما يتطلبه ميوله الطبيعية وفطرته الذاتية ؛ فإن الحظر والمنع المقيد المشروط يفيدنا أنه لايمكن أن نعتبر موقف هذا الرفيق يتنافى وعلاقةَ الرفقة الدينية ، ولولا هذا هو الهدف المنشود لأُخْلِقَ منع صرف النظر عن الرفقة ، ولم يسع أحدًا من الرفاق أن يعتبر نفسه حرًّا مستقلاً عن مشاعر وأحاسيس غيره من الرفاق ويتخلى عنهم في ناحية من نواحي حياته .

وإذاً لنا أن نقول دون خوف : أن ما يسود في بعض الفئات المتعنتة من الأوساط الدينية من اعتبار مباشرة أسباب الزينة أمرًا

[1] فإن القواعد النحوية فرضت على أهل التأويل جميعًا أن يعتبروا هذا الشطر من الآية حالاً نابت مناب قوله : (لاَتَعْدُ عَيْنَاكَ) .

مزريًا بها ، وإن لم تعتبر ذلك خروجًا على الدين[1]؛ فإن مثل هذه الميول والمفاهيم من الصعب أن يحظى بتأييد من القرآن الكريم.[2]

والموقف القرآني الصريح الحق من هذا ليس إلا ما عبّر عنه الشيخ / سعدي بشعره الفارسي المعروف ما معناه :

«ليس هناك من حاجة إلى وضع القلنسوة البركية على الرأس.
كُن زاهدًا ، وَضع القلنسوة التتارية على رأسك» .

فالشيخ / سعدي لايهدف من خلال كلمة «الزاهد» إلا أن الحفاظ على حياة الإيمان والعمل الصالح الذي يحمِل المرأ على اتخاذ الرفقة ، فلن يُتْرَك حبل رفيق من الرفاق على غاربه ليقف موقفاً ينال من أهدافه السامية كائنًا ما كان ، أما فيما عدا ذلك فإن على كل رفيق من الرفاق أن يتسامح مع ما يتبناه غيره من الميول الشخصية وإن ساءه شيءٌ من ذلك فلا عليه إلا أن يصبر إبقاءً على علاقة الرفقة كما يرشد إليه القرآن الكريم .

نكتــــــة

وكما أن هذا الحكم القرآني المقيد المشروط يؤدي بنا إلى هذه النتيجة السالفة ويحمل في ثناياه دعوةً للفئات المتعنتة من

[1] لقد شهدت أنا من أصدقاءي من أتباع الدين من يقطع بأن فلانًا من الناس لن يكون وليًا من أولياء الله ، وذلك بمجرد أن راه جالسًا على الكرسي جلسةً عاديةً أو يتناول السيجارة وما إلى ذلك ، ويقول : إن الجالس على الكرسي أو متناول السجارة لن يكون من أصحاب القلوب رغم أن الذين حكموا عليهم بهذا كانوا ممن يصدق عليهم قول الله تعالى: (يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) ولم يكن يهمهم إلا ابتغاء وجه الله ومرضاته .

[2] ولتفصيل الموضوع ارجع إلى كتابي : «إسلامي معاشيات» (الاقتصاد الإسلامي) .

الأوساط الدينية إلى التبصر والتدبر، كذلك نجد الفئة المستجدة المتوسعة الموارد من المسلمين الذين يعتبرون دينَهم بحرًا محيطاً ، وقلزمًا زخّارًا لايكدّر صفوه ما يشوبه من عناصر اللادينية البشعة، وكأن دينهم معدن ملحٍ يحوِّلُ كلَ ما يصل إليه من اللادينية دينًا ومذهبًا ، وإنما مثلهم مثل الصُرَعَة الذي ذكره الشيخ / سعدي ، والذي رغب أن يشِم الواشم في صدره أسدًا ليس له عينٌ و لا آذان ولا رأس ولا ذنب ثم يكون أسدا من الأسود الضواري.[1]

والحق أن هذه الفئة من الناس قد افتتنت بـ«سمو المستوى المعيشى وعلوه» وما إلى ذلك من التعبيرات المعسولة المزخرفة ، وجعلت زينة الحياة الدنيا الهدفَ المنشودَ من حياتها ، وتودّ بكل سذاجةٍ أن يتحول هذا الهدف جزءًا من حياة كل مسلم . ثم من الطرائف أن هذه الفئة المغرورة المفتونة التي تتغنى بالقرآن في قاعات الطرب واللهو، تظن كل الظن أنها لم تغفُلْ عما أمر به القرآن الكريم من اتخاذ رضى الله تعالى الهدف المنشود وغايةَ الغايات ، له العيش ، و عليه الموت ، ولاهي ممن جنى على نفسه بالعدول عن ذلك قِيْد أنملة .

وما أعجب أن يستوي في أعين هذه الفئة مكان الصاعد إلى الجبل ، ومكان النازل منه ، وإن الذي يحيى علاقته الاحتياجية مع

[1] اقرأ تفاصيل القصة في المثنوي له . وملخص القصة أن الواشم كلما أخذ يشم في صدره ليصوره عضوًا من أعضاء الأسد صاح الصرعة قائلاً : أفلا تتم صورة الأسد بدون ذلك ؟ وهكذا دواليك حتى خرج الواشم إبرته وصاح : من ذا الذي رأى أسدًا ليس له ذنب ولا بطن ولا كذا ولا كذا ، إن أسدًا هذا شأنه لم يخلقه خالق الكون .

ربه وخالقه ، ويستمر في الصعود إلى هذا الرب العظيم العالي ويربط نفسه بالذات الباقية الدائمة ، ليتلقى منها ضمانًا لوجوده الفاني المنقطع فهذه المساعي الصاعدة التي يبذلها الذين يبتغون وجه الله ، ويجعلونه الهدفَ المنشودَ وما يؤدي بهم إليه هذه المساعي من العواقب والنتائج هل يمكن أن تتمثل هذه النتائج بعينها للذين اتّخذوا إرواء مشاعرهم الالتذاذية ، وتوفير أسبابها الهدفَ الوحيْدَ والغايةَ المنشودةَ من حياتهم و وجودهم ، ولايزالون يترددون فيها ليذهب كلُّ ما يملكه الإنسان من ثروة الطاقات الظاهرة و البلخنة ضحيةَ مظاهر الترف والدعة ، وزَلاَّت بعض الارتعاشات الهوائية السديدة والخلخئة والعالية والسافلة .

فأيًا من الأساليب والتعبيرات اخترتَه ، ومهما أخلقت عليه من الأسماء ، إلا أن التجربة المنطقية الواقعة لهذا النداء المعسول المتعالي مثل «سمو مستوى العيش وعلوه» لن تجود عليك إلا بأسباب الزينة القليلة هذه ، مما يستلذه أو يمكن أن يستلذه مشاعرنا لفترة قليلة من الزمان . وربما لايهمّك كثيرًا إذا لم تُمعِنِ النظر فيه ، وإلا فالحق أنه – بعد اعتبار هذه الغاية الدنيا مما يبدو لك عاليًا ساميًا جزءًا مِن الحياة الإنسانية – ينصاع جرأة الرجل الذي يتصيد ما يتمناه بقوسه وسهامه – في حب الزينة النسائية لاغيرُ ، وأُؤكد لك أن كل أمل في المستقبل يحوّل فردوس اليوم نارًا وجحيمًا . كما أن فردوس الجمهورية – بعد ما دخلت الحدود الاشتراكية – أصبحت اليوم يرهقها الندم والحسرة كلما تذكرت جحيمها . فمن لي بأن الاشتراكية هي بدورها لن تعاني

من مغبة الندم والحسرة الأليمة هذه في غدها ؟!.

من يجب اجتنابه

ودَعْ كل ذلك ، وإذا كنت لاتستطيع الاطلاع على ما يحمله هذه الغاية الدجالية في العهد الجديد من المغبات المحفوفة بالأخطار في خياتها، ولاتستطيع أن تخرق الأستار الزائفة التي أسْدِلَت عليها، وإن بصرك ليشخص بلمعان التعبيرات المزخرفة ، فلا تتجرأ على انتقاد القول ، فهذا القرآن الكريم يسحب إليك ليس القولَ فحسب وإنما القائلَ نفسَه فاقرأ إن استطعتَ – ما قال : (لاَ تُطِعْ) ثم ما أعقبه ، وأنهى به سياق الكلام ، وهو قوله : (من أغْفَلْنَا قَلْبَه عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وكَانَ أمْرُه فُرُطاً) .

والذين ينفخون اليوم في التجمعات البشرية «صور مستوى العيش وارتفاعه» ويثيرون ضجةً في العالم ، فترتسم في جباههم هذه الخطوط العريضة القرآنية هل هي في حاجة إلى كبير تأمل . ولعل هذه هي أبرز وأكبر خصائصهم أين ما ساروا وحلّوا ، ولا يعجز عن رُؤيتها من له بصرٌ ، ولا يصعب عليه أن يتعرف عليهم بهذه النصوص القرآنية .

وحقّ لي أن أقول: كما أن الأحاديث النبوية تصرح بأن «ك، ف ، ر» سيكون أبرز ميزة تتجلى في جبين المسيح الدجال مما يقرأه كل قارئ وأمي ، كذلك بعينه شأن هذه النصوص القرآنية يمكن أن يقرأها كل قارئ ، وأمي في جباه أصحاب هذا القول .

تأمل : أن هذه الفقرة تحتوي على أجزاء ثلاثةٍ، وأرى أن كل جزء لاحق منها ناتج حتمي ونتيجة منطقية عما قبله .

قال الله تعالى : (مَنْ أغْفَلْنَا قَلْبَه عَنْ ذِكْرِنَا) وهذا هو الجزء الأول من أجزاء هذه الفقرة . وهذا تعبير قرآني عام عما يجره الطغيان المتعمد ونشوة السلطة من العذاب فأول عذاب يسلطه الله القادر المطلق على هؤلاء العصاة أن ما أودع في الفطرة الإنسانية من الشعور بالبحث عن الحقائق الأساسية للحياة ، يعطِّل ويُفْلِج فيهم هذا الشعورَ يومًا فيومًا حتى ينتهي بهم إلى الهلاك والدمار ، مما وصف القرآن الكريم مختلف مراحله بـ (الختم) ، و (الرين) و (الغشاوة) و (الضلال) و (الإغفال) . والقضايا النفسية التي تناولها القرآن الكريم قد لَقِيَت فيها هذه الأنواع من العذاب الذهني والفكري وما يميز بعضها عن بعض ، اهتمامًا كبيرًا مما لايسعنا الخوض – هنا – في تفاصيله .

فهذه الأخذة النفسية من مواجهة العقاب ، إنما تستلزم أن ما يضعه الواضعون من دستور الحياة في هذا الوضع المتسم بالعقاب الذهني ، لن يمتّ بصلةٍ مَا إلى الحقائق الأساسية للحياة . ولايخفى أن أمثال هذه الأمور التي ليس لها أساس ولا أصل ، مما تمليه النفس الإنسانية ، يعبر عنها في اللغة العربية بـ(الهوى) .

فالجزء الثاني من أجزاء هذه الفقرة وهو قوله: (واتَّبَعَ هَوَاهُ) يشير إلى هذا الناتج اللازم الحتمي . وأخيرًا بماذا تُسَمَّى برنامج هذا المسافر المسكين الذي يجهل سائر ما يهمه في سفره : أي من أين سار ؟ وإلى أين يسير ؟ ولم يسير ؟ ثم تُسَوِّل له نفسه أنه يكمل رحلته حسب برنامج موضوع مخطط من ذي قبل . إن كتابًا نُزِع منه أوراقه الأولى والأخيرة لن يعدو كل ما يُنْحل إليه إلا أن يكون

من إفرازات عقلية ناحلها ومختلقها .

والجزء الثالث من هذه الفقرة هو قوله تعالى: (وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً). والفرط في اللغة العربية : كل أمر أو شيء تجاوز حدّه الطبيعي، وبتعبير آخر : كل أمر يعوزه الترتيب والاتّزان فهو فرط. فإذا عاش المرء بعيدًا عن الأساس ، ومتكلاً على القوانين الهوائية ، فأصْدَقُكَ أنه لن يؤدي به إلا إلى الفرط وفقدان الاتزان والانسجام. والعالم يرتجح ويتمايل اليوم بين هزات الإفراط والتفريط هذه .

فانظر إلى الذين جعلوا سمو مستوى العيش الهدفَ المنشودَ والغايةَ القصوى .. فلما تخبطت بهم الرأسمالية قطعوا بأنه يجب أن يضحي الفقراء والمساكين كلُّهم أنفسهم إبقاءً على حياة ثري من الأثرياء إذا لزمهم ذلك . ثم لما غلبهم عفريت الاشتراكية أصبحوا يهددون اليوم بأن جميع الأثرياء سيُحَوَّلُوْنَ فقراءَ إبقاءً على فقيرٍ واحدٍ ومسكين واحدٍ .

وهذا الوضع من الفرط وفقدان الاتزان ، لايختص بناحية من نواحي الحياة إذ لايتخذون خطوةً في مضمار من مضامير الحياة خاضعين للدستور الهوائي الفاقد الأساس إلا اتصفت بالنقائص التي نبّه عليها القرآن الكريم . ولو ذهبتُ أشرح كلمة الفرط مستعينًا بالواقع والأحداث لجاء كتاب ضخم إلا أنه لايسعني – وفي هذه المقالة على الأقل – أن أتعرض لمزيد من التفاصيل .

وإن الأوضاع التي تفرز الحياةَ الكهفية كسبيل وحيد إلى الحفاظ على الإيمان والعمل الصالح كنا في شرح جوانب مختلفة

منها ، حتى انتهينا إلى هذه الآية من سورة الكهف التي تعرّف على الذين يجعلون الحياة الدنيا غايتهم المنشودةَ بهذه العلامات والآيات أي أن ربهم يجعل قلوبهم في غفلة عن ذكره ، وإنهم يفرون وراء أهوائهم ، وما تمليه عليهم نفوسهم ، وإن أمورهم كلها تتصف بالفرط والتجاوز عن حدها . فمن اتّصف بهذه المعالم والآيات أمر في خصوصهم – أول ما أمر به – بأمر منفي وهو (لاَتُطِعْ) مما سبق أن أشبعناه بحثًا ودراسةً.

وحاصله أنهم نُهوا أن يحذوا حذوهم ويتطلعوا إلى أسوتهم العملية ، وتوجيهاتهم العلمية في كل جانب من جوانب الحياة . فالذين يرغبون أن يعيشوا أوفياء بإيمانهم ، وأن يموتوا عليه ، إنما عليهم أن يُثبتوا في أذهانهم هذه المعالم والآيات التي جاء بها القرآن الكريم . ولا يفتنهم ما يُدْعَون إليه بأروع التعبيرات وأعسل العناوين وأبرقها أمثال : «الأمم المتمدنة المثقفة» ، و «الأجيال المثقفة المتمدنة» وما إلى ذلك . وإنما يهمنا أن نختبر واقع ذلك بما صرح به القرآن الكريم من السِّمات والعلامات ؛ فإن كانوا يحملون هذه السمات والعلامات فليس للمؤ من إلا أن يمتثل قوله تعالى : (لاَتُطِعْ) ، يصمد له ويصبر عليه ، بكل ما أعطي من إرادة وعزم . ولِيَنْأَ بجانبه عن الجري وراء هؤلاء، ويفر منهم فراره من المجذوم ما دامت أهواؤهم تتسم بالسمات الثلاث البارزة التي جاء بها القرآن الكريم .

قل الحق آمن الناس أم لم يؤمنوا

وهل يكون المؤمن قد قضى ما عليه من الحيطة والاجتناب

وينقضي دوره عند هذا الحد ؟! والواقع المجرب الملموس أن هذه الحيطة والاجتناب لايتيسر ثبوت الأقدام والصبر عليها . فلا ينجح في امتثال هذا الأمر القرآني المتمثل في قوله : (لاَتُطِعْ) حقّ النجاح إلا النذر القليل من النفوس السعيدة الموفقة.

ولا غرو فإن وجود المؤمن وحتى في أفظع الساعات و أعصب الأزمنة لا يبقى وجودًا «لازميًّا» . وقصدى بـ «الوجود اللازمي» أن قصر المنافع على الذات ليس من شأن الإيمان ، وإن اجتذاب المؤمن غيرَه معه من أهم ما يتطلبه البيعة على الإيمان فاقرأ ما يتلوا هذا النهيَ من قوله تعالى: (قُلِ الحقُ مِنْ رَبِّكُمْ) .

وظاهره يدل على أنه تتحتم المناداة والقول بالحق وبما تحمل الحياة من حقائق غير مبالٍ بما يواجهه المرء من الأوضاع القاسية وما يشهده من الأحداث والوقائع . فعلى المؤمن أن يكرر ذكر هذه الحقائق والثوابت كتابةً وخطابةً وبغيرهما من وسائل البيان والتذكير إلا أن القرآن الكريم حين أمر المؤمن وكلّفه بتبليغ الرسالة أتبعه بما يخالف سنَنَه ودأبه حيث قال : (فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) .

فهذا النص القرآني يوحي إلى أن الذي يحمل على عاتقه عبء تبليغ الحق ليس له أن يأمل – دون جدوى – أن صوته و دعوته يجب أن تلقى آذانًا مصغيةً في هذه الأوضاع النفسية التي يمر بها العالم. فكأن تبليغ الحق والصدع بما يؤمر به الداعية في ذلك العهد يعتبر وظيفةً شاقةً هامةً . ولعل هذه الزيادة الخاصة بهذا الموضع يُتَوَخى منها تحذير القائمين بالدعوة في هذه الأوضاع

الحرجة العصيبة المعادية من أن يؤدي بهم الفشل والخيبة إلى الغضب والثوران واليأس وتثبط الهمم وانهيار المعنوية.[١]

فالواقع أن الوضع الذي يلجئ المرءَ إلى الحياة الكهفية وأسباب حدوث هذا الوضع ، وعواقبه ونتائجه ، ثم ما يستلزمه الحياة الكهفية نفسها ، وما يعقبه من آثار ، ومستلزمات هذه الحياة وآثارها ، واجبات ومتطلبات هذه الحياة ، وغيرها من الأسئلة التي تخص بالحياة الكهفية إذا تأملنا وجدنا ردودًا كافيةً لِحدٍ مَا على هذه التساؤلات في هذه الآيات مما تحدثنا عنه سابقًا . من ثم لا زلنا نتقيد لحد الآن بأن نعرض تفاصيل جميع جوانب آيةٍ واحدةٍ أمام الذين يرغبون في فهمها وإدراكها والتقيد بهذا المبدأ مما سبب لإخالة الموضوع هذه الإخالة ، وقد ملّ الناس هذا لحد ما إلا أن الهدف الأساسي من تقييد هذه السلسلة من التذكير والتوعية لن يتحقق – ولا أقل فيما يرى كاتبها ومقيِّدها – إلا بهذه الإخالة والإسهاب .

ولكن الرزية كل الرزية أن عامة المسلمين قد عُوِّدوا – فيما

---

[١] وما ورد في بعض الآثار من قوله صلى الله عليه وسلم : «فعليك بخويصة نفسك . عقب ذكر بعض الأوضاع الخاصة ، وما أمر الله تعالى في كتابه : (عَلَيْكُمْ أنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ) (سورة المائدة /١٠٥) فحاصله أنه لاحاجة بالمرء – في شأن نجاحه ورسوبه في مهمته – أن ينظر إلى من عداه، فمن نجا فيها بنفسه فقد سلم وغنم ، وأما القول بالحق والصدع به فلا يختص بزمن دون زمن . وهذا النوع من الدعوة مما أمر به في كل زمن. (انتهى كلامه) قلت : قوله : فعليك ...: شطر من حديث رواه ابن ماجه في الفتن باب قوله تعالى : (يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) ٢/١٣٣٠–١٣٣١ (٤٠١٤) عن أبي ثلبة الخشني رضي الله عنه .

يتعلق بفهم القرآن الكريم – أن يَدَعُوا الآيات القرآنية – بعد ما يتلونها – في محالّها ومواضعها ، ويصرفوا النظر عنها إلى بيان وقصص وروايات غير قرآنية . وبما أن هذه المقالة كتبت على خلاف هذا المنهج وحاول كاتبها التقيد بشكل عام بالآيات القرآنية ، فربما سَآء هذا الصنيع بعضَ الناس فمعذرةً إليهم ، وها أنا أبشرهم بأني لن أحملهم – فيما يأتي – على التدبر في آية تلو آية وكلمةٍ تلو كلمةٍ من القرآن الكريم ؛ فإن الهدف قد تَحقَّقَ وتَجسَّد . وأرى أن الآيات التالية من سورة الكهف تتناول الرد على بعض التساؤلات الهامشية مما يكفيه كلمةٌ مجملةٌ واحدةٌ إذا ما قابلها القراء مع القرآن الكريم واستمروا عليه .

فالصدع بالحق يجب أن يقوم به المرء غير مبال بإيمان من آمن، وكُفْرِ من كَفَرَ. وهذا الأمر الإيماني الخاص بالحياة الكهفية نص القرآن عقبه على أن الذين لايؤمنون قد حملهم إفرلخهم و تجاوزهم الحد على ارتكاب هذا الظلم والضيم ؛ فإن الظلم عبارة عن تجاوز المعالم والحدود التي وضعها القادر المطلق ، فيضطر الظالم إلى أن يعيش حياته على خط معاكس لمرضاة القادر وسننه التي سنها لعباده .

ويستلزم ذلك أن يجد هذه الفئة الظالمة في الحياة الآخرة جميع مشاعرها و رغباتها متصادمة مع القادر وسننه . وإن النتيجة الطبيعية لهذه الحياة الظالمة هي التي يُسَمِّي قالَبها القرآن الكريم بـ (جهنم) و (النار) وما إلى ذلك ، كما لايخفى على أهل العلم والمعرفة .

وظل القرآن الكريم ينذر في فترات متقاربة بهذه النتيجة التي

تفرزها الحياة الظالمة ، وكدأبه عبّر عن هذه النتيجة هنا بـ (النار) ، وهذا أمر عادي ، إلا أننا نجد هنا – بجانب النار – كلمة أخرى وهي «السرادق» وقد خص القرآن الكريم هذا المصطلح بهذا الموضع دون غيره من المواضع . ويقال أن كلمة «السرادق» ليست عربيةً محضةً ، وإنما جاءت من كلمة «سرا پرده» الفارسية ، وهذه الكلمة الفارسية معناها : الستار العظيم الواسع الذي يُسْدَلُ على المدخل المركزي من الدهاليز و الإيوانات الملكية .

فسرادق النار لايراد به أو لايمكن أن يراد به إلا أنه يكون – وإن لم يكن النار نفسها – شيء من النار أشبه ما يكون بما يُسْدَلُ على المداخل المركزية من الدهاليز و الإيوانات الملكية . فكأنما قيل : أن الظالمين الذين عرّفهم القرآن الكريم بهذه السمات الثلاث – كما هيئ لهم النار في الحياة الآخرة – قد أحاط بهم سرادق النار هذه قبل الحياة الآخرة . ولسنا نشاهد ونعاين النارَ ولا سرادقها ، ولم يبق لنا – حتى نصدّق هذا الخبر القرآني ونوافق عليه – غير سبيل واحدة ، وهي أن نتوصل إلى تصديقه بالسمات والمعالم . وقد نبّه القرآن الكريم عليه مشيرًا إلى أمر هام ، ولنا أن ندركه ونفهمه بأسلوب منا نحن ، وذلك بأن يتأمل المرء في مدى ما يحقق الله تعالى لهم ما يرجونه ويتمنونه . فإذا ألفيناهم يستجدون ماء فيصب الله عليهم نحاسًا مائعًا يُغلى ، فاعلم أن سرادق النار قد أرسل عليهم ، وأنها أحاط بهم ، ولا شك أن أمنية الماء وخلبته إنما جاءت كمثل ، والقصد منه أنهم يواجهون من قبل القادر من الأحداث ما يضاد هواهم ويكدّر عليهم صفو

العيش فمثلاً يتمنون الأمن ، فيواجهون الحرب تشتعل نيرانها ويحمى وخيسها ، ويوَدّون أن ترخص الأسعار وتهبط ، فإذا هي تغلو وترتفع ، ويحاولون أن يجمعوا أكبر قدر وكمّ من لوازم الحياة فإذا خاصتهم – فضلاً عن عامتهم – يبيت أحدهم شوقًا إلى الحاجيات العادية على أشد من الجمر ، ومن العسير جدًا أن يتم توفير بيضة واحدة وربع كيلو من اللحم لأغنيائهم وأثريائهم . فهذا ما يدل على أن سرادق النار قد أحاط بهم فانظر إلى ما يريك القادر المطلق ، وتأمل فيما يقوله .

وهذا مصير الذين رفضوا الحق ، وأبوا قبولَه ، وأما من يقضي أو سيقضي حياته خاضعًا للحق فلم يحرم عليه – كما سلف – التزين بزينة الحياة الدنيا ؛ ولكن اتخاذ أسباب الراحة والدعة هذه وتحصيلها ، الغايةَ المنشودةَ من وجود البشر ، ليس من شأنه أن تسعه الحياة الإيمانية .

وهنا يتساءل المرأ : ماذا عسى أن يجازي به المرأ لقاءَ تخليه عن هذه الغاية . فجاء الرد عليه بأن الله القادر لن يضيع الإيمان والعمل الصالح . والذين يزهدون في هذه الفترة الموقتة من الحياة عن اتخاذ الزينة غايةً منشودةً سيُجْزَون في الحياة الآخرة الدائمة جناتِ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار تحافظ على نضرتها وبهجتها ورونقها وروائها .

ولاشك أن الذين يلتزمون بما يرضي الله تعالى في هذه الحياة الدنيا ، ويحرصون على ذلك يجدون الله تعالى ، وسننه كلها تحقق رغباتهم متمثلةً فيما نسميه «بالجنة» . وإذاً ليس هناك سبيل من

سبل الاستفادة والتمتع إلا ويجدونها ممهدةً مفتوحةً عليهم. وإذا مُنِعُوا الاستمتاع ببعض مظاهر الكون في هذه الحياة ، فلاجرم أنها تتوفر لهم أسباب الزينة والراحة والنعيم في الآخرة بشكلٍ أحسنَ بما لانكاد نتصوره اليوم . وما خصه بالذكر هنا من بعض مظاهر الزينة التي ترجع إلى حياة الجنة إذا تأملنا فيه وجدناه يتغلب على جميع ما تتظاهر به الزينة علاوةً على الحاجيات التي لا بد منها في الحياة الدنيا.[1]

---

(١) أي أن الناس إذا ما فَضَلَ لهم من نفقات لوازم الحياة صرفوه في البناء والمركب والفراش والرياش ، وما إلى ذلك من أسباب الزينة ، أي يتظاهرون بحب الجمال متمثلاً في ما يسكنون ويعيشون فيه ، ويباشرونه ، أو يهيئون ما يسلون به هذه العلخفة من خلال إدخال التحسينات على ما يتصل بجسدهم ، من اللباس والشعار، فما زِيْدَ في هذا الموضع بشكل خاص فيما يتعلق بحياة الجنة من أن أصحابها يلبسون ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك ، لا يخفى أنه إنما يعكس النوعين من مظاهر الزينة هذه .

وكذلك يحب المرء أن يرى الحسن والجمال – علاوةً على ذلك – في جسده من اليد والرجل والعين والحواجب ، وأسارير وجهه ، فاقرأ في نفس هذا الموضع قوله تعالى : (وَحُلُّوْا أسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) . وكلمة «الأساور» يحملها الناس على قُلب النساء ثم يمرون بها ، رغم أن هذه الكلمة غير عربية أصلاً كما يقول الراغب . هذا أولاً . وثانياً : أن القرآن الكريم أضاف الأساور هذه – في آية أخرى – إلى الفضة ، وفي أخرى إلى اللولؤ . كما استنبط العلماء من قوله تعالى : (قَوَارِيْرَ مِنْ فِضَّةٍ) أن في الجنة عنصرًا ثالثًا يجمع بين شفاف الزجاج ولمعان الفضة وبريقها . ويبدو أن أساور الجنة هذه كذلك – يجمع بين خصائص وميزات الذهب والفضة واللؤلؤ والآية تشير إلى ما يزيد تلبسها الأعضاء ، رونقًا وجمالاً ، وورد في حديث الوضوء أن أعضاءه تلوح فيها نوع خاص من اللمعان والبريق مما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله : «غُرًّا مُحَجَّلِيْنَ» (انتهى كلامه) .

قلت : حديث الوضوء رواه البخاري في صحيحه (كتاب الوضوء باب فضل الوضوء ، والغر المحجلون من آثار الوضوء ٢٣٥/١ ط : السلفية) عن أبي هريرة رضي

ومن الطبيعي أن ينشأ هنا سؤال هامشي آخر ، وهو أن هذه العقلية التي تجعل زينة الحياة غايتها المنشودة والتي نَسَبَها القرآن الكريم إلى هؤلاء القوم، والتي تمتاز بانصرافها عن ربها وخالقها ما الذي ترجع إليه هذه الغفلة عن الرب والخالق تعالى.

وكيف يسوغ للمرء أن ينسى من يستحق أن يظل رخبًا لسانُه بذكره ، وبالتالي يتبع هواه ويتسرب إلى حياته الإفراط والتفريط ، فما السبب وراء ذلك ؟

نموذج رجلين مثاليين

أرى أن ما يقصه القرآن الكريم في الآيات التالية من قصة رجلين مثاليين يردّ على هذا السؤال فأمر الله تعالى أن يقص قصة الرجلين وخصائص وميزات كلتا الطائفتين : المؤمنة والكافرة اللتين أفرزتهما أمثال هذه الأوضاع والظروف فوصف أحدهما بأنه كان له جنتان من أعناب ، وأحاط الله تعالى الجنتين بالنخلات . فلم تكن هذه الحيطان والحواجز التي تمنع الجنتين وتحميهما مكونةً من الأشجار ذوات الأشواك التي تنبت في الأدغال والأحراش ، وإنما كانت هي الأخرى من أشجار مثمرة . ثم أخبر عن الجنتين بأن الله قد شق بينهما نهرًا إشارةً إلى ضمان توفير أسباب سقيهما وإروائهما . وهل تخاف الجفاف والقحوط على جنتين يجري من تحتهما نهر .

هذا وقدكان بين الجنتين زرعٌ ، ولم يكن شيء من ذلك

الله عنه قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أمتي يُدْعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يُطيل غرّته فليفعلْ» .

ينقص من ثمره . ثم تأمل في قوله : (ثمر) قد اختلفت القراءات فيه ، وحكى الرازي وغيره من المفسرين عن الثقات من اللغويين في معناه : أنه كان يملك - بجانب هاتين الجنتين - كنزًا من الذهب والفضة مسكوكاً وغير مسكوك فكان يجمع إلى الجنتين والزروع أموالاً جمةً ، وثراءً فاحشًا ، مما لايتسرب إليه المخاوف التي قد تُقضّ مضجعه .

ذكر الله هذه الخصائص والميزات ثم حكى أن رجلاً من الفئة الإيمانية قال له صاحب هاتين الجنتين والمال الوفير وهو يحاوره : (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً ، وَأَعَزُّ نَفَرًا) أي أكثر خدمًا وحشمًا ، ثم وصف القرآن الكريم صاحب الجنتين بـ (وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) أي أنه كان يحيد عن مكانه الطبيعي الذي أنزله الله تعالى فيه . وظاهره يدل على أنه كان يعتبر ما أعطِيَ من الجنتين والمال الجم ، وما كان يحيط به من خدَم وحشم : حصيلة مساعيه الجسدية والعقلية ولم يكن يعدّه فضلاً من الله ورحمةً به .

نوع من الشرك جديد

وأجدرُ ما في هذه القصة بالعناية والاهتمام ، هذه النصوصُ خاصةً . وسيأتي ما يدل على أن هذا الرجل لم يكن يكفر بالله تعالى ؛ فإنه كان يصف الله تعالى بـ «الرب» ، ورغم ذلك نَسَبَ إليه القرآن الكريم الشركَ بالله - كما سيأتي - وإن لم نجد في القصة بطولها ، ما يصرح أو يشير إلى أنه كان يشرك بالله ، كأن كان يعبد الأصنام ، أو غير ذلك من أنواع الشرك . وأرى أن الشرك الذي نَسَبَه إليه القرآن لم يكن عبارةً عن عبادة الأصنام ،

ولكنه من الشرك الذي يسعنا أن نشاهده في الذين لايكفرون بالله أي أنهم لاينكرون أن الله خالق الكون ، ولكنهم يرون أنهم هم صانعو أقدارهم ، وبُنَاتُها (Builders) ، وكأنهم يرون أن الحاجة إلى الله تعالى ينتهي عند الخلق والإيجاد ، وأما ماوراء ذلك من الكون وسننه فيستمر الإنسان في صراعٍ دائمٍ معه ، و أنهم في غير حاجةٍ إلى الله تعالى في تحقيق النجاح والفلاح في الصراع .

ولايخفى أنه نوع من الشرك بالله مفردٌ بذاته ، وربما هو أبشع أنواعه . وإن العهد الذي نعيشه قد سَيْطَرَ فيه على عامة العقليات هذا النوعُ الجديدُ من الشرك أكثر من نوعه الدقيانوسي القديم البالي الذي يرجع إلى الأوهام والخرافات ألا وهو عبادة الأصنام . ثم إنهم يعتبرون هذا النوع من الشرك معرفةً وحكمةً ، لا وهمًا وخرافةً . وكأن هذا النوع من الشرك نوع علمي (Scientific) . والذين أصيبوا بهذا النوع من العقلية المشركة نسميهم بالملحدين و«الدَهرية» . ويُرَىٰ في الغالب أنهم ينكرون وجود الله تعالى رغم أن التعبير الدقيق الواقع عن عقليتهم هذه ليس الكفر بالله ، وإنما هو إغفال قلوبهم عن ذكر الله أي ليس هؤلاء منكرين لوجود الله تعالى وإنما أغفل الله تعالى قلوبهم عن ذكره .

وعلى كلٍ فيخبر القرآن الكريم أن صاحب الجنتين هذا دخل جنتَه ، وهو يستشعر في نفسه هذا الاستشعار الظالم البلخل أي أن هذا كله تأتّى من عرق جبينه وكدّ يمينه ، وأنه من مُعْطَيَات عقله ومعرفته وفكره وبصيرته ، فقال وهو يشير إلى هذه الأسس التي

أقام عليها دعائم نظامه الاقتصادي : أعتقد أن هذا الذي رَفَعتُ دعائمه لن يزول ، ولن يصيبه خلل وفساد . وهذا ملخص ما ادّعاه قائلاً : (وَمَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيْدَ هٰذِهِ أَبَداً) .

وأما الاعتقاد السائد بأن جميع ما على الأرض له أجل ينتهي إليه ، فيبدو أنه وَصَفَ هذا الاعتقادَ بـ«الساعة» وأعرب عن ثقته بأن النظام الاقتصادي الذي أسس بنيانَه ، لن يضره التهديد بالأجل . ويرجع ذلك إلى أنه كان يعتمد كل الاعتماد تلك المبادئَ ، والأصولَ «الحكيمةَ» التي أقام عليها نظامه الاقتصادي في زعمه .

وأخيرًا أعرب عن عقليته العلمية (Scientific) موجِّهًا خطابه إلى المؤمن الذي كان يحاوره قائلاً : وَهَبْ أن الساعة أثّرت على النظام الاقتصادي الذي أقمت بنيانَه ، فلن أكون في ذلك العهد الثوري إلا خيرًا منك . أي أن العقل ، والفكر ، والسعي الدؤوب مما توصلت به إلى إقامة صرح هذا النظام الاقتصادي العملاق فإن هذه الأجهزة لن تخونني وسأتخذ إجراءاتٍ حكيمةً ضد تلك الزوابع والعواصف . وإن ما تقوم به من التسبيح ، والتهليل، والصلاة ، والصوم لن يغني عنك شيئًا في ذلك الغد الثوري كما لم ينفعك اليوم . وهذا ما يفيده – فيما يبدو – قوله : (لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) .

ولم يكتف بقوله هذا ، وإنما ادّعىٰ أنه سيكون في ذلك المنقلب خيرًا مما هو عليه الآن . وذلك لأنه سيستخدم عقله و ذهنه بشكل أحسن بعد ما تحنكه التجاربُ ويزداد بصرًا بجلو

الدهر ومره .

ثم حكى القرآن الكريم كلام الرجل المؤمن الذي بدأ بتذكير هذا الرجل – الذي أصيب بهذا النوع الجديد من الشرك وعانى من عقاب الغفلة عن ربه – بخالقه وربه الذي غفل عنه ونَسِيَه . فقال الرجل المؤمن : إن الذي خلق بقدرته النطفة من المواد الغذائية الناشئة من الغبار والدخان ، ثم صوّر هذه النطفة صورتك ثم خلقك أذهبتَ تكفر به ؟ ثم قال له : لك أن تذهب في التفكير ما شئت من المذاهب وتأتي ما شاء لك الهوى ، وأما أنا فلم يكن لي أن أكفر بربي أو أشرك به أحدًا . ثم نبّهه الرجل المؤمن على الخطاء الذي عرضه للنوع الجديد من الشرك ، ولقَّنَه درسًا ، وقال له : عليك – إذ دخلت جنتك التي أعجبتك – أن تفكر أن الجنة وأرضها ، والماء الذي يسقيها وفروع الأشجار التي تنشق عن بذورها ، وأزهارَها ، وثمارَها هل شيء من ذلك خلقتَه ، وأضفيتَ عليه الوجودَ ؟ ولاشك أن كل ذلك يتجلى فيه مشيئة وإرادة الذي خلق هذا الكون ، ونظامَه ، وأما ما زعمتَ أن عَقلك وفراستك وفطنتك وسعيك واجتهادك مما ساعد على تنسيق هذه الإنتاجات الطبيعية ، فإن عليك أن تفكر كذلك في منشأ هذه الطاقات والقوى التي تتصف بها ومصدرها ، فإنها ليست من صنع يدك، وإنما جاءت ممن هو مصدر الطاقات والقوىٰ كلها في الكون .

وهذا ما يفيده – ولا أقل فيما يتبادر إليه ذهني – قول الرجل المؤمن: (وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: ماشاء الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللّهِ). ومن الحقائق التي لايمكن رفضها وإنكارها : أن الكون كله رهن

«ما شاء الله» ، وأن الطاقات التي يتصف بها الإنسان لا تعدو في الواقع الحقيقةَ القائلَةَ به «لاقوة إلا بالله» . وكأن هاتين الفقرتين قد جمعتا الآفاق والأنفس واشتملتاها جميعًا .

وعلى كلٍ أفرأيت خريقًا أعلمَ ، وأحكم يقرِّب إلى المرء ما يحافظ به على إيمانه ، ويَقِيْهِ غائلةَ الشرك الجديد ، وقالبه الجديد في هذا العهد الجديد. ورغم ذلك إذا لم يستطع المشركون هذا الشرك الجديد أن يقوّموا به عقليتهم يصححوا مسارها ، فقد نادىٰ القرآن الكريم سابقًا : (قُلِ الْحَقُ) ولا يهمّ المرءَ إيمانُ من آمن به ، وكفرُ من كفر به . وإن هذه القصة المثالية القرآنية التي جاءت كتسلية المؤمن تعكس قطعة ثلجٍ كبيرةً ، كلُ مقدمة من مقدماتها بديهيةٌ . و نتيجتها خبيعيةٌ . ولو أعملنا شيئًا من سعة النظر ، واتساع الأفق ، لَهَانَ لنا أن نطبِّق هذه القصةَ المثاليةَ نفسها على الأمم بالإضافة إلى الأشخاص والقبائل . وكم من أمةٍ على وجه البسيطة تحوز كبار الأنهار، والبحار كـ«دجلة»[1] و«فرات»[2] و«سيحون»[3]

[1] دجلة : نهر ينبع في تركيا شرقي جبال خوروس ثم يجري في العراق مارّا في الموصل، وبغداد ، تمتزج مياهه بمياه الفرات في شط العرب . من روافده : «الزاب الكبير» و «الزاب الصغير» و «ديالى» والخازر والعظيم . (المنجد ص ٢٨٣ ط : دارالمشرق ، بيروت)

[2] الفرات : نهر نبعه في أرمينيا ٢٫٣٧٥ كم . يجري في تركيا مخترقًا جبال خوروس ، وسوريا ، و العراق حيث تتسرب منه مياه كثيرةٌ إلى الأراضي المنخفضة المجاورة فتظهر بحيرات أهمها : الحبانية ثم يلتقي بنهر دجلة عند القرنة فيكونان شطَ العرب الصالح للملاحة. اعتبر قديمًا أحد أنهر الفردوس الأربعة ، ودعي بالنهر الكبير . (المنجد ص ٥٢١)

[3] سيحون / سيحان : نهر في جنوب تركيا الآسيوية يصب في المتوسط . عنده كان الأمويون والبيزنطيون يتبادلون الأسرى . (المنجد ص ٣٧٥)

و «جيحون»[١] و «كنكا»[٢] و «يمنا»[٣] و «كوداوري» و «كرشنا» في البلاد الحضارية القديمة ومثل «مسي سي بي»[٤] و «لوكن» في أمريكا و «والكا» و «نيبر» في روسيا[٥]

* * *

[١] جيحون / أمو دريا (Amou-Daria) : نهر ٢٫٥٤٠ كم . هو أوكسوس القديم ، نبعه من جبال بامير (الهند) يجتاز آسيا السوفياتية ، ويصب في بحر أرال . (المنجد ص ٦٥–٦٨) .

[٢] كنكا / الغانج (Gange) : نهر في شمال شرقي الهند ٢٫٧٠٠ كم . ينحدر من جبال «هملايا» ويصب في خليج بنغال . يجتاز مدينتي : «إله آباد» ، و «بنارس» . يعتبره الهندوس نهرًا مقدسًا يغتسل فيه الهندوس معتقدين الطهارة من الذنوب . (المنجد ص ٥٠٣)

[٣] يمنا : نهر شهير يقدسه الهنادك ، تطل عليه عدة مدن هندية منها : «دلهي» (عاصمة البلاد) و «متهرا» و «آكره» .

[٤] مسي سي بي (Mississippi) : نهر في الولايات المتحدة . يصب في خليج المكسيك يؤلف مع روافده الميسورى لخول نهر في العالم ٧٫٢٠٠ كم . (المنجد ص ٧٠٠)

[٥] ومن الطرائف أن الهنود يدعون نهر «كنكا» و نهر «يمنا» أماً ، وأهل روسيا يدعون نهر «والكا» أماً ، نهر «نيبر» أباً لهم ، وربما لِيومنا هذا .

وغير بعيد أن تطبق هذا الحديث الذي جرى بين المؤمن والكافر – على الأفراد والأمم على حد سواء . وقد أنهى الرجل المؤمن حديثه قائلاً لهذا النوع الحديث من الكافر : إن ما تعيّرني به من قلة في المال والعدد ، وما تفتخر به علي وتتجبر ، ما كان ردّي عليه إلا أن أقول : إن ما هيَّأ الله القادر لك اليوم من التسهيلات الاقتصادية المتمثلة في الجنات ، وما تعطيه من زروع وثمار ، فإني لأرجو من القادر نفسه أن يعطيني خيرًا من جنتك ، ويوفّر لي موارد مالية أكثر سهولةً ، وأقرب تناولاً . ولم يتعرض الرجل المؤمن إلا لأمله في أن التسهيلات الاقتصادية في الحياة الدنيا – علاوةً على هذه النتيجة والجزاء – لا ينافي الحياة الإيمانية .

ومما يمكن أن نتأمّل فيه هنا أن تعبير الرجل المؤمن بالقلة في المال ، والضعف في الأفراد لماذا لم يقابله المؤمن بأمله في الكثرة في المال ، والأولاد ؛ فإنه إذا كان عليه أن يأمل ويترقب ، فَهانَ عليه أن يترقّب الأمرين معًا . وظاهره يوحي إلى أنه إذا توفّر للمرء تسهيلات العيش ، ورغده فلا داعي لأن يبخع نفسه على تأمين الكثرة في الأموال و الأولاد غرورًا ، ورياءً للناس .

وهذا ما حدّث به الرجل المؤمن نفسه ، ولم يمنع ذلك أن

ينذر الرجلَ الكافِر ، وينبّهه على أن هذه التسهيلات الاقتصادية ، غَرّتْه، وسوّلت له أن ذلك كله من ثمرات سعيه ، وجدّه ، وعمله، وحذّره من أن يأتيه «حسبان من السماء».[1] أي يداهمك تلك الساعة التي تحاسب فيها عن ذلك كله . وإن القادر الذي أنعم عليك به سَيُحاسبك ، فيحرَمُ الجناتِ ، وما تتمتع به من قدرات الإنتاج ، والإثمار ، ويقضي على مصدر المياه التي تعتمده في سقي هذه الجنات ،فَتَبُوُء كل المساعي ، والجمود في استنبلخها بالفشل ، والخيبة .

وإن صفحات التاريخ لتطفح بهذين المثلين من «الحسبان من السماء» ، فكم من بلدةٍ خصبة عادت ليومنا صعيدًا زلقًا . فكأنّ الرجل المؤمن لَمَحَ إلى هذه الأمثلة التاريخية .

وهكذا ينتهي الحديث بينهما ، ثم أخبرالقرآن الكريم أن ما تنبأ به المؤمن أوْ ما أنذره به من «الحسبان من السماء» قد تمثل فعلاً لهذا المشرك المتطور (Modren) ، وإن التسهيلات الاقتصادية ، والقنلخير المقنطرة من الأموال ، ومظاهر الأبهة ، والعظمة كلها تلاشت ، وأصبح يقلب كفيه ، وأدرك أن انهيار نظامه الاقتصادي الذي وضعه – رغم استدامة المساعي العقلية ، والجسدية ، وتواصلها – إن كان يرجع إلى شيء فإنما يرجع إلى العقلية المشركة التي سوّلت له أنه هو ، وعقله ، وذكاءُه ، وسعيه ، وجدّه ؛ كل ذلك له يدٌ في الكون ، وما يجري فيه ، ثم عَلِمَ أن ولاية الكون ، ورعايته من خصائص الله تعالى .

[1] وقد ورد في تفسير «الحسبان» أقوال ، أقربها لفظًا ومعنًى هو ما أسلفته .

ثم قال – كما حكاه عنه القرآن الكريم – وهو يعضّ بنان الندم : (يٰا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أحدًا) .

وهذه الفقرة – كما نبّهت غير مرّةٍ – تمثل حجر الأساس في هذه القصة ، وأسلفت أن الشرك الذي يصوّر عبادة غير الله تعالى لم تتعرض له القصة في شيءٍ من جوانبها وأجزائها ، لا إشارةً ، ولا تصريحًا ، فاحتَار أهل التأويل في تحديد نوع الشرك الذي كان يندم عليه ذلك الرجل المشرك . وقد عرف المسلمون مصطلح «الشرك الخفيّ» ، والذي يعني أن المرء يؤمن إيمانًا جازمًا بأن الكون بأسره يخضع مباشرةً لمشيئة الله تعالى ، وإرادته ، وأنه لايشارك خالق الكون في ذلك كائنٌ ، وأن الخير ، والشر كليهما من الله تعالى ، ورغم هذا الإيمان والإذعان قد يدور بالخلد تأثير الأسباب فيما يرجع إلى الأسباب . ومن بين هذه الأسباب عنصر الإرادة، والاختيار ، ومهما كان نوعه فإن التأثير في أعمالنا وأفعالنا الاختيارية يرجع إلى هذا العنصر من الوجود الإنساني ، والشرك الخفي عبارة عن شيء من ذلك . ولا أعدو الحق لوقلت : إن ذلك لا يتجاوز أن تكون وسوسة من الوساوس ، وخطرة من الخطرات فيما يخصّ المؤمن إلا أن ذروة الإيمان ، وقمته تتطلب أن لا ندع لهذه الوسوسة مجالاً ، ومنفذًا إلى القلب .

وإن شئت قلت : إن الشرك الخفي هو الآخر يؤمن صاحبه بأن الله تعالى هو المتفرد المستقل بالحكم ، والإرادة فيه ، وإن تصور الأسباب ، والعلل لا يعدو أن يكون خيالاً ، وتصورًا عابرًا مستعارًا غير مستقلٍ .

وعلى العكس من ذلك نجد العقلية المشركة التي سيطرت على صاحب الجنة هذا تصرّ على نسبة المظاهر إلى الأسباب نفسها، على خلاف الشرك الخفي ، فهو وإن لم ينكر وجود الله تعالى إلا أنه لا يخطر بباله أن لمشيئة الله تعالى وإرادته تأثيرًا في الكون ، وإن خطر ذلك بباله يومًا من الأيام . فإنما يضاحي انتقال ذهنِ الموَحِّد في الشرك الخفي إلى الأسباب والعلل أحيانًا .

وأسلفتُ ، وأعيد أن هذا النوع من الشرك أقبح أنواعه ، وأرذلها ، والجدير بالبحث والتفكير هو أنه لماذا خصصت هذه السورة التي ربطها رسول الله ﷺ بالفتنة الدجالية – بذكر هذا النوع من الشرك ، وهل يُستوحىٰ منه إلا أن هذا النوع من العقلية المشركة يعمّ بلاء الناس بها في هذه الفتنة.[1]

[1] والذين عُرِفُوا بهذه العقلية من مسلمي الهند في بدء أمرها لُخلِق عليهم : «الطبيعيّون» (Naturalists) ، ويرجع ذلك إلى أن هؤلاء ينسبون مظاهر الكَون كلها إلى الطبيعة ، وهؤلاء ، وإن لم يكفـروا بالله ، ولم ينكروه إلا أن الكون لم يكن بقي – فيما يرى هؤلاء – في حاجة كبيرة إلى الله تعالى ، ويرون ذلك كله من مُعطَيات الطبيعة مِمّا أثار حفيظة المسلمين ، وعـولخفهم ، ولكن نتساءل : ما الخطأ الذي وقعوا فيه ؟ وبكل صراحةٍ لم يكن يملك الطاعنون في ذلك مسارًا محددًا ، على أن هذا لايعدو أن تكون صورة متطورة (Modren) للشرك يعطّل ذات الله سبحانه وتعالى ، ويربط الكون كله بغيره من القوى .

ولاشك أن هذا النوع من الشرك أشد من الشرك الذي يتمثل في عبادة غير الله ، فظاعةً، وأكبر منه كفرًا ، ووقاحةً ؛ فإن المشركين – الذين يعبدون غير الله تعالى – ينسبون الأفعال كلها إلى الله تعالى ، وإنما يشركون به غيره في العبادة والدعاء . وكثيرًا ما نسب القرآن الكريم عقيدة توحيد الربوبية إلى قدماء المشركين ، فكأن المشركين القدماء كانوا ناكبين عن «إياك نعبد»، وإن كانوا قائمين على «إياك نستعين» .

وأما هذا النوع الجديد من الشرك فقد فَقَدَ توحيد الاستعانة كذلك ، وإنما تلاشت

وإنه يجب علينا جميعًا أن نرجع إلى نفوسنا ، وقلوبنا ، وننظر إلى مدى تأثير هذا النوع العصري (Modren) من الشرك . ومن الواجب على المؤمن – على الأقل – أن يعتقد أن تأمين النتائج الحميدة ، والمصير الحسن إنما يكمن في الإيمان بأن ولاية الكون ورعايته تختص ذات الله تعالى . وهذا ما تفيده أواخر هذه القصة . وهو قوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ الوَلاَيَةُ لِلّهِ الحَقّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

تمثيل آخر للحياة الدنيا

وإن ما يصاب به القلوب الغافلة عن ذكر الله تعالى – عدا العقلية المشركة السالفة الذكر – هو ما نشاهد في حزب الغافلين ، واللاهين ، أي أن الفترة الضيقة المتخللة بين البطن والقبر تدور حولها رَحا الطاقات ، والقوى الإنسانية كلهما . وإن هذا التمادي في النظرة الضيقة إلى الحياة الإنسانية – التي لا تنتهي في الواقع بعد ما تبدأ – أدّى إلى هذه الغفلة التي يعيشها الغافلون عن الله تعالى ، عن رضىً ، وبخواعيةٍ . وهذه هي النتيجة الثانية التي أدّى إليها إغفال القلوب عن ذكر الله تعالى . وحاول القرآن الكريم أن يؤكد على هذه الفترة العابرة من الحياة الدنيا ، ومثّل لها بالمطر ينزل من السماء ، فيختلط به الحبوب المتناثرة على وجه الأرض ، فتصبح الأرض مخضّرةً ، ثم لاتمضي أيام إلا وتعود هشيمًا تذروه الرياح ، وينتهي أمره .

قيمة الدعاء والعبادة لدى هؤلاء المشركين الجدد ؛ لأنه إذا لم يكن لله تعالى يدٌ في مظاهر الكون فهل يبقى من حاجة إلى دعائه ، وندائه؟!

ولاشك أن الفترة العابرة الحاضرة من الحياة الإنسانية تشبه ذلك تمامًا ، تتجمع حوله من الأموال ، والأولاد ما يجعل حياته ، يغتبط بها الناس ، ثم يقضي عليه الموت قضاءً مبرمًا . ويؤكد القرآن الكريم على أنه ليس من العقل ، والفقه في شيء أن يغترّ المرء بالأموال والأولاد ، ويضحّي بما كسبه بكد يمنيه ، وعرق جبنيه، وفي غفلةٍ تامّةٍ عن الجوانب التي تبقى آثارها وتخلد نتائجها، وإليها يعود المستقبل النير .

والأجدر بالتركيز ، والعناية في التمثيل بالمطر، الشطرُ الأخيرُ منه ، وهو قوله تعالى : (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) . وهو يشير – فيما يبدو – إلى أن الحبوب اليابسة تتناثر على وجه الأرض ثم ترى الله القادر ينزل عليها من السماء ماءً ، ثم يُخرج هذه الحبوب اليابسة مخضرّة ثم يُعيدها كما كانت يابسةً جافّةً ، وإن الذي يشاهد هذا من الله تعالى كل يومٍ ما الذي يَسوّغ له أن يظنّ أن هذا القادر الخالق نفسه يعجز أن يضفي عليه الحياة بعد مماته؟

وهل يسع هؤلاء الذين يعتبرون الحياة مرحلةً تتخلل بين بطن الأم ، وبطن القبر – أن يبرهنوا على نظرتهم الضيقة إلى الحياة بما شاهدوه مِما يخصّ القادر تعالى ، وخاصةً إذا كان الكون خافحًا بما يناقض ذلك من الشهادات ، والمظاهر .

وعلى كل ففيه تذكير لكل من يلقَّن أنك لن تفنى بموتك ، وهو يتمارى في زعمه أنه يفنى ، وينعدم . فكل مولود لابد وأن يبقى ، وهو يصرّون على أنهم لابد وأن يفنوا وينعدموا . وهؤلاء الذين نَبَّهَهُمُ القرآن الكريم على أن الذي يريد أن يُفْنِيَ

نفسه لن يُفلح ، كما لا يلد المولودُ ، ويُوجد برضًا منه ، ورغبةٍ ، بل جميع ما كسبه في هذه الفترة من حياته ، يتمثل له في الحياة الآخرة حين يتبدل الأرض غيرَ الأرض ، والسموات . فما تراه اليوم ساكنًا تجِدْه قد تحرّك في ذلك العهد المنقلب ، ويظهر ما بَطَنَ . فيرىٰ الرأي أن جميع ما أتاه في صغره أو كبره مما غاب عنه وخَفِيَ قد تمثّل له عيانًا واحدًا تلو واحدٍ . ويجد أن ما سوّل له نفسه من أن الموت سَيقضي عليه نهائيًا لا يعدد وهمًا ، وخيالاً وخداع النفس ، وحيلةً اختلقها فرارًا عن تبعات المحاوبة ، والمساءلة ، والمؤاخذة . وإليه يشير قوله تعالى : (وَوَجَدُوْا مَا عَمِلُوْا حَاضِرًا) . وبيّن القرآن الكريم من خلاله أن العواقب الطبيعية تتمثل للناس – عندما تتمثل –خبيعيةً كاملةً غير منقصوصةٍ .

قصة آدم ، والشيطان ، والعناصر الجديدة فيها

وهنا ذكرت الآية السنةَ الطبيعية : (وَلاَ يَظلِمُ رَبُّكَ أحَدًا) . ثم أعادت قصة أدم والشيطان ، وزادت – كما دأب عليه القرآن الكريم – عناصر جديدة تخصّ هذه القصّة وتليق بهذا الموضع ، مما نفقده في غير سورة الكهف . ورغم أن هذه القصة – كما لا يخفى – تكررت في سُوَر عدة من القرآن الكريم بزيادة بعض العناصر أو اختصارها إلا أني أرى أن هذه العناصر الجديدة – التي نفقدها في غير هذا الموضع – أحرى بالتركيز ، والعناية . وإن النظرة المتأنية فيها تكشف عن السبب الذي يعود إليه زيادة هذه العناصر الجديدة بهذه المناسبة خاصةً.

إن قصة آدم والشيطان شهيرة ، فقد أمرت الملائكة بالسجود

لآدم ، فاستكبر الشيطان وأبى أن يسجد له ، وهذا الشطر من القصة لايخلوا منه هذا الموضع ، إلا أن العناصر الجديدة التي اُلحِقَت به – فيما أرى – ما يلي :

١– أن الشيطان ينتمي إلى فئة الجن ، ويدل عليه قوله تعالى : (وَكَانَ مِنَ الجِنِّ) .

٢– أن الشيطان ليس وحيدًا أبتر ، وإنما له ذرية .

وقد تَنَبَّه لهذين الشطرين من القصة أهل التفسير ، واشتغلوا فيما لا ينفع من القصص ، والروايات.[1]

وهناك أمر ثالث أكثر منهما حاجةً إلى التركيز، والعناية مما لم يفطن له أحد منهم ، وذلك أن الجانب الذي يترجح عادةً في قصة آدم والشيطان: هو استكبار الشيطان وتعاظمه على آدم، والقرآن الكريم كثيرًا ما يبرز ما أكّد عليه الشيطان من الاستخفاف بآدم ، والنيل منه ؛ وكبرياء نفسه ، وجبروته على آدم على خلاف ما في هذه السورة ، حيث أمر بالسجود ، ثم حكِي موقفه منا بقوله تعالى : (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه) والذي يعني – فيما يبدو – أن ماركبه الشيطان من عصيانه أمر ربه ، وتماديه فيما زعمه ، وارتأه ضاربًا عرض الحائط أمر ربه ، وخالقه ، إن هذا الجانب من إجرامه هو الذي نَبّه عليه القرآن الكريم بصفةٍ خاصةٍ بهذه المناسبة .

[1] وبلغ بهم الأمر إلى أن أصبحوا يتلمسون عروسًا للشيطان. فقد روي عن الشعبي – وهو رجل خفيف الروح ، أدرك الصحابة – أنه سئِل عن اسم عروس الشيطان ؟ فقال : ذلك زواج نشهده ، حتى نتمكن من الاستماع لاسمها حين عقِد عليها . وذهب البعض إلى القول بأن الشيطان اتخذ نفسه عروسًا له ، فَوُلِد له .

الشرك عن ـريق الغفلة

إن ما حذّر القرآن الكريم المؤمنين من لخاعة من غَفَلَ عن ذكر ربه ، وأصيب بنوع من مرض الشرك جديدٍ ، وأصَرِّ اليوم على اتباع القانون الذي يؤكد على توظيف جميع الجهود والمساعي في الفترة المتخللة بين المهد ، واللحد من الحياة ، يبدو أن هذه القصة تُبلور أسباب هذا التحذير ودوافعه . وإن ما يتحرق عليه المسلمون أهل الإيمان من مسابقة هولاء الغافلين لايرجع – فيما يبدو – إلا إلى أن حزب الغافلين هؤلاء يبدو حزب الإنسان ، وإذا كان الإنسان يتلوّن بلون غيره من بني جنسه بمخالطته ، ومعاشرته فإن هذا ما يقتضيه المجانسة اقتضاءً خبيعيًا . ولكن هل يُغني التشابهُ الصوري الظاهري في المجانسة ؟

إن العناصر الجديدة التي تحملها قصة آدم والشيطان مِمّا خُصّ بالذكر هنا تفيدنا أن الشيطان – الذي ينتمي إلى فئة الجن – يبدو أنه رغم هذا الانتماء قد دخل في الملائكة بحكم التبدل الوصفي ، فما أمِر به الملائكة شمِلَه كذلك . ثم إنه فَقَدَ ميزاتِه وخصائصَه الملائكية ، واتبع هواه ، ومزاعمه البلخلة .

فكما أن التبدل الوصفي أَلْحَقَ الشيطانَ بالملائكة كذلك نجد كثيرًا من بني آدم ممن يبدو بشرًا سَوِيًّا – فيما نراه – قد وضعوا نظامًا للعلم والعمل يقوم على ما يرونه ويزعمونه مستخفّين بأوامر الله تعالى ، فلا يخفى أنهم رغم انتمائهم الذاتي إلى آدم ، إلا أنهم يلتحقون بذرية الشيطان نظرًا إلى مواصفاتهم ، كما أن بعض المواصفات أَلْحَقَ الشيطان – الذي كان من الجن – بالملائكة لأيام

قلائل .

ويؤخذ منه – كذلك – أن ما تلقيناه من خالق الكون على ألسنة الأنبياء و الرسل من الرّد على التساؤلات التي تخص بداية الكون ونهايته ، ولم خُلِقَ الإنسان ؟ وما نطالب به بناءً عليه من خريقة عيش الحياة إذا ما نحن نقلّل من شأن ذلك وقيمته ، ونقدِّر ونرفع من شأن ما تُمليه علينا هذه القوى الغافلة عن ذكر الله تعالى من رؤىً ، وأفكار ومعتقدات ، وهل يعني ذلك غير أننا نتبع ، ونتولى الشيطان ، وذريتَه التي تبدو بشرًا سويًا ؟!

فَحذَّر منه ، وقال : إنكم تتخذون أعداءكم أولياء اغترارًا بالتشابه الصوري الظاهري ، وتستهينون بأوامر ربكم ، وخالقكم ورازقكم .

وقوله تعالى : (بِئْسَ لِلظَّالِمِيْنَ بَدلاً) يشير إلى ذلك ، ثم نَصَحَهم ، ووَجَّه إليهم كلامًا أشد ما يكون واضحًا وبيّنًا ، وأقرب ما يكون إلى العقل والمنطق ، وذلك أنه ما الذي يرجع إليه تلك الجاذبية ، والقيمة التي تشعرون بهما تجاه ما يقوله شيلخين البلخن ، والسريرة ، وأناسيِّ الظاهر والسيرة ، دون ما يقوله خالق الكون ؟ وهل الفلسفة التي يتظاهرون بها ، والتي وضعوا عليها نظام الحياة العملية ، تقوم على نوع من العلم ؟ قال الله تعالى : (مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ) .

ولا يخفى أن آباءهم – فضلاً عن أنفسهم – لم يكونوا قد وُجِدوا ، كما لم يكن آدم عليه السلام قد وُجِدَ و وُلِدَ ، فما يتفوَّه به الناس من أن العالم بدأ كذا وكذا ، وأول شيء كان

كذا ، وما إلى ذلك ، هل يعدو أن يكون من باب «اللحافيات». [١]

فالذين ينفون علاقة الخالق بما يحدث في الكون زعمًا منهم أنهم قد ملكوا زمام الأمر ، وأن القادر تعالى يعوّل عليهم في إدارة الكون ، فقيل لهم: هل يتخذ القادر تعالى عضدًا وناصرًا من ليسوا ضلالاً فحسب ، وإنما يُضِلّون غيرهم عن سواء السبيل ، بعد ما أصبحوا زَيْنًا للشيطان . وهل يعني قوله تعالى : (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّيْنَ عَضُدًا) غير ذلك ؟

وبما أنه يستمر ذكر الشرك المتطور بهذه المناسبة فيما سبق ، فيخطر بالبال أن ما قيل لهم فيما بعد : إنه سيأتي يوم يطالبون فيه بنداء من كانوا يشركونه بالله تعالى ، في مظاهر الكون ثم لا يتلقى المنادون ردًّا منهم فنُوديَ أنه سيجدون موبقًا بينهم، وبين شركائهم .

الاهتمام بالمخترعين دون الله تعالى

ولا يخفى أن الصورة القديمة البائدة من شرك العبادة التي كانت تصوّر الشرك بالله عن خريق تسمية الأعيان الوهمية الغائبة أو الملائكة أو الجن أو الشيلخين أو أرواح الأموات بأسماء مختلفة ، وعبادتها ، ودعائها والنذر لها في القديم والحديث ، وكذلك مظاهر الكون ، فإن هذا النوع المتطور الطبيعي من الشرك يُوْلِي

[١] «اللحافيات» مصطلح يخصّني، أي أن القطع بشيء فيما يتعلق ببداية العالم ونهايته ، وأمثال ذلك مما يفوق الحواس البشرية إدراكُها ، وضبطُها ، يُشبه فعلَ من تَدثَّر «باللحاف» ، و أصبح يعدّ كل ما وسوست به نفسه ، واقعًا و حقيقةً لا ريب فيها .

من يتعرّف على قوانين الطبيعة ، ويقدّم اختراعاتٍ ، واكتشافاتٍ جديدةً ، أهميةً أكبر من الله تعالى . رغم علمه بأن جميع ما هو خارج الإنسان إنما هو لله تعالى . وإن هذا التراث الداخلي في الإنسان من العقل والحكمة ، والعلم مما يساعد على اختراع أشياء جديدة ، وصناعاتٍ تأخذ الألباب ، وتأسر الأنظارَ ، إن كل ذلك إلا مما أعطاه الله تعالى ، وخَلَقَه منذ خلق الإنسان ، وأضفى عليه الوجود .

ورغم ذلك كله نجد أن الله الذي له كل شيء، لا يتذكره أحد في خصوص هذه المخترعات ، وأما مَن لا يملك شيئًا فقد غطّت شهرته الآفاق ، وخارت به الركبان ، إن الله مَلَكَ الماء ، ومَلَكَ النار ، وأودع في الماء قدرة التحول إلى البخار ، إذا مسَّتْه النار ، قد نَسِيَه الناس جميعًا ، بينما نجد العالم لا يفتأ يذكر «ستيفنسون» (Stephenson)[1] الذي اخترع القلخرة حين أدرك السنة الطبيعية التي توجب حدوث القوة البخارية بالعلاقة بين الماء والنار .

وليس «ستيفنسون» وحده ، وإنما نشاهد اليوم من فِعل «أديسن» (Edison)[2] وماركوني (Marconi)[3] وأمثالهما من

(1) ستيفنسون (Stephenson) (١٧٨١–١٨٤٨) : مهندس إنكليزي ، اخترع القلخرة . (المنجد ص ٣٥١)

(2) أديسن (Edison) (١٨٤٧–١٩٣١): فيزيائي أميريكي، مخترع الآلات الكهربائية، ومنها المصباح الكهربائي ، وهو أوّل من حقق عمليًا الفوتوغراف . (المنجد ص ٣٠)

(3) ماركوني (Marconi) (غوليلمو) (١٨٧٤–١٩٣٧) : فيزيائي إيطالي ، ولد في «بولونيا» ، أحد مخترعي اللاسلكي . (المنجد ص ٦٢٦) .

المخترعين ، و«نيوتون» (Newton)[1] و «أينشتائن» (Einstein)[2] وأمثالهما من المكتشفين الذين يقدمون الأفكار والمعتقدات الجديدة المسمومة ، في القلوب ربما لا نعد و الحق والواقع إذا ما قلنا : إنهم ، وإن لم ينزلوا من القلوب المشركة الشرك الجديد منزلة الخالق البارئ فلا تقل منزلتهم – بأي وجه من الوجوه ، وعلى أي مستوىً من المستويات عن منزلة الشريك المنافس لله سبحانه وتعالى . وقد نزل روّاد الاختراع ، والاكتشاف اليوم في الشرك الجديد – الذي وقع فيه الطبيعيون منزلة «اللات» و «مناة» ، و «العزىٰ» ، و «هبل» الشركاء المزعومين في نظام الشرك القديم .

فما حكاه القرآن الكريم بهذه المناسبة بقوله : (وَرَأَى الْمُجْرِمُوْنَ النَّارَ فَظَنُّوْا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوْهَا وَلَمْ يَجِدُوْا عَنْهَا مَصْرِفًا) لا يدري إلا الله تعالى في أي مرحلة من مراحل الحياة يزاح الستار عن ذلك أمام المشركين الشرك القديم ، وشركائهم ، وأما شركاء المشركين المثقفين فيبدو أنهم قد تمثلت لهم هذه الصورة .

إننا نشاهد – في أعقاب الحرب العالمية الأولى – في منلخق الشرك الجديد المصيبةَ تتلوها مصائب ، والبلية تعقبها بلايا ومحن وفِتن ، مما لا يقف عند حد ، رغم كل المحاولات التي تكرّس

(1) نيوتون (Newton) (١٦٤٢–١٧٢٧) : فيلسوف ، وعالم ، ورياضيّ ، وفيزيائيّ ، وفلكيّ إنكليزيّ ، اكتشف تكوين الضياء الشمسي ١٦٦٩ ، وقوانين الجاذبية ١٦٨٧. (المنجد ص ٧٢٢) .

(2) آينشتاين (Einstein) (البرت) (١٨٧٩–١٩٥٥): فيزيائي أميريكي، ولِد في ألمانيا، وضع «النظرية النسبية الخاصة» ، ثم «العامة» في الزمان ١٩١٦م . جائزة نوبل في الفيزياء ١٩٢١م . (المنجد ص ٣٠١) .

للحدّ منها ، وعرقلتها ، إلا أنها تمتدّ ، وتنتشر كالأخطبوط . وإن النار التي اشتعلت ، واضطرمت لَتَزْداد اشتعالاً واضطرامًا دون أن تخمد ، وينادي المنادي شركاء الشرك الجديد هؤلاء ، ويناشدهم ، ويُهيبُ بهم إلى استخدام عقولهم وسياستهم وبصيرتهم ، ونظرتهم البعيدة العميقة ، وحكمتهم ، وفطنتهم ليتسنّى إيجاد حلول للشؤون المعقدة ؛ ولكن أنّى يستطيع هؤلاء المساكين نصرهم في حين نجد كبارهم – الذين بلغوا ما بلغ إمام الأئمة «أينشتاين» – فضلاً عن شركائهم الصغار – أصبحوا حيارىٰ كالقطة أصابها الماء ، تبحث عن مأمن من جحر إلى جحر دون جدوىٰ . ونرىٰ قد تحقق ما تنبأ به القرآن الكريم منذ ثلاثة عشر قرنًا ، فيُلفِي الدعاةُ ، ومن يدعونهم أنفسهم على شفا الموبق . وكأنهم استيقنوا بأنه قد تمثل لهم جحيم الدمار والهلاك ، ولا يجدون عنها مصرفًا ومحيدًا .

وأرى أن ما يتعوّد المرء من الجدل[1] – أي حياكة الحديث، وخَلقه مما ينسجم ، وعولخفه ومزاعمه ، ويخدمها – والثقافة مما يزيد سليقة تنميق الكلام ، زخرفة القول . و إشارة إلى هذه العادة السوء ما أتبعه القرآن الكريم قصة الشرك الجديد هذه من قوله : (وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هذا القُرآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جدلاً) . ولا يخفى أنه كلمة «كُلَّ مَثَلٍ» الواردة في هذه الآية يجب أن تخصّ تلك الأمثلة التي تمت إلى الدين

[1] ويقول أهل اللغة : إن الجدل في الأصل : فتل الحبل فصناعة الحديث ، وخلقه يبدو تعبيرًا واقعيًا عن الجدل.

بسبب. و إذًا لاغرو أن نجد القرآن الكريم – ذلك الكتاب الخاتم الذي لا يتلوه كتاب أبدًا – يشير إلى ما عسى أن يستجدّ ، ويحدث اليوم من وجهة نظر، وسليقة تفكيره ثورية مثلها تبرز لنا عقلية الشرك الحاضر المعاصر ، وهل يبقى أثر من آثار هذا الشرك التعليمي ، وشريان من شرايينه بعد ما وَصَفَ واقع الآفاق ، والأنفس – أي داخل الإنسان ، وخارجه – بقوله الموجز : (مَا شَاءَ اللّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ) ذلك الوصف و التعبير الصادق الواقع المحكم المنطقي .

وهنا يتساءل المرء عما إذا كان القرآن الكريم وتوجيهاتُه التي تورث الطمأنينة ، والإيمان والجزم، قد زَعْزَعَ أركان الشرك القديم في قلوب من استهواهم ، ولكن سوق الشرك الجديد وإن لم تزد رونقًا وبهاءً ، فلا أقل أنها لم يُصِبْهَا الكسادُ ، ولا نظن اليوم أنها يصيبها ذلك .

فماذا عسى أن يؤدي إليه ؟ ولماذا يخبط العالم خبط عشواء رغم أضواء التوجيهات القرآنية السلخعة الباهرة ؟

فالحق أننا نشاهد اليوم – وشاهده من قبلنا – أن الذين يجادلون الحق بالبلخل لاينتهون إلا إلى الاستهزاء ، والسخرية . ومن فعل الاستهزاء والسخرية الطبيعي أن الذين يتعودون تجاهل الحقائق ، والتغافل عنها بالسخرية ، والاستهزاء يُحْرَمُوْنَ النظرةَ الجادةَ فيما يواجهونه من الحقائق والثوابت ، فهم لا يستطيعون السمع، وإن كانوا ذوي الأسماع والآذان ، ولا يستطيعون البصر، وإن كانوا ذوي الأعين والأنظار .

وبهذه المناسبة ماذكره القرآن الكريم بقوله: (وَاتَّخَذُوْا آيَاتِيْ، وَرُسُلِي هُزُوًا) ثم ما وَصفَه من حيف هؤلاء المستهزئين ، وتغافلهم عن أوامر الله تعالى ، ثم قال : (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ ، وَفِيْ آذَانِهِمْ وَقْرًا) يشير - فيما يبدو - إلى هذا العارض الداخلي الفاتك الذي يصيب النفسية الإنسانية ، وما أغربَ هذا الداء ، وأنكرَه !!

وعادةً إذا ما ينتاب المرءَ نوبة الخفقان الاستهزائي ، فإن قلمه ولسانه ينطلقان - كما هو المشاهد خلال هذه النوبة - بالكلمات اللاذعة القارصة دون قصد ، فيغترّ المستهزئى بأنه لبِق ، فَطِن خارق الفطنة والذكاء ، كما أن السيل العارم من ثناء الناس عليه يريهم أنه فقيه العصر وحكيمه ، كما أنه يرى نفسه كذلك مغْتَرًّا به .

وبالتالي تتضايق عليه سلاسل العذاب النفسي والبلخني ، ويشتدّ عليه الخناق . وهو يظن أنه يطير حرًّا خليقًا ، وهو وضع عقلي فتّاك ، يَسْلُب المرءَ إمكانيةَ تقبل الحق والخضوع له ، وينسدّ عليه أبواب العلاج ، والمداواة ، إلا ما وصفه القرآن الكريم قائلا : (أنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِيْنَ أَوْ يأتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُلاً) .

نوعان من أنواع الأخذ من الله تعالى

وهذه الآية تشير إلى الأوجه الثابتة التي يتمثل فيها أخذ الله تعالى ، وبطشه ، وقوله : (سُنَّةُ الأَوَّلِيْنَ) يعني - كما أشار إليه عامة أهل التفسير - أن الأمم السالفة التي تلاشت آمال عودتها إلى الجادة تمامًا ، قد قضي عليها قضاءً نهائيًا ، وما

أكثر الأمثلة على سنة الأولين هذه في القرآن الكريم نفسه.[١]

والوجه الآخر من هذا البطش الجماعي أنها تستهدف بأنواع من المصائب والآلام ، فلا تتخلص من بلية إلا إلى مثلها حتى ينقطع دابر أمثال هذه الأمم التي أجرمت ، وعصت عن أمر ربها.

ولعل عصرنا هذا يشهد بداية الوجه الثاني من البطش والأخذ متمثلاً في الفتنة الدجالية وما تبعه من الطغيان والعصيان. ومادام أنه قد بدأ فلابد أن ينتهي .

والحق أن ما نشاهده من التأجيل - دون التعجيل - من الله تعالى في الأخذ ، والبطش إنما يرجع إلى رحمته التي وسعت كل شيء ، ويتطلبه اتصافه بالعفو عن عباده المذنبين العصاة . وليس ذلك شعورًا شخصيًا لي ، أو إحسان ظن صوفي ، وإنما هو نبأ حاسم نبَّأَ به القرآن الكريم قائلاً : (وَإِنْ تَدْعُهُم إلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوْا إِذًا أَبَدًا) بالإضافة إلى أنه قَرَنَ قولَه : (وَرَبُّكَ الغَفُوْر ذُوْ الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوْا لَعَجَّلَ لهم العَذَابَ) بقوله : (بَلْ لَهُمْ مَوعِد لَنْ يَجِدُوْا مِنْ دُوْنِه مَوْئلاً).

والظاهر أنه لا يسعنا الظن بأن الله تعالى يمهل الذين قطع فيهم بأنهم لا يهتدون ليوفّر لهم إمكانية التوبة ، والإنابة إلى الله تعالى ، وإنما تَتَطلبُ هذا التأجيلَ في المؤاخذة والبطش رحمتُه

---

[١] سنة الأولين : هو عذاب الاستيصال ، ويأتيهم العذاب قبلاً : القبل : بضم القاف والباء جميعًا جمع «قبيل» بمعنى : ضروب من العذاب تتواصل . هذا ما فسّر به الرازي الآية ، وبه فسّر الراغب في «المفردات» . راجع تفسير الرازي ٤٧٦/٢١ ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت .

الشاملة التي لا يُحْرَمُها أحدٌ . وإن رحمته الواسعة الشاملة اقتضت أن يتاح فرصة الإفادة من صفته الغفورية أي صفته التي تستر نتائج الذنوب والمعاصي – لمن لا يتمكن من التوبة والإنابة إلى الله تعالى. ولكن إلامَ ، وفي أي المراحل الحياتية تستر غفوريتُه سبحانه وتعالى آثار شرورهم ، ومعاصيهم ؟ لايعلمه إلا الله تعالى .

وعلى كل هيهات أن يسوّى بين الصالحين ، والفاسقين ، والجناة ، والأبرياء ، فإنه لابد أن تتحقق مقتضيات عدله تعالى . وذلك هو «الموعد» الذي يتجلّى فيه مصير من لخاعه ، وخضع لأوامره، ويتميز تمامًا عن مصير العصاة ، الخارجين على أوامره . وإن ما سيواجهه فئة منهم يختلف تمامًا عما يواجهه الأخرىٰ .

وبما أنه قال فيما بعد : (وَتِلْكَ القرىٰ أهْلَكْنَـاهُمْ لَمَّا ظَلَمُـوْا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) مما يدل ظاهره على أن «الموعد» يخصّ حياة كل واحد بذاته ، أي أن كل واحد يتمثل له عواقب حياته الشخصية ، ولن يفلح في البحث عن مخلص ، وموئل عن هذه العواقب .

ولا يخفى أن عواقب الحياة الشخصية هذه إنما تتجلّى وتظهر ظهورًا حقًا واقعًا في مرحلة من مراحل الحياة الدائمة الثابتة، التي ينتقل إليها بنو آدم في أعقاب هذه الفترة العابرة المُنْقَضِية المقضيَّة .

بغتة العذاب

لقد علمت آنفًا أن القرآن الكريم ذكر وجهين من وجوه مؤاخذة الأمم ، وبطشها على جرائمها الجماعية : أولهما : سنة الأولين ، وذلك – كما صرّح أهل التأويل – أن يأتي العذاب بغتةً

فيقطع دابرها ، وتُسَحق من على وجه الأرض سحقًا . وأسلفت أن القرآن الكريم يفيض بذكر الأمثلة التاريخية على «سنة الأولين» هذه ، وهكذا بطش الله تعالى ، وأَخَذَ قوم نوح وعاد ، وثمود ، وأصحاب الأيكة ، وأمثالها .

والوجه الآخر من البطش الجماعي ما يدل عليه قوله : (أوْ يَـأتِيَهُمُ العَـذَابُ قُبُلاً) أي يترادف عليهم العذاب قليلاً قليلاً . والفتنة التي تتعلق بها سورة الكهف سبق أن قلت : إن الوجه الثاني من الأخذ والبطش قد بدأ فِعلاً – فيما يبدو – على نخغوى هذه الفتنة .

وهذه الفقرة الثانية التي أشار بها القرآن الكريم إلى قرى الأمم الظالمة المدمّرةِ ، و«المهلك» الذي هدد به ، وأنذر بأنّ له «موعدًا» ؛ لا يرجع إلى الأخذ في الحياة الآخرة ، وإنما يعـود إلى البطش في الحياة الاجتماعية مما يظهر على وجه هذه الكرة الأرضية .

وأتساءل أخيرًا عما إذا كان القرآن الكريم قد أشار إلى قرى الظالمين المدمرة الخاوية عبرةً لمن اعتبر، وقد خربت هذه القرى من وجه الأرض ، فما أخبر عنه القرآن الكريم في هذه الفقرة من «المهلك» والدمار هل نقول إنه إنما يظهر على وجه الأرض نفسها.

عذابٌ قُبُل

ويبدو أن التوعد بالمهلك إنما يتمثل في «العذاب القبل» دون «سنة الأولين» ، وأن الأقساط التي بدأت من العذاب لابد وأن

تصل إلى نهايته . ومن ذا الذي يسعه القول بأن ما تقدّم في الآيات الأول من سورة الكهف هذه – من التهديد بعذاب شديد من لدنه والإخبار بأن ما على وجه الأرض ، سيجعله صعيدًا جرزًا – لا يتعلق بالأجزاء الأخيرة منها .

وهذا الذي قدمنا لك يغنيك كثيرًا في إدراك ، وتفهيم ما تنبأ به القرآن الكريم .

* * *

١- قصة موسى والخضر

وفيما يلي ترد لنا قصتان – واحدة تلو أخرى – من سورة الكهف ، تعرف إحداهما : باسم قصة موسىٰ والخضر ، والثانية قصة ملك من الملوك الماضين يسمى «ذا القرنين» .

ولا يخفى أن القصّتين – بل وسائر القصص التي يضمّها هذا الكتاب السماوي الخاتم – حاشا أن تستهدف مجردَ الحكاية والبيان، ولا اعتُقِدَ ذلك أبدًا . فمن المسلَّم قديمًا وحديثًا أن فحوى هذه القصص يلقِّن قراءَها دروس الحكم والأسرار والعبرة والبصيرة. فأزيحَ الستار عن «أسرار الشجاعة» في لباس «أمر آخر».

وَضَعْ هذه النقطة المسلمة نصب عينيك ، وتأمَّلْ في المناسبة التي ذُكِرت فيها هذه القصة ، وفي النتائج التي عسى أن نُخلِّصها منها ، ومدى إمكانية الإفادة منها في حياتنا العملية .

ملخّص القصة

والقصة الأولى – وهي ، فيما يقال ، جرت بين الخضر و موسىٰ عليهما السلام – إنّما تتلخص – إذا ما حاولنا تلخيصها – في أن ما رَجَاهُ موسى من الخضر قائلاً : (هَلْ اتَّبِعُكَ عَلى أنْ تُعَلِّمنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) . والذي يعني – فيما يبدو – أن موسى عليه السلام شعر بحاجته إلى نوعٍ معيّن من الرشد يوافق ومتطلباتِ عصره ، مما دَفَعه إلى أن يلتقي الخضر عليه السلام ويصاحبه .

وكأنه الخضر عليه السلام حاول أن يُلقِيَ على موسى – من خلال ثلاثة نماذج عملية في أيام رفقته – نوعًا من الدرس العملي يخصّ جوانب الرشد الذي أبدىٰ موسىٰ رغبته فيه .

الدرس العملي الأول

إن مثل السفينة – كما صرّح الخضر عليه السلام بدوره – يستهدف التأكيد على أن دفع الظالم عن ظلمه ، والأخذ على يده بقوةٍ قد لا ينسجم ومتطلباتِ العصر ، وإنما يقتضي أن يُدخل – عن عمدٍ وقصدٍ – بعض المعايب الظاهرة على ما يستهدفه الظالم بإجراءاته المجحفة فتزدريه عينه الحريصة الطامعة ، فينصرف عنه ، ورغم ذلك يبقى الشيء على ما كان ، يؤتي أكله ، دون أن يختلّ نظامه .

وعلى كل ، فحيث يتعذر دفع الظالم عن ظلمه فالأحرى أن نُقصِيَ عن أنظاره ما يستهدفه ظلمُه وطغيانُه ، وإن أدّى ذلك إلى أن يتجشم المغلوب على أمره شيئًا من الأضرار الناجمة عن العيب والنقص . ومن المعقول جدًا أن نغتنم ببقاء رأس الشيء وأصله – ولو معيبًا – في حين نخشىٰ عليه ذهابه بأسره وبرمته . أليس سفينة الملاحين قد نَجَتْ ، وإن أصابها الخرق ، دون أن يتوقف عملهم ، ولولم يُدخل على السفينة عيب الخرق ، لَقَهرَ الملك الظالم الكائن في الناحية الأخرىٰ ، وحرمهم السفينة ، وعوائدها للأبد ؟!

الدرس العملي الثاني

ثم ألقى الخضر عليه السلام الدرس العملي الثاني بقتل الغلام الذي ساءله موسى عن السبب الذي حَمَلَه على قتل نفس نقيَّة عن

الأنجاس البلخنة – وهذا ما أراده بقوله : (نَفْسًا زَكِيَّةً) – كما أن الغلام لم يكن قد قتل نفسًا فيقتل بها – فقال موسى: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) .

والحقيقة التي كشف عنها الخضر عليه السلام ردًّا على سؤال موسى إن دلَّت على شيء فإنما تدل على أنه ربما كان يوافقه على تبرئة الغلام من الأمر الثاني ، وهو قتل نفس ، ولكنه استدرك على موسى مازعم من أنه نفس زكية ، وأخبره بأنه ، وإن كان وُلِدَ من أبوين مؤمنين أي نشأ في مهد امرأة مؤمنةٍ ، ورَضَعَ لبانها ، وترعرع في ظل أبٍ مؤمنٍ وبلغ مرحلة العقل والتمييز والرشد آخذًا بيده المؤمنة حتى أدرك ، إلا أنه – فيما يبدو – تعرّضَ لأوضاع وأسباب وَرّطَتْهُ فيما أورث فيه الطغيانَ ، والعصيانَ على أوامر أبويه ، دون عولخف التقدير والعطف ، والاحترام لهما ، وتَصاعَدَ ذلك إلى أن أصبح ولد أبوين مؤمنين هذا ، يرتكب جريمة الكفر أي الارتداد ، ومَارَسَ طغيانه وعصيانه وكفره ، وارتداده وعناده على أبويه المؤمنين ، وأَقَضَّ مضاجعَهما بشكل لا ينقطع ، أوخِيْفَ عَليه أن ينغِّص عليهما عيشهما في المستقبل .

والحاصل أنه وقع في الأوساخ الخلقية والعقدية، واستَحَقّ أن يُؤثَرَ عدمُه على وجوده . وإنما يقتصّ من القاتل نكالاً لمن بين يديه ، وتخويفًا له من أن يقدم على مثله . وأما الذي تردّىٰ في أنجاسه الخلقية والعقدية إلى أن أصبح يَهدِّد حياة أبويه – قبل غيرهما – اللَّذين قَامَا بتربيته وتنشئته ، فهل يجد بيتٌ مؤمنٌ سبيلاً إلى مداواة عضو مشلول غيرَ بتره وقطعه ، حتى يذوق وبال أمره،

ويبقى غيره بعيدًا ، وفي مَنْجاةٍ عن سمومه الخلقية و العقدية دون تتعدى إلى غيره .

وقد أكّد الخضر عليه السلام على أنه لم يكن يتوخّى من خلال ذلك تخليص هذا البيت العلمي من هذا الوجود القذر النجس العفن فحسب ، وإنما كان يتوخّى كذلك : (أَرَدْنَا أنْ يُبْدِ لَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وأَقْرَبَ رُحْمًا) .

والأمر الأول – أي أن الولد العِوضَ عن الولد المقتول خيرٌ منه زكاةً – يعني – فيما يبدو – أنه يترفع عن الأقذار الخلقية والعقدية، وأما الوصف الآخر من أوصاف هذا الولد ، وهو قوله: (اَقْرَبَ رُحْمًا) فيمرّ عليه مائة أهل التفسير والترجمة قائلين : أقرب رفقًا ورحمةً بأبويه ، إلا أن أوثق الباحثين في الكلمات القرآنية . وهو العلامة – الراغب الأصفهاني[1] يقول في لفظة «رحم» : «الرحم رحم المرأة، ... ، و منه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة . يقال : رَحِمٌ و رُحْمٌ . قال تعالى : (وأَقْرَبَ رُحْمًا)[2].

وفي ضوء هذا الشرح المعنوي الذي ذكره الراغب أرى أن قوله : (أَقَرَب رُحْمًا) يعني أن هذا الولد المعوَّض عن الولد المقتول يكون أقرب إلى الحدود الطبيعية التي تحيط بمتطلبات العلاقات

(1) الراغب الأصفهاني (٠٠٠–٥٠٢هـ = ٠٠٠–١١٠٨م): الحسين بن محمد بن المفضل ، أبو القاسم المعروف بالراغب ، أديب من الحكماء العلماء ، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي . من كتبه : «محاضرات الأدباء» ، و «الذريعة إلى أحكام الشريعة»، و «المفردات في غريب القرآن» . (الأعلام للزركلي ٢/٢٥٥) .

(2) المفردات للراغب الأصفهاني .

الرحمية، وبتعبير آخرَ أخصرَ أنه أقرب ما يكون إلى الرفق بأقربائه، والإحسان إليهم ، دون أن يبتعد عنهم ، ولا يخفى أن أول من ندخله في الأقارب هما الأبوان .

وعلى كل ، فتحديد أهل التفسير ارتباط إحسان هذا الولد – بشكل عام – في أبويه لا نرى له وجهًا فيما يبدو ، ولا نجد في القرآن الكريم ما يصوّب ويبرّر هذا الادغام بوجه خاصّ . فيجب أن نعدّ في الأقارب : الإخوانَ ، والأخوات وسائر أفراد العائلة بالإضافة إلى الأبوين . وإن ما نقوم به في الآية من الاستنتاج من الدرس العملي الذي أَلْقَاه الخضر عليه السلام يحتلّ شرحُ كلمة «رحمًا» هذه ، أهميةً بالغةً . وانطلاقًا من ذلك يجب أن يستشعر القارئ أهميته مجملاً .

الدرس العملي الثالث

وأما النموذج العملي الثالث فقد قدّمه الخضر عليه السلام حينَ بلغ القرية التي أبى أهلها أن يضيّفوا هذين الرجلين – الخضر وموسىٰ – رغم خَلَبهما ذلك منهم . فكان أحدهم قد خردهما من بابه ، فلم يرهقهما جسدًا فقط ، وإنما نال من عزهما وكرامتهما وكل ذلك لم يمنع الخضر أن يقيم جدارًا من جُدْران القرية هذه ، يريد أن ينقضّ، دون أن يتقاضىٰ عليه أجرًا .

فما لبث أن قال له موسى : (لَوْشِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) ، واستنكر عليه عمله هذا ، فردّ عليه الخضر بأن يتيمين من أهل القرية لهما كنز يحويه الجدار ، وكان أبوهما صالحًا ، فأراد الله أن يظفر يتيما هذا الرجل الصالح بهذا الكنز حين يبلغان أشدهما .

فينتفعا من تِلاد أبيهما الصالح .

ومجمل القول أن الخضر أكّد على أنه كان عليه أن يحافظ على هذا الكنز الذي ورّثه الرجل الصالح ولديه ، إلى أن يبلغا سِنًا تؤهلهما للاستفادة منه . فلم يَقُمْ إلا بما وجب عليه ، وإن أساءَ إليه أهل القرية التي ينتمي إليها اليتيمان . ومادام أنه قام بواجب ، فهيهات أن يطلب عليه أجرًا ، وأنه كان قد تَحتّم عليه القيام بالواجب سواءٌ ضَيَّفه أهل القرية أم لم يضيّفوه . وهذا هو الدرس الذي لَقّنه الخضر موسى من خلال هذا النموذج العملي الثالث .

وعلى كلٍ قُمْت بتلخيص نماذج الدروس العملية الثلاثة التي ألقاها الخضر – والتي حكاها القرآن بأسلوبه – بتعبير من عندي ، فمن أحسنَ اللغة العربية فليرجع إلى النص القرآني ، ومن لم يحسِنْ فليرجع على ترجمة معاني القرآن الكريم ، وليقارِن هذا الملخّص بها ، وانتقل – الآن – إلى النتائج ، والعبر التي توصلني إليها هذه القصة.

وأسلفتُ السببَ الذي يعود إليه تأجيل الله تعالى مؤاخذة المجرمين ، وإمهاله إياهم ، دون التعجيل في ذلك . وانتهى بيان أسبابه وعِلَله إلى النداء بـ (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوْا مِنْ دُوْنِه مَوْئِلاً).

ولا يعني ذلك إلا أن الفتنة الدجالية الحاضرة المتمثلة في الإلحاد ، والمشقة عن بطن الدين الذي قامت أسسه على عقيدة الولدية المختلقة المفتراة – أي أن المسيح ابن مريم ولدُ خالق الكون، وما أخبر عنه من المغبة الأليمة لهذه الفتنة ، وما يتمثل فيه من البأس الشديد «من لدنه» ، مما يؤدي إلى أن تتحول الأرض ، وما عليها من زينةٍ ، صعيدًا جرزًا، إن هذه المغبة وهذا الثأر الإلهي

يُبيدُ العالم ، ولابد أن يتحقق ذلك ، ولكن أيّان ؟ لا يسع أحدًا أن يحدد زمنه ، ولا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى موعدَه .

تطبيقه على الأوضاع الراهنة

تأمّل أن قصة موسى والخضر عليهما السلام جاءت عقب هذا النداء ، هذا في جانب ، وفي جانب آخر نشاهد – نحن وأنتم – بأم أعيننا أن بُنَاةَ هذه الفتنة ، وأئمتها الذين يمتلكون ناحيتها ، يرصدون كل نِتاجٍ – شخصيًا كان أو جماعيًا ، إنسانيًا كان أو غيره – فيصادرون ويتلقفون ، ويستولون على كل ما يمكن أن يخدم مصالحهم ، وأهدافهم البلخلة ، ولَخماعهم الخبيثة فيما يرونه، ليستخدمو استخدامًا غير مباشر . وقد بلغوا في ذلك شاوًا بعيدًا من الحذق واللباقة ، ولا يُستَبْعَدُ أن يذهب البعض ليقول : لووقع مَلَك من الملائكة في حبالهم لتعمّدوا استخدامه فيما يعضّ عليه الشيطان بنان الندم .

وانطلاقًا من رغبتهم في إفساد الأجيال ، ودفع عوامل الطغيان والعناد فيها ، وتقريبها إلى شفا الإلحاد ، هَيّأوا – بمساعدة الوسائل ، والطرق المستجدة – جوًّا لا يضع فيه واضع قدمَه دون أن يتحوّل كليًّا عما كان عليه قبل أن يضع قومه .

فالحاصل أن أحبّ شيء إلى الولد في الكون – وهو أبواه – يتحول وجوده له – كما نشاهد كل يوم – وجودَ الحمق والمجانين. وقد قال الشاعر الأردي «أكبر»[1] وهو يشير إلى الكتب فحسب

[1] أكبر (١٢٦٢–١٣٤٠هـ = ١٨٤٦–١٩٢١م) الإله آبادي : شاعر أردي ، فلسفي، فاقد النظير ، نقّاد للمدنية الجديدة ، ممن كان يتوجس خيفةً من الحركة التي قام بها

ما معناه :

«إننا نرى جميع الكتب التي تجعل الأولادَ قراءتُها يفنِّدون آباءهم ، ويُسفِّهونَهُمْ ، أحرى بالمصادرة والاستيلاء عليها عقوبةً لأربابها».

والحق أنه قد تمّ تهيئة قالَب من الجوّ المسموم باستخدام الراديو ، والسينما ، والروايات والصور ، وأشياء لا تحصىٰ بالإضافة إلى الكتب[1]. مما يجعل الكثرة الكاثرة ممن انصهر فيها كُلٌّ من رآهم تذكر عفويًّا النص القرآني : (فَخَشِيْنَا أنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) .

وفي هذا العهد الفائض بالميول المادية المحضة قد سلطت الحضارة الدجالية ، والمدينة الجاهلية فكرة حصر الحياة الإنسانية في

السرسيد أحمد خان في الهند ، تهافت الناس على قراءة نقده المعجون بظرافته التي خُبِعَ عليها . له ديوان شعر مطبوع . «راجع : كاروان رفته» (قافلة الراحلين) للأستاذ / أسير الأدروي ص ٤٠ ط: دارالمؤلفين ، ديوبند ، الهند) .

[1] كالأوهام والهواجس الشعرية ، ومنها نظرية الارتقاء . ولا يخفى أن استنتاج نظام الكون الحي من مادة ميتة لاحياة فيها ، والتأكيد على أن «أرسطو» ، «ونيوتن» ، وأمثالهما من الحكماء قد انشق عنهم قطعة من التراب فجأةً ، لم يكن أمرًا يسيرًا ، فأسدلوا على ما بين المادة الميتة ، ومظاهر الحياة ستارة عشرات الملايين من السنوات، ولا يحصى ولايعدّ من المراحل ليغيب عن ذاكرة الناس أنهم يستخرجون أرسطو من قطعة من التراب .

وعلى كلٍ فقد أخذوا – فيما أخذوا – من نظرية الارتقاء أن كل لاحقٍ يبدو أكثر تطورًا من الأجيال السالفة ، وكأنّ ما ورد في الحديث النبوي من علامات القيامة ، ومنها «أن تلد الأمة ربتها» يشير إلى هذه العقلية المعكوسة . ا.هـ

قال المترجم : الحديث رواه البخاري في تفسير سورة لقمان باب (إنَّ اللّهَ عِنْدَه عِلْمُ السَّاعَةِ [٤٧٧٧] ٥١٣/٨ ؛ ومسلم في الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام [٥] ٣٩/١.

الفترة المتخللة بين بطن الأم وبطن القبر بوعي تسليطًا جعل الأجر والبديل ينحصر فيما ينفع الإنسان في هذه الفترة المحددة من الحياة، وبالتالي مَا لا يؤمِّن هذا المعيارَ من الأجر والبديل عَادَ عبثًا وبلخلاً لا يغني من جوعٍ .

وظلت هذه الجراثيم وما يقاربها من الجراثيم الأخرىٰ المسمومه تنشقّ ، وتنفجر من هذه الفتنة ، وتتوغّل في بيوت بني آدم ، وتتفشى فيها ، وإذا نظرنا إليها ، وأخذنا من قصة موسى والخضر ، وما تشتمل عليه من النماذج العملية دروسًا وعبرًا ، وأن ما نَصَحت به هذه السورة من الأعمال في الحياة الكهفية ، والأمر الأول منها ماصرّح به قول الله عز وجَلّ : (اُتْلُ مَا أُوْحِيَ إلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ، لاَمُبَدِّلَ لكَلِمَاتِه ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُوْنِه مَوْئِلاً) أي تلاوة ما أوحي إلى محمد ﷺ من المعارف والعلوم ، والصبر على محاولة صبغ الحياة الشخصية بصبغتها مع رفقةٍ وُصِفُوْا بما يلي : (يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ ، يُرِيْدُوْنَ وَجْهَه) .

وثاني الأمرين هو ما أمر به بقوله : (قُلْ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) .

فكرة إنشاء المدارس الدينية في الهند القديمة تفاديًا للفتنة الدجالية تعكس بصيرةً نفاذةً :

إن أشغال الحياة الكهفية هذه وإن بَدَتْ سهلةً ميسورةً فيما يراه الرائي ، ولكن أيام الفتنة التي كُلّف فيها بهذه الأشغال مَن يرغبون أن يَحْيَوا حياةً عامرةً بالإيمان والعمل الصالح ، ويموتوا عليها ، من المشاهَد المجرّب أن الأوضاع حوّلت هذه الحياة الناعمة

أقسىٰ ، وأشد إلى أبعد الحدود . ولا عليك إلا أن تتأمّل في خصائص هذه الفتنة الثلاث البارزة التي تشير إليها السطور الآنف ذكرها .

ودُون أن تذهب بعيدًا أودّ أن أذكّرك – مثلاً – أن السيل العارم من هذه الفتنة الدجالية الحاضرة حين انساب من أوربا ، وأمريكا إلى الشرق فلعل أول ما تعرض لموجاتها العاتية القاضية على الروح الناهبة للإيمان : بلادُنا الهند ، وتقلب الحكم الإسلامي فيها ظهرًا لبطنٍ . فَحَاولَ مَنْ حاوَلَ – كخطوة أولىٰ – أن يدفع هذا الظلم والطغيان بقوةٍ ، ولكن التجارب أكّدت على أن الظالم لّما يَحِنْ حينُ زوالِه ، فَلاَذُوْا إلى إنشاء شبكة من المدارس الدينية في شتى نواحي البلاد للقيام بهذه الأشغال في الحياة الكهفية السالفة الذكر .

وذلك حين كانت الجامعات العصرية المختلفة تقوم بنشر شبكة من المدارس والكليات العصرية في خول البلاد ، وعرضها ، وتسعى جاهدةً على نشر العلوم الأوربية الجديدة . ولا تسأل عن وزن هذه المدارس العربية البائسة بجنب مظاهر هذه الجامعات والكليات والمدارس العصرية الكبيرة الشامخة ، وأَضِفْ إلى ذلك أن إقامة هذه المدارس العربية لم تُمارس الدعايات في الصحف ، ولا أُقِيْمَ لها دنيا الطباعة ، واُقعِدَتْ ، ولا علقَت – أو ألصقت – الإعلانات البارزة على الجدران والأماكن التي تلفت الأنظار ، ولا عقدت لها المؤتمرات والحفلات السنوية في المدن والقصبات ، ولا أعدّت كتيبات تخصّها ، وإنما تجمع ثُلةٌ من الدارسين ، وثلةٌ من

المدرسين إلى زوايا المساجد في القصبات والقرىٰ الغامرة المجهولة في عَوزٍ وإفلاس يرثى له ، وفاضت المقررات الدراسية بالعيوب والنقائص ، فلم يلحق بها ما يتطلبه العصر الراهن من كتب العلوم والفنون ، ولا أفسح المجال للغةٍ من اللغات العالمية العلمية الحاضرة، وإنما يُدرَّس في هذه المدارس «مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» بالإضافة إلى كتب بعض الفنون البالية التي تعود إلى العهد القديم ، وبكل جفاء وزهدٍ فيها .

وعلى كلٍ فما كان يلوح للناظر إليها إلا «خروق» تلوها خروقٌ ، وبالتالي جهل ليومنا هذا – لا الدول الراقية أمثال أوربا ، وأمريكا – وإنما جهل كذلك فئة كبيرةً من المسلمين الهنود هذه المدارس – وعلى الأقل – قدرها وقيمتها، ومكانتها.[1]

ولا تسأل أناسًا آخرين . أنا بدوري أضيق ذرعًا بما أشاهده من الأوضاع المتردية التي تعيشها مدارسنا الدينية، ورثاثة

---

(١) وخُرفة خريفة لا أنساها ما حييت ، وذلك أن الراحل القاضي محمد حسين – الذي شَغَل منصب نائب أمير (Provice Chancler) الجامعة العثمانية لأيام ، وينتمي إلى عائلة القضاة ، فكان يلتزم بإلحاق سابقة «القاضي» باسمه ، وأصله من «بنجاب» ، تخرج في الجامعات الهندية ليشد رحاله إلى أوربا ، فحصل على شهادة (Angular) في الرياضيات ، وما أقل من حصل من المسلمين على هذه الشهادة العالية ، وخاصةً في الرياضيات . والذي أودّ القول إنه ربما تطرق بنا الحديث إلى ذكر مدرسة «ديوبند» فكان الرجل يتساءل – بكل سذاجةٍ – أيها الشيخ ! لعل هذه المدرسة تقع في «بنجاب» حيث جبال الملح ؟!.

ويضيف: «نعم نعم ! لقد زرتُ هذا المكان ، وأناصبي».

وطالما نَبَّهتُه على واقع الأمر ، ولكن ذاكرته العنيدة لم تَدَعْ ما توهمه من «جبال الملح» يفارق ذهنه ، رغم أنه كان لايتولى المسلمين فحسب ، وإنما كان يتولى الإسلام كذلك.

دارسيها، وبؤسهم ، و هوانهم في أعين الناس ؛ وما يلابسها من النقائص، والمعايب التي أعْتَبِرُ – ليومنا هذا – معايبَ و نقائص، ولكن كما أعترف بهذا الإهمال ، والتقصير بصدرٍ رحبٍ ، لا يسعني أن أتنكّر للواقع، والمشاهد من أن هذه «الخروق» ، ومظاهر الإهمال، والتقصير التي أصابت مدارسَنَا ، والتي تدفع الحريصين عليها إلى الرثاء لها ، والبكاء عليها بمثل هذه الأساليب والتعبيرات بصورة لا تنقطع ، فقد كانوا يصفون الخريجين فيها – مثلاً بما قاله الشاعر الأردي الشهير المقلب بـ«حالي»[1] ما معناه:

«إنهم لا يصلحون لشيء : لا للتوظيف في المصالح الحكومية، ولا تحريك اللسان في البلاط ، ولا حمل الأثقال في الأسواق ، ولا رعي القطعان في الغابات».

فاستيقن من استيقن بما قاله الشاعر الأردي الحافظ نذير أحمد[2] ما معناه :

«هيهات أن يتدارك هولاء مافات ، فالأحرى أن يطوىٰ هذا

---

[1] حالي (خواجه ألطاف حسين) (١٨٣٧-١٩١٤) : أمير شعراء الأردو ، نَظَم مسدّسه المسمى «مدّ وجزر الإسلام» ١٨٧٩ . وفيه الأهداف التي رمت إليها حركة الإصلاح في الهند الإسلامية . كان أول ناقدٍ في الأدب الأردي . (المنجد ص ٢٢٨) .

[2] الحافظ نذير أحمد (١٢٥٤-١٣٣٠هـ = ١٨٣٦- ١٩١٢م) الدهلوي : خطيب بارع ، مفوه ، عمل في الحكومة الإنجلزية ، وتولّى منصب المفتش بالنيابة فيها. نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية بأسلوب سلس، كان له حلقة التدريس بجانب وظيفته الحكومية .خالما استضافه الرشيد أحمد خان في حفلاته، واستغلَّ فصاحته ، ولَسَنَه في كسب قلوب الناس إلى نفسه ، وجمع التبرعات لحركته ، ومدرسته ، له روايتان : «مرآة العروس» ، و«بنات النعش» لَقِيَتَا قبولاً عامًا في الناس. (راجع قافلة الراحلين ص ٢٥٣)

البساط ؛ إذ خَابَ المؤمَّلُ» .

وأما أنا فأرىٰ أن نقوم – لا بممارسة التعريضات المعادية ، والطعن المنافس – ولكن باعتبار هذا النوع من الانتقادات من باب ما انتقده موسىٰ عليه السلام إذ رأى السفينة قد أصابها الخرق، فقال للخضر عليه السلام : (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) .

ولكن يعلم من يعلم أننا قمنا بتطهير هذه المدارس من النقائص والمعايب السالفة الذكر حتى جعلناها والجامعات والكليات العصرية سواءً بسواءٍ، وهيَّئنا فيها ما يبعث في دارسيها القدراتِ التي يرثون لها في هذه المدارس فالسفن المتبقية المنجية التي توفّرت في أيام الفتنة المظلمة السالفة التي أحدقَتْ بالدين ، للذين وُفِّقُواْ – إلى اليوم – للتوصّل إلى شفا حفرة القبر ، وهم يعيشون عيشةً عامرةً بالإيمان والعمل الصالح ، هل كان لنا أن نتلَقّى سفن النجاة هذه ؟ وإلى هذه المدارس البائسة المنكوبة يرجع فضلُ ما أُتيح لعددٍ أفراد العائلة المسلمة فرصة تلقي النشأة ، والتربية الدينية مما لو تسلّحوا بالمتاع المعاصر من الرفاهية ، والعزة، لما رأيتموهم في خراب المساجد ، والزوايا الموحشة في القصبات القديمة النائية ، وإنما وجدتموهم – وأؤكد على ذلك – في مكاتب الهند في «لندن» ، أو البرلمانات ، وعلى الأقل ألْفيتموهم يزيّنون المجالسَ ، والمجامعَ التشريعية ، والمحاكم العليا في الهند، ثم يَنْقَضُوْنَ .

بل تقول التجارب إن مدرسةً من المدارس لم تُرَاعِ متطلبات

العصر إلا أوجست الحكومة في نفسها خيفةً منها ، وحاولت القضاء عليها ، أو استخدمتها فيما يحقق مصالحها وأهدافها . فهذه المدارس تواصل سيرها باسم مدرسةٍ دينيةٍ ، ولكن يعلم من يعلم أن المتخرجين في هذه المدارس من يستفيد منهم، وينتفع بهم؟ هذا ما يحدث أمام أعيننا ، وتشاهده كلُ عين ناظرةٍ هذه العواقب. وحينئذ يدرك الناس المصالح التي دَعَتْ البُنَاةَ الموصوفين بالصفات الخضرية لهذه المدارس الدينية المصطبغة بالصبغة الكهفية ، إلى الإبقاء على ما يشينها من الخرق والشق والصبر عليه .

هذا إلى أنه – وأصدقك – يتمّ اليوم انتزاع الأولاد المسلمين من مهد الآباء والأمهات المسلمين ثم إدخالهم في الجامعات العصرية ، ثم يَزْرَع من يزرع في قلوبهم وعقولهم الجراثيم الكافرة من الطغيان والعصيان والإلحاد والارتداد عن الدين.[1]

وبإزاء ذلك هذه مدارسنا الكهفية عملت على إنقاذ فئة من الأجيال المسلمة – وإن كانت أقل عددًا – من الأقذار العَقدية والخلقية ، ولا أزعم أنها خطهارة وزكاة بكل ما في الكلمة من معنىً إلا أنني أقول غير هيَّابٍ ولا وجلٍ – : خالما خرج من بين الدارسين في هذه المعاهد الكهفية من يصدق عليهم النص القرآني: (خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً) أي سواءٌ حملوا من الزكاة والطهارة العقدية

[1] وهذا الذي كان يشير إليه الدكتور إقبال الراحل – ذلك الشاعر الإسلامي الشرقي الشهير – ويصيح في وجوه المسلمين ، وينذرهم قائلاً ما معناه :

حـذار ، حـذارِ من نوائب الدهر
واجعل أفلاد كبدك في أحضانك وقايةً منها

والخلقية ما يجب وينبغي أم لم يحملوا، إلا أنه لا يسعنا أن ننكر أنهم يحملون خطهارةً أحسن من غالب أصحاب الطيالسة في الجامعات المفتونة الدجالية .

وإن الدارسين في معاهد العلوم الجديدة وإن كانوا أحسن وضعًا اقتصاديًا إلا أن العدد الهائل منهم قد أكّدت مواقفهم من الدين أن عدمهم خير للإسلام من وجودهم . وإن سموم الارتياب والتشكيك التي نَفَثَها هؤلاء إلى عامة المسلمين ، وما تفوهوا به من الأقوال الشنيعة ، وماقاموا به من الأعمال البشعة التي تنال من شعائر الإسلام وعقائده ، وتزدريها ، هي بدورها جعلتهم يستحقون بالحكم عليهم بأن خَلْفَ المسلمين هؤلاء كان عدمهم – دون ريبٍ – خير من تواجدهم . بل ما قاله الخضر عليه السلام خلال شرحه لدرسه العملي : (أَقْرَبُ رُحْمًا) ، وسبق أن ذكرت معناه من أن هذا الولد يكون أقرب إلى ما يتطلبه هذه العلاقة من الإحسان إلى ذوى الأرحام من الأقارب؛ والرفق بهم والحبّ لهم ، لا أنه يبتعد عنه ، إن هذا النص يذهب بي – والله أعلم – إلى أن ما يراه الدارسون في المعاهد ذوات الحياة الكهفية من أن هذه الدراسة تحرمهم ، نسبيًا – فيما يبدو – الرفاهيةَ ورغدَ العيش ، لَعلّ هذا النص يلمح إلى الاستراتيجية العملية التي تَدارَكُ هذا الحرمانَ .

التأثير العام للدراسة الحديثة

وأودّ القول : إن ما نراه من التأثير العام ، والنتيجة العادية للدراسة الحديثة أن أصحابها لا يجدون أنفسهم في غِنىً عن الأبوين إلا ويركلونهما، ويركلون جميع من يربطهم به أبواه ، ويفارقونهم

عن آخرهم ، ويستولي على عقولهم المرأة أي الزوجة في الغالب ، فيبدو أنهم قد تَخَفَّفُوْا عن عبءٍ كبير، وزال عنهم كَابُوْسهما ، إلا أن زمام النظام الاقتصادي إذا ما تولته «ليلى الراكبة رأس الرجل» ، بدلاً من «ليلى الراكبة ظهر الناقة» فتدلّ التجارب على أن كل رخاءٍ سيتحوّل ضنكاً ، وإن الحوت (Whale)[1] من الفضة الصفراء لتتحول دودةً تافهةً في البحر اللجي من الأخماع النسائية.

أليس قيمة الحلقة حول الخنصر إذا كانت تتجاوز الآلاف ، فقل لي ، ماذا عسى أن يكون غير ذلك ؟! إن الذي سلك هذه السبيل سَلَكَ سبيلاً لا تعرف بدايةً ولانهايةً ، وعلى العكس إذا ما عاش أشقاءُ أصحابُ الدخل الضئيل جنبًا إلى جنبٍ متحابين ، متكاتفين أى سنحت لهم – من حسن حظهم – فرصةُ تنسيق النظام الاقتصادي في ضوء النص القرآني : (أَقْرَبَ رُحْمًا) فإن التجربة ستُرِيْكَ : كيف يعود الدخل الضئيل عليهم – من حيث لا يحتسبون – بأفراحٍ ، ومسراتٍ لا يجلبها إلا الدّخل الهائل ؟ وكيف تأتي الحياة العائلية العامرة بالإخلاص والحب من العجائب ، والغرائب بما يحل المشكلات في أقسى المواقف وأعبس الساعات .

وبالجملة أرى – كما أسلفت – هذا النص القرآني : (أَقْرَبَ رُحْمًا) يُكنِّ في ثَنَاياه حيلة عملية خفية تستدرك الخسائر ، ولكن الرزية كل الرزية أن دارسي المعاهد الكهفية عادوا – كذلك – يفعل فيهم الأجواء المسمومة النابعة التي تهبّ من هذه الجامعات المفتونة ، وتزداد عليهم قبضةُ العلاقة الزوجية شدةً أكثر من

[1] سمكة شهيرة ، ذات جثة هائلةٍ .

العلاقات الرحمية . إذاً فهم مسؤولون عن بؤسهم ، وتدهور وضعهم الاقتصادي.

وكذلك ما قام به الخضر عليه السلام – دون أن تحدث نفسه بطلب الأجرة – من تقديم نموذج عملي يتمثل في بناء جدار القرية التي بلغت بهم أقصى الحدود مهانةً وذِلَةً ، لاتعجز أن تشاهد في هذه المدارس الكهفية – التي شهد قيامَها هذه البلاد بعد ما استولت عليها الفتنة الدجالية ، وقَهَرَتْها – هذا النموذج ، وجوانبه كلها بصورة أو أخرىٰ .

ألا يبعث على العجب أن ما خلّفه أسلاف المسلمين من تراث المعارف والعلوم في العالم ، وهدّد أبشع الأخطار هذا التراث الإسلامي حين أخذ جدار الحكم والسلطة ينقضّ في هذه البلاد ، ويتورط الأجيال اللاحقة بشكل مستمرّ في حبال الجامعات الجديدة تورخًا فاحشًا شنيعًا . وأسفر المنظر المؤلم المعبّر عنه بـ «المسلم الموءود والإسلام الكتابي» ، عن وجهٍ يهدّد بأن هذا «الإسلام الكتابي» سيواريه بطون الدود فيما إذا استمرّ هذا الإهمال ، والغفلة لأيام أخر .

إلا أن فئةً من المشايخ المتشبهين بالخضر – والمتخلقين بأخلاقه نهضوا وشمّروا ، فهم وإن لم ينجحوا في الإبقاء على المصادر التي اعتمدتها الحكومات في وضع قوانينها ، ودستورها منذ ثلاثة عشر قرنًا ، على ما كانت عليه ، إلا أنه لم يعجزوا عن وضع خططٍ تضمن الحفاظ على تراث السلف الصالح الإسلامي ، ونقلَه من جيل إلى آخر بشكلٍ مستمرٍ فيجده الأجيال المسلمة

اللاحقة أشد ما يكون غضًا طريًا كاملاً غير منقوص إذا ما سنحت لجيل منها فرصة الوقوف على قدميه ، وعاد إليه وعيه الديني ، وشعوره الإيماني ، فيستفيد من تراثه هذا كيف شاء .

ورغم أن المسلمين أنفسهم ازدروهم ، و نالوا منهم نيلاً عظيمًا وسمّوهم بـ«المطوعين أحلاس المساجد» ، و «أكلة الصدقات والأوساخ» ، «والرقاة» ، وما يشبه ذلك من صور التنابز بالألقاب التي قد لا يفوت شيء منها أولئك الذين أقدموا على ذلك .

«على الجملة عكف عباد الله الأوفياء ، وخَدَمُ رسول الله ﷺ – الصادقون المخلصون هولاء بعيدين عن لخماع الأجر والبديل – كما أشاهد – على خدمة هذا الدين لاغير ، بطلاقة وجه ، بدون أجر أو بأجر أزهد ما يكون ، في حين أعطُوْا عليها المئات والآلاف غير هذه المواضع».[1]

والحاصل أن العواقب القاسية الأليمة الشاقة التي تتصدع لها القلوب ، والتي استهدفت بها عقيدةُ ولدية المسيح – المتمثلة في الفتنة الدجالية الحاضرة ، والتي بخع لذكرها رسول هذه الأمة المرحومة نفسه – العالمَ عامةً ، والمسلمين خاصةً ، أرىٰ أن قصة موسىٰ والخضر عليه السلام تشير إلى حَلّ المشكلات والعقبات التي يشهدها عهد هذه الفتنة العابر. وإن هذه الحقيقة ستتجلى – بإذن

[1] وخذ مثلاً شيخنا العلامة أنور الشاه الكشميري الذي رأيته قد عُرِض عليه منصب رئيس قسم العلوم الإسلامية في جامعة «دَكَّا» بمقابل ألف روبية هندية ، حين كان يلقي دروس الحديث في «ديوبند» بدون مقابل منذ سنوات ، فلم يكن من الشيخ إلا أن رفض هذا العرض في صمتٍ وهدوء، ولم يبلغ ذلك أعضاء المجلس في الجامعة لمدة من الزمان .

الله تعالى – لِكل من يواصله نظره ، وتأمله فيها إلى أقصى الحدود، وسيبدو له أن هذا تأويل هذه القصة ، وليس قولَ شاعرٍ ، أو نسجًا من الخيال.[1]

تكملة القصة تاريخياً غيرُ لازمةٍ

وأرىٰ أن هذا الجانب من القصة يستدعي التفكير والنظر، وأما تكملة القصة بمصادر غير القرآن والتساؤل بمثل : من موسى هذا ؟ وما اسم الذي وصفه القرآن الكريم بوصفين من أوصافه قائلاً : (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) دون التصريح باسمه ؟ وقد يرجع ذلك إلى دراسة القصة دراسةً تاريخيةً. وأما الذي نزل القرآن لأجله فربما يجعلنا في غِنىً عن الخوض في هذه التفاصيل . وهيهات أن يُعرِض القرآن الكريم عن بيان ما نحتاج إليه إلا أن البخاري[2] روى حديثًا شهيرًا يدل على أنهم تساءلوا في عهد الصحابة والتابعين عن موسىٰ هذا ، وجاء عن ابن عباس عن أبي بن كعب أنه موسى بني إسرائيل.[3]

وعلى الجملة إذا كان النص القرآني يستدعي التأمل والتفكير

[1] وفي الأيام الأخيرة عرض عليّ البعض كتاب التفسير الذي عمله الخليفة بشير محمود بن مرزا غلام أحمد القادياني ، وسماه «التفسير الكبير» ليلبس على الناس الحق بالباطل . ويؤسفني تجرأه على تحريف كتاب الله تعالى إن كان يرجو أنه مسؤول أمام ربه عن ذلك . فقد عَدَّ هذه القصة عن آخرها نسجًا من الخيال زعمًا منه أن الذي صحبه موسى عليه السلام إنما كان رسول الله ﷺ ، وهكذا قال ما شاء له الهوى .

[2] راجع : صحيح البخاري كتاب تفسير سورة الكهف باب إذ قال موسى لفتاه ... [٤٧٢٥] ٤٠٩/٨.

[3] رواه مسلم في التوبة باب في سعة رحمة الله [٢٠] ٢١٠٨/٤.

فإنما يستدعي فيه الفقرتان الدالّتان على أن الذي لَقِيَه موسى بعد بحثٍ وتعبٍ ، إنما كان يجمع بين كمالات ذاتية ، ومناقب جَمةٍ ، لاشيئًا واحدًا منها.

وأما الأمر الآخر وهو قوله : (عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) فلا يخفى أن معناه أن الله تعالى جَعَل قلبه يضيئ بضياء من العلم والمعرفة مباشرةً ، دون اللجوء إلى الوسائط العقلية والحسية مما كان يهديه إلى بعض الحقائق الخفية التي لاتُدرك بمجرد العقل والحس . وإن النماذج العملية لدرسه العلمي تشهد بهذا العلم «اللّدني» الذي كان يتمتع به ؛ ولكن المطلوب دراسته هو الفقرة الأولى: (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) أى رزقناه رحمةً من عندنا . هذا معناه ولكن ماذا توحي إليه هذه الفقرة .؟

وروى الكتب الصحاح الحديثَ الشهير الذي يقول فيه رسول الله ﷺ : «إن لله مائة رحمةٍ ، فمنها رحمةٌ يتراحم بها الخلق بينهم».[1]

هذا ، وما روى قريبًا منه مما يشير إليه القصة، لو أخذنا منه أنه كان يرتبط بالخالق تعالى بالعلم «اللدني»، كذلك كان يعمر قلبَه عولخفُ الرحمة بالخلق . والمؤاساة والنصح له ، والعطف عليه. فأرى أن ما تشير إليه هذه القصة من الحياة الكهفية. والحلول لما يعتريها من مشكلات وعقبات، إنما يُقدم على اتباع هذه الإشارات ، والخوض في هذا العمل الذي يختبر همة المرء ، ويعجم

[1] وبهذه المناسبة تساءل الرازي أن بعث الحوت بعد ما جفّ وملح ، أمر يبدو نسيانه مثارةً للعجب ، ثم ردّ عليه بأن فتى موسى قد تعوّد مشاهدة المعجزات عشيةً وضحاها ، فلم يحسب له كبير حساب .

عودَه ، أولئك الذين يجمعون بين هذين النوعين من الخصائص والمناقب . وأما الذي يحمل عولخف المؤاساة للخلق والنصح له فحسب ، وقد حُرِمَ نعيم العلم «اللدني» فربما يصلح لأن يكون زعيمًا ، وقياديًا مخلصًا لأمة من الأمم ، وأما الذي يتطلبه العهد العابر للفتنة الدجالية من الإجراءات التي تستنفد الصبر، فربما لامساس له بها ، وقد يقوم بالطعن فيما يقوم به هولاء الفحول والعباقرة وهكذا نراه .

وكذلك الذين تفانوا في لذات الكشف والإلهام ، ربما يكونون صفوة المتصوفين ، ودراوشة متفائلين ، وأما أن يقوموا بهذه النشلخات في الحياة الكهفية فربما لاخاقة لهم به . وعليه فلا تعجب لو أخذنا منه أن الذين قاموا بذلك كان لهم من المناقب الخضرية ، وأصدقك أنهم كانوا هُداةَ صدقٍ في أيام الفتنة ، ولن ينجو منها إلا من اعتصم بحبالهم ، وتشبث بذيولهم .

ودَعني أعود إلى ما كنت فيه من أن الخوض في توفير المعلومات ، والبحث عنها في بطون المصادر غير القرآنية فيما يخصّ هذا النوع من قصص القرآن مما يكملها ، ويملأ فراغها أمر لا يحوجنا إليه تفهّمُ القرآن الكريم . أرأيت كيف نعرّفك بمجمع البحرين في حين يتعدد مجامع البحار وملتقياتها ؟ أو ما عسى أن يكون اسم الفتى الذي استصحبه موسى منذ بدأ رحلته ؟ وما علامة السمكة التي اضطرت موسى إلى أن يتكبّد مشقات السفر، ومتاعبه أكثر من اللازم إذ نَسِيَها ، ولم يتذكرها الفتى إلا بعد ما شكا إليه موسى ما لَقِيَه من التعب ؟ .

ويقول في ذلك من يقول – أشياء وأشياء ، ولكن الحق يقال: إن شيئًا من عنصرها رواه البخاري في صحيحه – ذلك الكتاب الحديثي الذي يوثق به ويعتمد – وليس ذلك مما لايستسيغه العقل نظرًا إلى قدرة الله تعالى الكاملة . أرأيت حياة الموتى مِمّا يتكرر ، بل نشاهده بشكلٍ عادي ، لِمَ يصاب العقلُ بالغثيان إذا كان حدث ذلك بشكلٍ أو آخر؟ ولكن إذا كان البعض أصيب عقله بالغثيان دون سببٍ فلا يسعنا أن نعتبر كافرًا بالقرآن الكريم مَن زعم أن القرآن الكريم لم يصرّح بأن السمك كان جافًّا ومملوحًا ، وأن النصّ القرآني لايستوجب تواجد السمك في زنبيل موسى ، وغايةُ ما فيه قوله: (فَنَسِيَا حُوتَهُمَا) . غير أن القرآن الكريم بدوره يذكر الحيتان ، وينسبها إلى أهل ساحل البحر فقال: (إِذْ تَأْتِيْهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ) [سورة الأعراف/ ١٦٣] ، ولم تكن حيتان أهل الساحل هذه في زنابيلهم ، وإنما كانت في البحر ، ثم نسبها القرآن الكريم إليهم بمجرد أنهم أرادوا صيدها .

وحينئذ لوقال قائل : إن المكان الذي كان ينشده موسى قد عُرِّف عليه ذلك المكان المعين بتواجد نوع معين من الأسماك في تلك البقاع ، وقيل له : إذا لاَحَ هذا النوع من الحيتان بساحل البحر فاعلم أنه ذلك المكان المنشود .

ولما بلغاه رأى الفتى ذلك النوع من الحيتان الذي اتّخذ سبيله في البحر سربًا ، ولم يذكره لموسى، ولم يتذكره إلا حين شكا إليه موسى النصَب الذي لقِيَه(١)، فقال له : إني قد رأيت الحوت قد

(١) فئة من الناس لا تخضع لدستور أو قانون أو نظام .

قفز إلى البحر قفزةً في حين تجاوز موسى ذلك المكان ، فعَادَ على أدراجه .

فلو زعم زاعمٌ – اكتفاءً بما في القرآن – أن هذا ما حَدَثَ وَوَقَعَ ، لاغيرُ ، فإنهم – كما أسلفت – يُتّهمون بمعارضة الحديث الصحيح ، ولكن لايصح القول بأن عقولهم قد أبَتْ النص القرآني.

تحذير

وأما فئة المتصوفة التي تعدّت حدود الشرع إلى الإباحية(٤) وحاولت استغلال قصة موسى والخضر عليه السلام فأرى أن هذه النتيجة لا أساس لها من الصحة ، ولا تمت إلى سياق القرآن الكريم وفحواه بصلةٍ . وغاية ما تفيده هذه القصة أن الخضر عليه السلام كان يُكْشَفُ له بعض الأحداث والوقائع ، أي يُطْلَع عليها. وأما الاستدلال منه على أنه قد يُمَكَّن من لم يُوْحَ إليه شيءٌ من النسخ والتبديل في الشرع الذي أوحاه الله تعالى إلى الرسول فما أشد جرأةً وأشنَعَها وأقبَحَها ؟!

* * *

٢ – قصة ذي القرنين

وأعود إلى السياق القرآني من جديد ، وأودّ القول بأنه كما نجد أو يمكن أن نجد في قصة موسى والخضر حلولاً للمشكلات التي تتعرض لها الحياة الكهفية في عهد الفتنة العابر ، كذلك يبرز في أعقابه سؤال طبيعي يقول : إن هذه الفتنة مهما امتدت ، وطال عمرها إلا أن عاقبتها الأليمة ، وموعد الأخذة الإلهية لابد وأن يأتي، وحينئذ بِمَ يُنْصَحُ الذين يتولون زمام العالم بعد ما تخمد هذه الفتنة العمياء أن يفعلوه ؟

ضَعْ هذا التساؤل أمام عينيك ، واقرأ قصة ذي القرنين ، وتأمل فيما تحويه .

ولا يخفى ما قيل بأن ذا القرنين أعطاه الله تعالى كل نوعٍ من الأسباب التي تضمن له تحقيق الأهداف ، وهذا ما يفيده قوله : (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ثم أخبر بأن ذا القرنين استخدم هذه القوى والأسباب التي أُعطِيَها من الله تعالى ، فَذَرَعَ الأرض أكنافها وأطرافها ، وتقسمت رحلته على ثلاث جهات . فالرحلتان الأولى منهما غرّب فيها حتى إذا بلغ أقصاه رأي الشمس تغرب في عين حمئةٍ. وهذا منظرٌ عادي يبدو للناظر من ساحل البحر ؛ فإن الشمس لاتغرب أصلاً إلا أنها تبدو تغرب فيقول الناظر إليها : إنها غَرَبتْ . والرحلة الثانية اتَّجَه فيها إلى

الشرق والثالثة إلى بين السدَّيْن.

ولا يخفى أن الكرة الأرضية تحوي عشرات من مثل هذه الأماكن والمواضع ، وبما أن القرآن الكريم لم يصرح ببلد أو مكانٍ معينٍ فنحن – كما أسلفت – في غِنىً عن هذه التصريحات والإفادات . وأما ما قام به ذوالقرنين في هذه الرحلات فقد تعرض له القرآن الكريم ، وأرى أنه أجدر بالتوجيه الحق .

ما قام به ذو القرنين من خدماتٍ وطنيةٍ

وفي الواقع أن الحكومات – كجارى العادة – استوجبت على نفسها أن تستوفي الضرائب ، والمكوس بأسماء مختلفة من رعاياها، فيبذّر منها أصحاب السلطات في ترفيههم ولهوهم ، فإن أرادوا إخلاصًا ووفاءً ، استوجبوا على أنفسهم استتبابَ الأمن ، والحدّ من أن تنال يد الظلم والعدوان أهلَ البلاد ، وشملت قائمة واجبات الحكومات في الأيام الأخيرة واجباتٍ أخرى تتلخّص في مساهمة الحكومات في تربية الرعية تربيةً جسديةً وعقليةً ، إضافةً إلى استتباب الأمن ، وفصل مَا شَجَرَ بينها .. ولا يعَزبَنّ عن البال أن هذه الفكرة الأرقى فيما يخصّ واجباتِ الحكومة انضمت إليها في العهد الجديد .

وغير خافٍ أن المرء يحمل القلب بجانب العقل، والروحَ بجانب الجسد ، وأن على الحكومة أن تهتمّ بصحة هذه العناصر الإنسانية وزينتها ، ولكن فيما أعلم لم يتِمَّ إثارة هذا التساؤل حتى في الحكومات الأرقى ، وإنما أشاروا إشاراتٍ مبهمةً إلى شيء منها باسم الدين وغيره ، وأشاعوا أن هذه الأمور وأمثالها تخصّ حياة

الإنسان الشخصية مما لايسعَ الحكومات أن تتدخّل فيه .

ولكن إذا ما صحّ أن القلب أو الفؤاد يشكّل – بجانب العقل – جوهرًا ثمينًا من الكيان الإنساني ، يصدر منه الخلق ، والسلوك الإنساني – ومالم تشعر القلوب ببَرد اليقين والإذعان ، والاستقامة ضد الأوبئة العامة أمثال الريب والشك والوسوسة ، لم يستقرّ النظام الخلقي ، ولم يُرْجَ أن يدخل الإحكام في السلوك .

وعلى الجملة نرى الذين بلغهم ذوالقرنين في المرحلة الأولى من رحلته أول ما جذب انتباهه في شأنهم إلى الواجب الذي حُرِمَه حتى الحكومات الراقية العالمية الحالية إذ قيل له : (قُلْنَا : يـا ذَا القَرْنَيْنِ ! إمَّا أَنْ تُعَذِّبَ، وَإِمَّا أنْ تَتَّخِذَ فِيْهِمْ حُسْنًا).

ثم لقِّن الردّ عليه بقوله : (قَالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُه ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّه فَيُعَذِّبُه عَذَابًا نُكْرًا ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ، وَعَمِلَ صالحًا فَلَه جَزَاءَ الحُسْنَى ، وَسَنَقُوْلُ لَه مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

كما أخبر عن المرحلة الثالثة من رحلته هذه بأن الذين كانوا بين السدَّين قد بلغوا مِنَ التخلف العقلي مبلغًا جعلهم يُشْبِهُوْنَ البهائم التي نراها تبصر وتسمع وتمشي ، ويعوزها القدرة على الإفهام والتفهيم وقبول الحق ، وأنها لا تفقه ما يقال لها . فيبدو أن هؤلاء الذين كانوا بين السدّين، كانوا في الوضع العقلي نفسه . وَعبّر القرآن الكريم عن هذه الميزة التي امتازت بها هذه الأمة بقوله: (لاَيَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ قَوْلاً).

وهذه الميزة لاتبقى ميزةً إلا إذا حملنا هذا النص على الذي يراه هذا العبد الفقير ، وإلا فلو جعلناه ناشئًا عن مجرد الجهل باللغة

فلا يخفى أنها لاتخصّ هذه الأمة ؛ فالذي يجهل لغة المتكلم لايفقه ما يقول بالغًا ما بلغ من الحضارة والمدنية .

وفي الجملة ماذكره القرآن الكريم من التخلف العقلي الذي أصاب هذه الأمة ، ثم قال فيها ما قال، أستوحي منه – والله أعلم – أن حكومة ذي القرنين ركّزت على تنشئتهم نشأةً عقليةً ، وبالتالي تولّد فيهم الشعور بالاضطهاد والظلم ، ورغبوا في التخلص منه ، فاستنصروا حكومة ذي القرنين ، ومما يبعث على العجب أن الأمة التي لا تكاد تمتاز عن البهائم في التخلف العقلي يطلب منها ذوالقرنين ما لايمكن تحقيقه إلا بالكفاءة العلمية والعملية في العلم والحكمة .

ألا ترى أن استخراج المعادن أمثال النحاس من بطون الجبال وتخليصها ، وتنقيتها من الشوائب ، وصهرا الحديد في القوالب ، هل يستطيعه أحد دون أن يتلقى تربيةً عقليةً خارقةً ، ودون أن يحمل كفاءةً ودربةً ومرانةً ؟!

تأمل في قصة ذي القرنين أن القرآن الكريم بدوره يخبر بأن هذه الأمة بين السدين حين شَكتْ إلى ذي القرنين إفساد يأجوج ومأجوج ، ورَجَتْ من حكومته أن تأخذ بيدها ، وتُعينها على النوائب، طلب منهم ذوالقرنين : (آتُوْنِي زُبُرَ الحَدِيْدِ) وأمرها بـ (آتُوْنِي أفْرِغْ قِطْرًا) . وكل ذلك قدمّته تلك الأمة إلى ذي القرنين كما طلبه .

وأضف إلى ذلك أن ذا القرنين قرّر بناء جداره التاريخي الشهير بين الجبلين وهو السدّ ، فاستثمر – فيما استثمر – خدمات

هذه الأمة ، وقوتها في هذا البناء العلمي الغريب ، وخاصةً حين طلب منهم زبر الحديد الحميم لينفخ فيها ، ويجعلها نارًا . فهذا الجدار الأخول الذي رُصّ فيه زبر الحديد بعضها فوق بعض ترصيص الأخواب قام بالنفع فيها ، وإحمائها وجعلها نارًا – كما يدل عليه القرآن الكريم – أكفاء هذه الأمة الذين كانوا يتقنون هذا العمل إتقانًا خارقًا . عليه يدل قوله تعالى : (قَالَ : انْفُخُوْا حَتّى إذَا جَعَلَه نَارًا)

ويتبع هذه الإجراءات الرغبةُ في شدّ هذه الأخواب الحديدية المرصوصة بعضها فوق بعض – لا بخلطة من الطين والجصّ وغيرهما – ولكن بخلطة من القطر . إن إيصال القطر إلى ثنايا كل خوب من لخواب جدار أسفله و أعلاه نارٌ يبدو – فيما أرى – أمر يفوق التصور ليومنا هذا . ولكن هذا الذي نستعظمه ، ونستكبره يَدل القرآن الكريم على أنه حقّقه ، وجسَّده بحيله الحكيمة ، وخططه العلمية. وأودّ القول بأن النص القرآني : (آتُوْنِيْ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) يقتفي ظاهره أن ذا القرنين استثمر مهارتهم وخفة يدهم في هذا العمل العملاق المثير للعجب والحيرة .

نتائج القصة أي واجبات الحكومة

وعلى كل فإنما توصلت من خلال هذه القصة. بناءً على الوحدة السالفة – إلى أن ذا القرنين كما استوجب في المرحلة الأولى من سفره على حكومته تصفية قلوب وأرواح الذين وَلاّهُ الله أمرهم ، كذلك نجده في المرحلة الثالثة من رحلته استوجب على حكومته انتشال رعيته من التخلف العقلي ، وخَلَق فيهم

قدراتٍ علميةً وعمليةً خارقةً تبعثنا على العجب حين نتذكرها ليومنا هذا .

غير أن ذا القرنين حين بلغ في المرحلة الوسطى من سفره حيث رأى الشمس : (تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُوْنِها سِتْرًا) أنهى القرآن الكريم ذكر هذه المرحلة بما قال في عقبه : (كَذَلِكَ وَقَدْ أحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا).

وقد يرجع ذلك إلى أن الذين التقىٰ بهم ذوالقرنين في المرحلتين ، الأولى والثالثة كانوا في حاجة إلى أن يمدّ إليهم ذوالقرنين يد العون ، فقضى حاجة من احتاج منهم إلى تهذيب العقل والروح ، وإصلاحهما ، وتَمّ انتشال من وقع في التخلف العقلي منه ، وأما الذين لقيهم في المرحلة الوسطى من سفره فربما لم يكن أصابهم هذه النقائص والمعايب ، فلم يتعرض القرآن الكريم لما قام به فيهم ذوالقرنين .

والنص الذي يبين ميزتهم بأن الشمس كانت (تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِنْ دُوْنِهَا سِتْرًا) يدلّني على أن هذا الوضع يخصّ وقت خلوع الشمس ، وإلاّ فاحتمال أنهم لم يكونوْا يعيشون في البيوت ، ولا كانوا يلبسون لباسًا ، وإنما يقضون حياتهم عراةً في العراء فلم يكن بينهم وبين الشمس ستر ، يبدو أمرًا غريبًا نوعًا مَّا، فإن الأمم الأشد وحشية ، وإن لم تتخذ بيوتًا يسترها فلا أقل من أنها تلوذ بالكهوف ، والحضر الطبيعية التي تقيها الشمسَ والمطر والحر و البرد وغيرها ، وكذلك تستر جسدها بالجلود والأوراق ، وإن لم تتخذ ثيابًا من القطن والصوف .

وعلى الجملة أودُّ القول بأن هذا الوضع إذا خَصَّصْنَاه بوقت خلوع الشمس ، وقلنا : إن بيوتهم بُنِيَتْ بناءً يوفّر لهم ، ولأهلهم إمكانية الانتفاع من أشعة الشمس كل يوم ، فبغضّ النظر عن أن هذا النوع من الخطة البنائية ما لا يستحيله العقل ، نتوصل منه إلى أنه قد تولد فيهم شعور أنبل، وأكبر بالاستفادة من السنن الطبيعية، وقد وقفوا على ما يزيدهم صحةً ونشلخاً . وقد جرّبوا فعلاً مدى تأثير الصحة الجسدية في الصحة العقلية والقلبية ، وإلى الحدّ الذي تُؤثّر ، ولعلّ ذلك أغْنىٰ ذا القرنين عن القيام بشيء يعود عليهم ، وينفعهم. فالنص القرآني يحمل دون شكٍ – فيما أرىٰ – إمكانية هذا الانتقال الذهني بالغًا ما بلغت هذه الإمكانية . ولعل قوله تعالى : (وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) يشير إلى ما فوجئ به ذوالقرنين من نماذج الصحة الجسدية والعقلية والقلبية حين لَقِيَهُمْ.

فهذا الذي قدمناه مجرّد انتقال ذهني،[1] ولا ندعي –

[1] والانتقال الذهني يعني ما يدل على مشروعيته الأحاديث التي تصرّح بنهي رسول الله ﷺ عن التطير ، دون الفأل . فكان يسمي له البعض نفسه في بعض مغازيه : سهيلاً ، فيقول : «قد سهل لكم من أمركم»

وما أكثر الأمثلة على ذلك في الأحاديث النبوية . ولا يخفى أن تسمية الرجل بـ «سهيل» لم يكن يقصد منها التسهيل في أمر يخصّ الجهاد ، وإنما انتقل إليه ذهن رسول الله ﷺ توكيداً للظَّن الحسن بالله تعالى ، وإلا فلم يقصد من سمّاه به إلا ذات من سمّاه سهيلاً .

قال المترجم : حديث النهي عن التطير دون الفأل : رواه البخاري (في الطب باب لاعدوى [٥٧٧٦] ١٠/٢٤٤) ومسلم (في السلام باب الطيرة والفأل [١١١] ٤/١٧٤٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لاعدوى ، ولاخيرة ، ويعجبني الفأل» .

وأما حديث : «قد سهل لكم من أمركم» : فرواه البخاري في الشروط باب الشروط في الجهاد [٢٧٣١ ، ٢٧٣٢] ٥/٣٣١.

وهيهات ذلك – أن النص القرآني لا يعني إلا ذلك . وغاية ما في الأمر أن نقول : إن المرحلة الوسطى من رحلة ذي القرنين لاتصرّح بخدمة أو عمل قام به .

والحاصل أن قصة ذي القرنين هذه تُرشد إلى مبادئ أساسية تخصّ الحكم و إدارة البلاد . ولِيَتَوصَّل من أراد من خلال هذه القصة إلى شيء من واجبات الحكومة نفقِده في خير قائمة من قائمات تخصّ واجبات الحكومات البالغة من الرقي ، والتطور كل مبلغ .

وحين تمّ بناء جدار ذي القرنين العلمي التاريخي هذا أشارَ إليه – كما ينصّ عليه النص القرآني – قائلاً : (هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّيْ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّيْ جَعَلَه دَكَّاءَ).

إن هذا النص يحمل في خياته للذين ولاّهم الله تعالى أمور الناس عبرةً تذكرهم تذكيرًا – بأن يُحْيُوْا في أنفسهم الشعور بهذه القصة، وألاّ يعزبَنَّ عن بالهم أن هذه السلطة أعطاها إياهم غيرُهم، وأن من رحمة المعطِي وكرمه أن مَنَحَهُم ، وَجادَ عليهم بهذا السلطان . هذه هي الحقيقة وهذا هو الواقع . وكل ما يظنّه أو عسى أن يظنّه الظانّ سواه لايعدو افتراءً محضًا ، وخيالاً لايمتّ إلى الواقع بصلةٍ .

وأعلم – علم اليقين – أن الولاة ماداموا يشعرون ، ومدىٰ ما يشعرون بهذا الضغط والتأثير ، يدركون أن السلطة ليست عبارة عن الحكام والولاة . وإنما هي عبارة عن المصالح والدوائر التي تتجمع خاقاتها الفردية لتكوّن سلطةً وقوةً . وما تفرضه الرعية على الولاة من واجبات وحقوق لن يقوم بها

حق القيام إلا من لا يَدَعُ هذا الأساس الجوهري من حقوقه وواجباته يغيب عن باله . اقرأ في هذه القصة ما شكاه أهل السدين إلى ذي القرنين من اعتداءات يأجوج ومأجوج ، وقرَنوا به عَرْضَهم المعبّر عنه بقولهم : (هَلْ نَجْعَلُ لَك خَرْجًا عَلَى أنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًا) .

ولعلهم رغبوا أن يفرض ذوالقرنين – بمقابل ذلك – ضريبةً مدى الحياة تؤخذ منه وهم بها راضونَ . فهذا الخراج أو الخَرْج والضريبة التي يستوفيها الحكومات – عادةً – بأسماء مختلفة ، وبأنواع من الحيل من رعيتها، وتعتبرها حقًا لها جائزًا مبرَّرًا . يتقدم بها مُوْفد الرعية إلى حاكمها وراعيها بكل خواعية ورضًى . إلا أن الوالي يرُدّ عليهم قائلاً : (ما مَكَّنِّي فِيْه رَبّيْ خَيْر) .

أي أن ذا القرنين أبىٰ أن يفرض عليهم ضريبةً وخرجًا ، وقدّم لهم كل ما تستطيع حكومته فِعله من المساعدات ، ولم يطالبهم إلا بما لم يكن يملكه أو كان يملكه إلا أنه لم يكن يُغنيه عنهم فيما هو بصدده .

وعدا هذه النتائج كلّ ما كُلّف به هؤلاء القوم من زبر الحديد والقطر، وغيرها من الخدمات وبالطريقة التي اتَّبعَها فيهم ، إذا نظرنا إليه نَجِدْ أن ما بدأ به القصة من قوله : (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) يوحي إلى أن كل ما تحتاج إليه الحكومة في نشأتها وبقائها ، ورقيّها قد حِيْزَ لذي القرنين . وقال بعض المفسرين في ضوء هذا النص القرآني : كل ما يتوصل به إلى المقصود من علم وقدرة، وآلة وانتهى في ذلك إلى القول بأنه قد سُخِّر له

السحاب.[1] والله أعلم بالصواب .

وأودّ القول بأن الأجهزة والآلات التي ستمدّ في إعدادها من الاختراعات والنظريات العلمية ، تشجع الإشارات التي تحويها قصة ذي القرنين على أن الاستفادة منها في تعزيز الحكومة ودعمها لا أنه لا بأس به أصلاً ، وإنما يسعنا القول إنه سيعكس نوعًا من تحقيق رغبة القرآن الكريم . ومن ذا الذي يستطيع القول بأن الحكومة الإيمانية التي سيشهدها عهد المهدي المباركُ السعيد في المستقبل ، والتي يكاد يصل البشارة بها إلى حد التواتر ، لا يراعىٰ في تأسيسها نموذج الحكومة المثالية السالفة التي أنشأها وال مسلم في العهد القديم ، وخاصةً بعد ما خَلّد صفحات القرآن الكريم المقدسة أسس هذه الحكومة .

وما أسلفت من التساؤل في أعقاب الفتنة الدجالية أنه إذا ما اُرِيد القيام بهذا النظام الصالح فإن المتأمل فيها يسير عليه إذا شاء – استنتاج الأسس الجوهرية – التي يقوم عليها هذا النظام الصالح – من قصة ذي القرنين هذه . وهذه الأسس ولو كانت أقل عددًا فيما يبدو ، إلا أنه يُهْوَن – كما ترىٰ – اقتباس مبادئ السعادة القلبية، والروحية والجسدية والمادية . وهذه النتائج – في رأيي القاصر – يعكس حق قدر هذه القصة وقيمتها.

وأما التساؤل بمثل: «ذوالقرنين» علمٌ على الوالي أم لقب له؟ فإن كان لقبًا فمن هو هذا الوالي المسلم ؟ والملوك الأقدمون الذين خلّدهم التأريخ من ذا الذي نعدّه منهم ذا القرنين ؟ أو أنه – كما

[1] تفسير أبي سعود سورة الكهف ٢٣٩/٥ ط دار إحياء التراث العربي .

يقول أبو الريحان البيروني[1] – ملك اليمن الذي يسمّى بـ «الشمس بن عبير» ، ويُكْنى بـ «أبي كرب».[2] أو أنه الملك الشهير الذي رآه «دانيال» في رؤياه في صورة كبش . له قرنان».

وقيل – وعليه تدلّ صحيفة دانيال – : إن الكبش ذا القرنين هذا ملكُ فارس الذي سماه التوراة «خورس»، ويُطْلَقُ عليه في الإنجليزية : (Syrus) ، ولعل «خسرو» و «كَي خسرو» كل ذلك شيء واحد.

ذوالقرنين غير الإسكندر الرومي

ولاشك أن ما اشتهر على ألسنة المسلمين خطأً من سوء حظهم . من أن ذا القرنين الذي ذكره القرآن الكريم هو الإسكندر الرومي المقدوني ، إن هذه الخرافة ربما تجعل الاحتمالين السالفين الذكر يستحقان نوعًا من العناية ، أما أنا فأرىٰ أن تعيين واحد من هذه الاحتمالات أو إثارة احتمالٍ جديدٍ قد يكون من قضايا التاريخ ، وهوايةً من هوايات الأخباريّ ، وأما تفهّم أهداف القرآن الكريم وأغراضه ، والاستفادة منها فليس من شأنه أن

[1] أبو الريحان البيروني (٣٦٢ – ٤٤٠هـ = ٩٧٣–١٠٤٨م): محمد بن أحمد البيروني: فيلسوف ، رياضي ، مؤرخ ، أقام في الهند بضع سنين ، ومات في بلده . لخلع على فلسفة اليونان والهنود ، وعلت شهرته . صنّف كتبًا كثيرةً جدًا منها : «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولةً ، وتُرِجم غير واحد من كتبه إلى الإنجليزية . راجع : الأعلام للزركلي ٣١٤/٥.

[2] وقد أخذ البيروني في كتابه الشهير : الأثار الباقية عن كلام بعض الشعراء ما يشهد لهذا الرأي ، إذ وصفه الشاعر قائلاً : «بلغ المشارق والمغارب يتبغي» .

وأكبر قرينة استدل منها على ذلك : أن سابقة «ذو» إنما تأتي في أسماء ، وألقاب ملوك اليمن مثل : ذي نواس ، وذي الكلاع .

يُحوجَنَا إلى النظر في حكم التاريخ فيها ، ولا أنه يجدر بشأن القرآن الكريم أن يجعلنا ناظرين إلى حكم المؤرخين حتى نتفهّم نصوصه .

وعلى كلٍ إذا كان تفهم القرآن الكريم لايستوجب تحديد شخصية ذي القرنين نفسه فالتساؤلات الجانبية عنه بمثل : ما المنلخق التي رحل إليها ذوالقرنين حين شرّق أو غرّب ؟ والبقعة التي سكنها القوم الذين بين السدين ؟ وأين يقع أو يمكن أن يقع هذا السد أو الجدار الذي أقامه ذوالقرنين بين السدين ؟ وإذا كان كذلك فَلأن لانحتاج – ولسنا في حاجة أصلاً – إلى دراسة هذه الأمور فيما يخصّ ما يهدف إليه القرآن الكريم من تعليمنا ، وتزويدنا به أولى ، اللهم إلا أمر يأجوج ومأجوج فإنه يختلف عما سلف مما سنتنا وله فيما يلي ، وبه تنتهي سورة الكهف .

* * *

٣ – يأجوج ، ومأجوج

إن لفظة «يأجوج ومأجوج» ليست من الألفاظ والإشارات القرآنية المجملة التي لايستوجب التوصل والإيصال إلى فهم الأهداف والأغراض القرآنية منها ، شرحَها ، وبسطَها ومما يبين هذه الألفاظ وقيمتها أننا نجدها – بالإضافة إلى ما في قصة ذي القرنين في سورة الكهف – في الآية الشهيرة من سورة آخرىٰ من القرآن الكريم . وهي سورة الأنبياء والآية هي : (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأجُوْجُ وَمأجُوْجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوْنَ)[١]

استدراك

ونظرًا إلى ورود لفظة يأجوج ومأجوج في آيتين مختلفتين من سورتين مختلفتين تبادرت الأوهام – كما يقول شيخنا العلامة أنور الشاه الكشميري – إلى أن «يأجوج ومأجوج ينشق» عنهم الجدار الذي شيّدتها حكومة ذي القرنين بين السدّين . ويقول الشاه : «وليس في القرآن أن هذا الخروج يكون عقيب الاندكاك مباشرةً ، بل فيه وعد باندكاكه فقط . فقد اندكّ كما وعد . وأما أن خروجهم موعود بعد اندكاكه بدون فصل فلا حرف فيه.[٢]

---

[١] الجدب – وسيأتي بيانه – لغةً : نتوء في الظهر ، وما ارتفع وغلُظ من الأرض داخل الماء ، يُشبه النتوء في الظهر ، فسمي به . وسيأتي بيان «ينسلون» كذلك .

[٢] راجع، فيض الباري شرح صحيح البخاري ٢٣/٤ ط: مكتبة رباني، دلهي، الهند.

وخلاصة القول أن آية سورة الكهف التي تحكي عن ذي القرنين قوله : (هَـٰذَا رَحْمَـةٌ مِـنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَه دَكَّاءَ) أي أن تشييد هذا الجدار ، والنجاح فيه رحمة من ربيّ فإذا جاء وعده «دَكّه دكاً دكاً» تأمل في معنى هذه الآية وخلاصتها ، وانظر هل فيه حرف يمكن أن تستدل منه على أنه لايتم اندكاك الجدار أو دَكُّه أو تحطيمُه إلاّ ويبرز منه يأجوج ومأجوج؟

وليت شعري كيف شاع في الناس أن يأجوج ومأجوج يحاولون فتق هذا الجدار منذ تمّ رتقه وسينجحون في فتقه وكسره في نهاية المطاف رغم أنه سبق هذه الآيةَ في القرآن نفسه : (فَمَا استَطَاعُوْا أَنْ يَظْهَرُوْه ، وَمَا اسْتَطَاعُوْا لَه نَقْبًا) أي لا يقدرون على أن يتسلقوا هذا الجدار ولا أن ينقّبوه .

وهل نعدّ التأكيد على أن يأجوج ومأجوج سيجعلون – أو قد جعلوا فعلاً – هذا الجدار دكاءَ رغم تصريح القرآن الكريم بشكل لا لبس فيه بأن هذا الجدار هيهات أن ينقّبوه ، هل نعدّ ذلك إلا غفلةً عما ذكره القرآن الكريم ، وصرّح به أيّما تصريح ، بل لزمَ من يقول : إن يأجوج ومأجوج يجعلونه دكاء ، لا أن الله تعالى يجعله كذلك – لزمَه أن يتغاضىٰ عما أخبر به القرآن الكريم من أنه تعالى : (جَعَلَه دَكَّاءَ)

وصحيح أن الروايات التفسيرية قد تسرّب إليها شيء مما يشدّ أزر هذه الشائعة ولعلها نشأت عن روايات كتب التفسير هذه إلا أن الشيخ أنور الشاه الكشميري – ذلك العلامة النقاد – يقول في حديثه عن هذه القضيّة : إنا لم نجد في القرآن ، ولا في حديث

صحيح أن السدّ مانعٌ عن خروجهم .[١]

وهذا يبلور وضع هذه الروايات . وأشار الشاه في ذلك إلى ماوراه الترمذي[٢] عن النبي ﷺ أنه قال في السدّ : «يحضرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غدًا . فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغ مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غدًا إن شاء الله واستثنىٰ ، قال : فيرجعون فيجدونه كهيئة حين تركوه ، فيخرقونه فيخرجون على الناس».[٣]

إلا أن أكبر النقّاد ، وأشهرهم للروايات التفسيرية – وهو ابن كثير – له نظر أي نظر في إسناد هذه الرواية كما جزم الكشميري بدوره بأنه موقوف على كعب الأحبار[٤] ذلك العالم اليهودي الذي أسلم بعدُ – ومستقىً من الروايات الإسرائيلية.[٥]

---

[١] نفس المصدر ٢٤/٤ .

[٢] الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ = ٨٢٤-٨٩٢م) : محمد بن عيسى بن سورة ، أبو عيسى : من أئمة علماء الحديث و حفاظه ، تتلمذ للبخاري ، وشاركه في بعض شيوخه، كان يُضْرَبُ به المثل في الحفظ ، عمي في آخر عمره . له : «الجامع الكبير» و «الشمائل النبوية» ، و«العلل» ، و«التاريخ» (راجع الأعلام للزركلي ٣٢٢/٦) .

[٣] رواه الترمذي في تفسير القرآن [٣١٥٣] ٢٩٣/٥ .

[٤] كعب الأحبار (٠٠٠-٣٢هـ = ٠٠٠-٦٥٢م) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق : تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود ، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة . وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة . سكن حمص وبهامات عن مئة وأربع سنين. (راجع : الأعلام للزركلي ٢٢٨/٥)

[٥] ابن كثير(٧٠١-٧٧٤ = ١٣٠٢-١٣٧٣م): إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين : حافظ ، مؤرخ ، فقيه ، مفسر ، رحل في خلب العلم كثيرًا ،

والنص القرآني – كما تراه – لم يَدَع مجالاً لتصويب هذه الروايات وتصحيحها . ويدلّ القرآن الكريم على أنهم لايستطيعون نقب هذا الجدار . فالتأكيد على أن «يأجوج ومأجوج» لم ينجحوا في نقب هذا الجدار فحسب ، وإنما جعلوه دَكّاء ، هل هذا شيء يُعْقَلُ ؟![١]

وبالجملة أن انهيار الجدار على الأجل الذي حدّده الله تعالى له ، أمر مفرد بذاته مما أخبر عنه القرآن الكريم في سورة الكهف ، وأما فتح يأجوج ومأجوج أو خروجهم مما وصفه سورة الأنبياء فأمر آخر مفرد بذاته كذلك . ومن هنا ورد ذكر هذين الأمرين في سورتين مختلفتين .

وأودّ – بعد إزالة هذا اللبس – أن أرتّب لك – ترتيبًا خاصًا –

تناقل الناس تصانيفه في حياته. من كتبه : «البداية والنهاية» ، و«تفسير القرآن الكريم»، و«جامع المسانيد». راجع الأعلام للزركلي ٣٢٠/١ .

[١] وتفصيل ذلك في فيض الباري شرح صحيح البخاري ٢٤/٤ .

ونصّ ما قاله الكشميري: «ويحكم وجداني أنه ليس بمرفوع، بل من كعب نفسه».

وأما أنا فأرىٰ أن جلّ ما شاع في المسلمين من قصة يأجوج و مأجوج إنما تمّ استقاؤه من كتب اليهود ، وقد تعوّد الناس قديمًا في التعبير عن المكاشكات اللجوءَ إلى الاستعارات والكنايات .

وغير بعيد أن نقول : إن لَحْسَهم الجدار بألسنتهم استعير لبيان ما كان يعمل عليه يأجوج و مأجوج من تأليف كلمتهم على الخروج خوال النهار ، ويوظفون فيه قوتهم الخطابية . ثم يعودون ليلاً ، وقد عاد خلافهم على أشد ما كان .

وذلك أننا نرى – اليوم – الأوربيين يحاولون إيجاد حلول للمشكلات التي يعانون منها من خلال إلقاء الخطب والكلمات في لجان التحقيق والمجالس والهيئات .

وعلى الجملة ، فهذه الروايات اليهودية ليس القرآن مسؤولاً عنها ، ولا أنها نشأت عن الأحاديث الصحيحة التي جاءت عمّن نزل عليه القرآن الكريم .

ما يفيده سورة الكهف فيما يخصّ يأجوج ومأجوج ، وأقتبس - خلال ذلك من مصادر العلم الأخرىٰ غير القرآن الكريم .

وصحيح أن الذين يمرّون بالقرآن الكريم وآياته مرّ الكرام يشعرون بأن القرآن الكريم أعمل - فيما يبدو - الاختصار والإيجاز المفرط في ذكر يأجوج ومأجوج ، ولكن إذا تأملتَ وجدتَ أن القرآن الكريم - رغم هذا الإجمال - كأنه قسّم أحوال هؤلاء القوم على أربعة عهود (Periods):

ما يختصّ به يأجوج ومأجوج

وأوّل ما يعرفنا به القرآن الكريم فيما يخصّ أحوالهم ، هو ما يؤخذ من هذه الآية من سورة الكهف: (إنَّ يَاْجُوْجَ وَمَأجُوْجَ مُفْسِدُوْنَ فِي الأَرْضِ) . وبهذه الكلمات قدم القوم الذين كانوا بين السدّين تقريرهم عن يأجوج إلى بلاط ذي القرنين حين وصل إليهم. وكما أسلفت ليس من الهيّن اليسير التعرّف على المنطقة التي شهدت هذه القصة أو الزمن الذي شهدها . وفي أي منطقة أو زمن حدث ذلك لا يهمُّنا ، إلا أن ما يدل عليه نصّ هذا التقرير من أن أكبر ما يمتاز به هذه الأمة هو السعي في الأرض فسادًا .

وأما تفاصيل هذا الإفساد فلا يخفى أن «الإفساد» لفظة عربية تقابل «الإصلاح» . والإصلاح عبارة عن محاولة تنظيم العلاقات بين مختلف أفراد بني آدم ، والتعايش السلمي بينهم . وعلى العكس من ذلك ، كل ما يضرم شرارة الشقاق والنفاق ، والبغضاء والشحناء ، والعداوة ، مما يهزّ ثقة أهل البلد بعضهم ببعض ، فيكيد بعضهم لبعض ، ويخاف الناس على أموالهم ،

وأنفسهم وأعراضهم . فهذا الوضع يُعَبَّرُ عنه بالفساد الذي يقابل الصلاح .

فهذه خصيصة أولىٰ تميّز يأجوج ومأجوج ، وأشار إليها القرآن الكريم في العهد الأول من حياتهم القومية .

والعهد الثاني (Period) هو ما قام به ذوالقرنين من تشييد جداره الذي سدّ عليهم الطريق التي ينفذون منها إلى الأمم الأخرىٰ . ووصف القرآن الكريم وضع هذا العهد بقوله : (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَومَئِذٍ يَمُوْجُ فِيْ بَعْضٍ) .

وذلك يعني - لا محالةَ - أنهم كانوا يفسدون على الأمم الأخرىٰ في الأرض.[١] غير أنهم حين صرفهم الجدار عن غيرهم من الأمم عادوا يعايشون عيشةً وصفها القرآن الكريم بأسلوبه الخاص قائلاً : (بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوْجُ فِيْ بَعْضٍ) . فما الذي يصفه هذا الأسلوب من علاقتهم أو نوعها فيما بينهم ؟ فكأن يأجوج

[١] ويرىٰ بعض المفسرين أن الآية الأخرىٰ من آيات القرآن الكريم : (وَإِذَا تولّى سَعىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيْهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ) يؤخذ منها أن يأجوج ومأجوج دأَبُوا على إهلاك الحرث والنسل ، وكأنّ ما وُصِفَ به يأجوج ومأجوج بأنهم مفسدون في الأرض ، هو المراد به ، غير أن ذكر إهلاك الحرث والنسل يعقب ذكر جريمة الفساد في الأرض في الآية مِمّا يدل ظاهره على أن جريمة الفساد في الأرض كان لها وضع مستقل مفرد بذاته عدا جريمة إهلاك الحرث والنسل .

ويحتمل أن يكون ذلك تدمير العلاقات وتعكيرها ، وتكدير صفوة العيش الآمن العامر بهدوء الثقة المتبادلة مما يقابل إصلاح ذات بين بني آدم . وقد ذكر القرآن الكريم - في آية آخرىٰ - الذين غَلَبَهم العلوُّ والجبروتُ ، ونَسَبَ إليهم الفساد، وقال : (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِيْنَ لاَ يُرِيْدُوْنَ عُلُوًّا فِيْ الأَرْضِ وَلاَفَسَادًا) [سورة القصص/٨٣] مما يدل على أنهم يتّبعون خُطّة : «فرِّقْ تَسُدْ» إبقاءً على علوهم وكبريائهم وسلطتهم .

ومأجوج – إذ يئسوا من غيرهم – أصبحوا يتقاتلون ، ويتصارعون بينهم في سباق الحياة هذا ، وربما نجد عشرات من التعبيرات والأساليب تعبّر عن هذا المعنى في اللغة العربية.

كما أن هذه اللغة لا تُعوزها كلماتٌ تعبّر عن الحياة العامرة بالألفة والمؤانسة ، والمؤاساة والمساعدة ، غير أن القرآن الكريم تعدّىٰ هذين النوعين من التعبير والبيان إلى التعبير بـ (بعضَهم يومئذٍ يَمُوْجُ فِي بَعْضٍ) هنا مما خَلَقَ عراقيل في تحديد إحدى الحالتين بشكل واضحٍ بيِّن .

شرح كلمة «الموج»

إن كلمة «الموْج» تدل على الوضع الذي يطرأ على البحار والأنهار عند هياجها وفيضانها أي يبدو سطح البحر مضطربًا قلقًا متذمرًا ، لاهادئًا ساكنًا، وتنشأ أمواجٌ لاتُحْصَىٰ ولاتُعَدُّ ، يدفع بعضها بعضًا، فيقدّم ما تأخّر منها ودَعْنا نقل : إن هذه الأمواج يُريد أن يركب بعضها بعضًا ، كما يجوز لنا أن نقول : إن كيان بعضها يرتبط بكيان البعض الآخر ، وهكذا يساعد بعضها البعض على التقدّم ، والتقديم إلى الأمام. فكأن هذه الأمواج تتصادم ، ورغم ذلك علاقتها التموّجية يُؤمن بعضها البقاء للبعض الآخر .

وعلى الجملة – حصر معنى قوله : (بَعْضَهُمْ يَوْمَئذٍ يَمُوْجُ فِي بَعْضٍ) في أن يأجوج ومأجوج – إذ صُرِفوا عن غيرهم – لم يكن يهمُّهم إلا أن يتصارعوا فيما بينهم، أو القول – على العكس من ذلك – بأنهم كانوا يلازمون بعضهم البعض ملازمة الظل لصاحبه – لا أنهم كانوا يتصارعون بينهم – كما يرتبط أمواج البحر

بعضها ببعض ، ويقدّم بعضها البعض الآخر ، أي وإن كانوا يفسدون فسادًا على غيرهم ، ولا يُصلحون ، إلا أنهم كانوا قد تعوّدوا أن يعايشوا فيما بينهم متعلخفين، متواصلين ومتعاضدين ، فربما لا يصحّ تحديد أسلوب القرآن ، وكلماته في أحدٍ من هذين المعنيين .

وكما قلت إذا كان القرآن الكريم يقصد بيان ذلك فلا يخفى على من له إلمام باللغة العربية أنها تزخر بالأساليب التي تعبّر عن كل من هذين المعنيين ، فلما أعرض عنهما جميعًا إلى أسلوب معين بهذه المناسبة فلا يجوز لنا أن نتغاضىٰ عن حكمته . وليس من تقدير القرآن الكريم حق قدره أن نمرّ عليها مرّ الكرام ، وإن عدم العناية بها ، والمرور عليها بمجرد ذكر أحد الاحتمالين ذكرًا عابرًا لايصوّر إلا الاستهانة بنصوص القرآن الكريم . ولا يغيبنّ عن بالنا أننا نتدبّر في كلام خالق الكون ، لا كلام بشر مثلنا ، ولا ينبغي قياس الكلام الإلهي على كلام كل من هبّ ودَبّ .

فماذا تقصد هذه الكلمات إذًا ؟ ولا يخفى أن صورة وجه البحر المائج ، وما يبرز فيه من الأمواج التي تنِمّ عنها لفظةُ الموج ، هَلاّ نضع ذلك نصب أعيننا ، ونحاول التفهّم لما يؤكده لنا القرآن الكريم ؟ وإني أرىٰ – رضي به الناس أم أبوه – أنهم إذ صُرِفُوا عن غيرهم ، عادت حياتهم القومية في ذلك العهد ، حياةً مليئةً بالاضطراب والقلق ، والفتنة والهزّةِ والتشابك ، فصُرِفُوْا إلى ما يتطلب السعي الدؤوب والجهد المتواصل، والذهاب والإياب ، والتنقل من هنا وهنا عشيةً وضحاها ، وليلَ نهارَ .

فهذه صورة حياتهم العادية في الغالب ، وكانت مختلف فئات هذه الأمة تتصارع بينها ، ولكن لم يكن لفئة منها أن تعقِد عزمها على القضاء على غيرها من الفئات قضاءً نهائيًا ، إذ كانت تخاف فيه على نفسها . فكانت هذه الأمة لاتستطيع أن يفارق بعضها البعض ، ولا رضيت أن تفنى دونها تنفصل عنها ، فكأنه يربط بينها ما يربط بين أمواج البحر، فكان يدفع بعضهم البعض الآخر ، ثم يتظاهرون –عن وعي أو غير وعي –على أن يسبق بعضهم البعض الآخر .

هذا ، ويدفعني قوله تعالى : (بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوْجُ فِيْ بَعْضٍ) أحيانًا إلى القول بأن تفرقهم وتمزقهم هذا لم يقف عند حدّ ، فكما أن أمواج البحر لا يحصي عددها العادّ ، فمنها أمواج كالجبال ، ومنها أمواج صغار ، فيبدو أنهم في عهدهم هذا يتفرقون فِرَقًا لايأتيها الحصر والإحصاء .

وبالجملة دأب يأجوج ومأجوج على الإفساد في غيرهم ، وأما فيما بينهم فكان يربط بعضهم ببعضهم ما يربط بين أمواج البحر.

هاتان ميزتان يتوصل بنا إليهما خَبَرانِ من أخبار القرآن الكريم ، ثم ما بدأ به ذكر العهد الثاني من حياتهم ، وهو قوله : (وَتَرَكْنَا ...) هل يشير – بدوره – إلى حدثٍ معينٍ أو جانبٍ معينٍ يخصّ يأجوج ومأجوج؟!.

أو ليس يأجوج ومأجوج من وُلِد آدم

وإن الناس قد أجمعوا على أن يأجوج ومأجوج ليسوا من أولاد العفاريت ، ولا أنهم من الجن أو غيرهم، بل اتفقوا على

أنهم من وُلد آدم ، وهناك بعض ما لا يُحْتَجُّ به من الروايات التي تشير إلى أنهم لا ينتهي نَسَبُهم – من قبل أمهم – إلى الحوّاء ، وإن شئت قلت : إنهم يتفقون مع عامة ذرية الإنسان من قِبل أبيهم ، ويختلفون عنهم قليلاً من قِبل أمهم .[1]

ولكن لايخفى أن هذا كله ظنٌ وحدسٌ ، ومن العسير الجزم بشيءٍ في ذلك ، غير أنه من بين ما تزخر به الكتب من الغثّ والسمين من الروايات ماروي بلفظ: «يأجوج ومأجوج لم يكن فيهم صديق قط ، ولايكون.[2]

والصديق لفظة يعبر بها القرآن الكريم عن فئة من صفوة رجال الله تعالى ، ووصف القرآن الكريم يوسف وغيره من الأنبياء بالصديق ، وهو – فيما يبدو – من خلص إيمانُه وتصديقه من جميع شوائب الريب والشك.

فقوله : (وَتَرَكْنَا) إنما يفيد بأنهم حين أصبحوا هم كلُّهم في فترة الحياة هذه اضطرابًا ، وحركةً وتقلبًا ، أسلمهم الله تعالى لأنفسهم ، وخذلتهم الهداية السماوية مما حَرَمَ هذه الفترة من تأريخهم

---

[1] وليس هذا رأيٌ مني أو تعبير اخترعتُه ، وإنما انتزعت هذا الرأي مما قاله الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي في «الفتوحات المكية» ، وحكاه ابن حجر في فتح الباري (٩١/١٣) قائلاً : يأجوج ومأجوج من أولاد آدم لامن حوّاء عند جماهير العلماء . ومعناه الحرفي أنهم من أولاد آدم ممن لَم تَلِدهم حوّاءُ . وهذا الرأي عزاه الشيخ إلى جماهير العلماء ، واستغر به ابن حجر . وربما يمكن حمله على معنىً صحيح . وذلك إذا حملنا «العلماء» على «علماء الكشف والشهود» ، وإن لم يكن لي مساس بالكشف والشهود إلا أني رأيت في بعض ما أرِيْتُ – قريبًا من ذلك . فأرى أن المراد بالعلماء ليس علماء «الرسم» . وسأشير إلى شيء من أجزاء روياي هذه .

[2] الدر المنثور للسيوخي ٤٥٢/٥.

النبوةَ والرسالةَ وآثارَها. وإن أمةً حرمتِ الهداية السماوية لتضطرّ إلى أن تضع لنفسها من القوانين التي ترجع إليها علاقتها الشخصية والعائلية ، والقومية والإنسانية العامة . أرأيت أمةً أسلمها الله تعالى لنفسها ، وتركها هل يسعها أن تأتي غير ذلك؟![1]

---

[1] وإن القرآن الكريم ذكر نوحًا – عليه السلام – والطوفان الشهير الذي شهده عهده، وقال : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ) يؤخذ منه أن ذرية نوح الحاضرة تنتهي إلى نوح . وهناك آية أخرى من سورة «هود» من القرآن الكريم ، وهي: (قِيْلَ : يَا نُوْحُ ! اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيْمٌ) [سورة هود/٤٨] .

تدل هذه الآية على أن هناك أممًا – غير نوحٍ ، ومن كان معه في السفينة – ستُمَتَّعُ في الحياة الدنيا ثم يأخذها العذاب . ولا يعود ذلك إلا إلى أنها ستُسِيء استغلال ما ستُمتَّعُ .

فإذا نظرنا في هاتين الآيتين من القرآن الكريم ، وقلنا : إن الإخبار بقصر البقاء على ذرية نوح ينحصر في الذين أرسِلَ إليهم نوحٌ فَلِنَقُلْ إذًا . لم يَسْلَمُ من الطوفان منهم إلا ذرية نوحٍ ، وأما الذين وَعَدَهم القرآن الكريم بالمتاع في المستقبل فهم قوم آخرون .

ثم قال هنا عقب الآية السالفة : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذَا) وذلك هو الآخر يستدعي النظر والتأمل .

وإن قصته كما لايخفى، وكما يدل الكلام الجاهلي على أن العرب كانت على علم بها، وكيف لا ، وقد كان يربطها مع اليهود والنصارى العلاقات والأواصر، وخاصةً أن قصة خوفان نوحٍ هذه قصةٌ تذكرها أمم العالم بشكل أو آخر، وحتى الأمم الأمريكية القديمة، وأهل الجزائر الغامرة .

وحينئذ ما يدعيه القرآن الكريم (مَا كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ) يرجع فيما يبدو –إلى الخبر بمجموعه ، وخاصةً الإخبار بأن هناك أممًا – غير نوحٍ ، وصحبه – ستُمتَّع في الحياة الدنيا ، خبرٌ جديرٌ ألبتةَ أول ما نجده في القرآن الكريم. تأمّل – بجانب ذلك –في هذه الآية من سورة الحديد [٢٦] : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحًا وَإِبْرَاهِيْمَ ، وجَعَلْنَا فِيْ ذُرِّيَّتِهمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ) مما يدل على أن الأمم – من غير ذرية نوحٍ – حُرِمَتِ النبوةَ والكتابَ ، وكأنما يشير الإجمال في قوله : (وَتَرَكْنَا) ولنا أن ندرك هذه الإشارة من خلال هذه التفاصيل .

وأما الأمم مِن غير ذرية نوحٍ – التي ستُمتَّع – كما ينص عليه القرآن الكريم – فيشير

وعلى كل فتفيد الروايات القديمة ، والشهادات التأريخية – التي تتناقلها الأجيال الإنسانية التي تغطي أنحاء المعمورة عامةً – بأن الله تعالى كما أنعم على الإنسان بالحواس – أي السمع والبصر وغيرهما – التي تضمن له الحاجات المعيشية ، وبالعقل الذي يمكنه من استخدام مايفيده هذه القوىٰ الحسية والإدراكية بالإضافة إلى الأسئلة الأساسية الحياتية التي تبرزها الطبيعة الإنسانية ومنها : من

إليها التوراة ببعض الإشارات : فكان لآدم ولدانِ : هابيل وقابيل (قايين) كما لايخفىٰ ، وقتل قابيلُ هابِيلَ ، – ويقال : إن ما كانت تعبده العرب ، وتسميه «هبل» كان تمثالاً لهابيل هذا ، والله أعلم – تقول التوراة في قايين: إن آدم قال له : أنت ملعون من الأرض. فقال قايين للرب : ذنبي أعظم من أن يُحْتَمَلَ . وقال : إنك طردتني اليوم من وجه الأرض ، ومن وجهك أختفي . (راجع التوراة سفر التكوين ، الإصحاح الرابع /١٤، ط: جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ١٩٦٦م) .

وغيرخافٍ أن المراد بوجه الأرض إنما هي البقعة التي سكنها الناس عادةً ، وأهْلَكَ هؤلاء – إلا ذرية نوح – الطوفانُ ، فيما يبدو ، ولجأ قايين منها إلى منطقة قفرٍ ليس فيها تسهيلات العيش الإنساني .

وتضيف التوراة : «وسكن في أرض نود» .

فأين «نود» هذه ؟

وتضيف التوراة : «خرج قايين من لدن الرب» .

وتقول أيضًا : «فعرف قايين امرأته فحملت» .

ويُستشْكَلُ هنا أن قايين كيف عرف المرأةَ بعد ما اختفىٰ عن الذين كان آدم فيهم مع ذريته ؟ فإن النسل الإنساني لم يكن قد انتشر بعدُ في المنلخق الأخرىٰ .

وعلى كل فتقول التوراة : «إنها ولدت لقايين «حنوك» . وخرج من ذرية «حنوك» في الجيل الرابع رجل يسمى «ملك» ، الذي نكح امرأتين ، فولدتا – كما تقول التوراة – كل واحدة منها – ابنين له : أحدهما أبو أصحاب الزامير ، وأما الآخر فكان يعمل الآلات الحادة . وهذا الآخر الذي كان يعمل الآلات الحادة سمّته التوراةُ بـ «بلقان» . فكان اختراع الآلات الموسيقية ، والحادة الفتاكة يرجع إلى أولاد قايين هؤلاء . والذي يغَرِّب من الشرق يمرّ بجزء يسمى «بلقان» ، وكل ذلك مما يستدعي النظر والتأمل .

أين جئنا ؟ وإلى أين نسير؟ وما الهدف من وراء مجيئنا ، وبقائنا لأيام ثم مغادرتنا ؟ أي التعرف على الردّ على الأسئلة التي تخص البداية والنهاية ، والهدف الذي يساعد على ذلك - غير العقل والحواس - مصدر مستقل بذاته ، وهو الوحي والنبوة.

فإن فَقَدَ تاريخ أمةٍ أو قومٍ هذا المصدر الأساسي للعلم والمعرفة فتعجز عن الجزم والقطع بشيء فيما يخصّ هذه الأسئلة الأساسية الحياتية فالحق أنّها لاتستطيع غير ذلك . إن رجلاً حُرِم البصارة إذا لم يدرك الضوءَ فما ذا عسى أن يفعله ؟ إن الله تعالى وضع مصدرًا معينًا لإدراك شيء من الأشياء . فإننا إذا ما حاولنا إدراك الصوت بالعين أو اللونَ بالأذن ، فهل سيُكْتَبُ لنا النجاح في ذلك ؟ والطريقة الطبيعية التي وضعها الله تعالى للتوصل إلى حلّ الأسئلة الأساسية الحياتية ، هي الوحي والنبوة . فأنّى لأحد حُرِمَها أن يقطع فيها بشي بمجرد الحواس والعقل . فما تقول الروايات : «لم يكن فيهم صديق قط ، ولايكون أبدًا»[1] هل يعني غير ذلك؛ إذ الصديق : من يعلم علم اليقين الجازم - الذي لايتطرق إليه الشك والريب بمختلف صوره وألوانه - الردَّ على الأسئلة الأساسية هذه . وكيف يتوصل إلى هذا العلم ، والجزم من حُرِم السبيل الطبيعية التي تهدي إليه . ومثل الذي يحاول الاهتداء إليه كمثل الأمم الذي يتسّمع الصوت بشمه أو لمسه .

وأما إن أمةً أو أممًا هذا شأنها هل وُجِدَت في العالم قديمًا أو حديثًا ؟ فَلْيُرْجَعْ في ذلك إلى التأريخ ، والروايات القومية للأمم

---

[1] سبق تخريجه .

الحاضرة .[1]

فِيْم استحق يأجوج ومأجوج العقاب

نعم ! من الطبيعي أن يقال : فِيْمَ استحقت هذه الأمة هذا العقاب المهيب المزعج المرعب السّيء العاقبة المدمّر الذي تمثّل في حرمانها المصدرَ اللازم البالغ من الأهمية كل مبلغ ؟ مما أدّى - وماذا عسى أن يؤدي إلى غير ذلك - إلى أن تعود رحلة الحياة تفقد كل معنىً ، بل تعود رحلة المجانين ، كأنها رحلة مسافر لايدري من أين انطلق ؟ وإلى أين يسير ؟ ولِمَ يَسِيرُ ؟ وهو جادّ في ترحاله . وأصدقك أن نظام الكون هذا كله يعود - حينئذٍ - أضغاث أحلام . وأما تأويله بتسرّب نقيصةٍ خبيعيةٍ[2] أو إهمال إلى

---

[1] وكان العلامة عبد الباري الندوي - الأستاذ الشهير في الجامعة العثمانية ، ومن أصحابنا وكبارنا - يقول : قد درستُ تأريخ الأمم الأوربية بهذا المنظار ، والذي يبعث على العجب أننا لم نَعثُر على عهد من عهود هذه الأمة شهِدَ النبوة والوحي . ثم دخل عليها النصرانية ، فكان المظنون أنها تأنس بهذا المصدر الخاص للعلم والمعرفة ، ولكنها تمادت في شرحه بأسلوب يدفع إلى أن نتركه يضيع في خِضَمِّ مصادر العلم والمعرفة العامة أمثال العقل والحواس، أو يلتحق بالأمراض العقلية أمثال الوهم ، والماليخوليا - الخلل العقلي - والمينيا (Mania) .

[2] أي أن الميول الفطرية التي يستوجبها التفاعل مع النبوة والوحي كأنها كانت تعوِز هذه الأمة تمامًا ، فكما لايمكن أن تَفهم الأكباش والثيران ما الوحي ؟ وماذا تعني الرسالة والنبوة ؟ كذلك كانت هذه الأمة .

ولعلك تذكر ما أسلفنا في بعض الهوامش من أن قابيل (قايين) حين خُرِدَ من وجه الأرض واختفىٰ عن آدم ، وخرج من عند الرب فلم تَعُد - أصلاً - إمكانية وصوله إلى المرأة إلا أن التوراة قالت : إنه عرف المرأة ، وحملت ، فكانت منه ذرية قايين . فأين وجد هذه المرأة ؟ ولا أعدّ إلا ضربًا من الخيال أن قايين استولد - لا آدميةً - وإنما أنثى من القرد التي أقرب ما تكون إلى الإنسان صورةً . ولكن الرزية كل الرزية أن أُرِيَ من

أصل الوضع ، فليس يسيرًا – أولاً – ادعاؤُه ، وهَبْ أننا سلّمنَا لمثل هذا الإهمال الطبيعي فسيعود السؤال نفسه : لِمَ أبقىٰ الخالق القادر على هذا الإهمال في الذرية الإنسانية حين خلقها ؟

فالأصل أننا حين نجد فيهم جميعَ ما يتطلبه النوع الإنساني : فهم ينظرون كما ينظر الناس جميعًا غيرهم ، ويسمعون كما يسمعون ، ويفكرون كمايفكرون ، ويحتاجون إلى ما يحتاج إليه غيرهم .

وعلى الجملة إذا كان يجد فيهم من يجد كل شيء ظاهرًا وبلخنًا كل ما يوجَد أو يمكن أن يوجد في غيرهم فلا معنى لأن نجعل إعراضهم عن الوحي والنبوة ، وتنكّرهم لها ، وتوحشهم عنها راجعًا إلى نقيصةٍ أو إهمالٍ في الطبيعة والجبلة ، فلا شك أن مشاعر الطغيان والتمرد المتعمد – الذي أورثه الخوض في المهن الجريئة – لها يدٌ فيه .

وإن تصوّر حضور قوةٍ مُجَازِيةٍ مُعاقِبَةٍ ، لايخفى عليه شيء في أي مكان أو زمان لم يُطْقِهَا أهواؤهم العاتية ، وأمانيهم الجامحة ،

أرِيَ أن ذرية قايين القادمة قد تسربت إليها بعض النقائص الطبيعية بحكم اختلافها عن غيرها في أمها . إلا أن هذا نفع في جانب منها أن هؤلاء انصرفوا كليًا عن الغيب . فامتصّ العالم المحسوس جميع خاقاتهم وقواهم . ولعل هذه الانعزالية جعلت اختراع الآلات الموسيقية ، والأسلحة الفتاكة يرجع فضلها إليهم . والله أعلم بالصواب .

ولعل ما أفَادت به أوربا في الأيام الأخيرة من أن الإنسان ينتهي نسبه إلى القرد فيما يقتضي العلم (Scince) أليس يقال أن المرأ حين يرىٰ البغل يستشف منه صورة الحمار بجانب صورة الفرس ، وصورةَ الفرس بجانب صورة الحمار. كذلك يشاهد الناس أفراد جنس معين من الناس فيخطر ببالهم القرد بجانب الإنسان ، والإنسان بجانب القرد. ويعبرون عن شعورهم هذا بمثل : ذوي الأفواه الحمراء ، وغيره .

ولم تَسْتَسِغْهَا فلم يجدوابدًا من أن يغلوا في تنشئة عقلية تتنكّر للمصدر الذي يُشعر الطبع الإنساني بضغطة حضور هذه القوة ، ونظرها الدائم ، غُلّوًا يجعلهم يُعذِرون أنفسهم من أن يتفهّموا ذلك إذا ما أراد البعض أن يفهمهم .

فالحاصل أنه رغم اجتماعهم في جميع ما يتطلبه الطبيعة الإنسانية ما نفاجئ من موقفِهم من هذا المتطلب الخاص من متطلبات الطبيعة الإنسانية ، ليس موقف المضطَرّ واليائس وإنما ينِمّ عن قصدهم واختيارهم . فهل يبقى من سبيل إلى العلم والإدراك لمن قطع على نفسه أن يتنكّر ويجهل؟.[1]

[1] وبهذه المناسبة أذكر خريفةً من الطرائف التي ضمّها الجاحظ كتابه الأدبي الشهير البخلاء (١/٥٣–٥٤ ط: دارالكتب العلمية بيروت) فقال : إن رجلاً من أهل مَرْوَ كان لا يزال يحجّ ، ويتّجر ، وينزل على رجلٍ من أهل العراق ، فيكرمه ، ويكفي مؤنته ، ثم كان كثيرًا ما يقول لذلك العراقي : ليت أني قد رأيتك بمرو ، حتى أكافئك لقديم إحسانك ، وما تُجدّد لي من البِرّ في كل قدمةٍ ، فأما ههنا فقد أغْنَاك الله عَني .

قال : فعرضت لذلك العراقي – بعد دهرٍ خويلٍ – حاجة في تلك الناحية . فكان مِمَّا هوّن عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، مكانُ المروزي هناك . فلما قدِم قضىٰ نحوه في ثياب سفره ، وفي عمامته ، وقلنسوته ، وكسائه ، ليحطّ رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته ، وموضع أنسه .

فلما وجده قاعدًا في أصحابه أكبّ عليه ، وعانقه ، فلم يَرَه أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال العراقي في نفسه: لعلّ إنكاره إياي لمكان القناع . فرمىٰ بقناعه ، وابتدأ مسألته فكان له أنْكَرَ . فقال : لعله أن يكون إنما أُتِيَ من قبل العمامة ، فنزعها . ثم انتسب ، وجدّد مسألته . فوجده أشد ما كان إنكارًا . فقال : لعله إنما أُتِيَ من قبل القلنسوة.

وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل المتجاهل قال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك .

ومادام المروزي قد قضىٰ أن يتنكّر، فهل ترىٰ من سبيل إلى معرفته له ؟.

ويبدو أن هذا القضاء الطاغي – الذي قَضَاه عقلية هذه الأمة القومية – جعلها تستحق الحرمان من الوحي والنبوة . وبما أنهم قَضَوا أن لا يَسْمَعُوا ، فهل يُغنِي إرسال رسولٍ إليهم . ينذرهم من شيء ؟

إذًا فالنص القرآني (وَتَرَكْنَا) لم يَلْقَ كبير اهتمام وعناية ، ودَعْ ذلك فهُم لم يتساءلوا : لِمَ استخدم القرآن الكريم هذا النص المعين بهذه المناسبة نفسها ؟ وهذا الذي حَمَلنِي على أن لُخيل نَفَسي في بسط هذا الإجمال؛ فإن الإشارة العابرة ببعض الكلمات ربما يغني عن تفصيله فيما لو تناولته المصادر سابقًا .

وهذه هي الخصائص التي امتاز بها عهد يأجوج ومأجوج الثاني فيما يدل عليه القرآن الكريم وهَلّم بنا إلى العهد الثالث لهؤلاء القوم .

سبق أن أفاد العهد الثاني بأنهم كانوا يموجون بعضهم في بعض . فكأنهم قد تقطعت أسبابهم مع الأمم الأخرى في هذا العهد ، إلاّ أن الآية الشهيرة من سورة الأنبياء – لا من سورة الكهف – وهي قوله تعالى : (حَتّى إذَا فُتِحَتْ يَأجُوْجُ وَمَأجُوْجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوْنَ) تدل على أنهم سَيُمَكَّنُوْنَ من التوجه إلى الأمم الأخرى بعدما صُرِفُوْا عنها . وهذا ما أُعدُّه العهد الثالث من الحياة القومية ليأجوج ومأجوج انطلاقًا من النص القرآني. وبما أن هذا العهد لم يتناوله سورة الكهف، وإنما تناولته سورة الأنبياء، كما أسلفت ، فأجّلت تفاصيله .

ولِنَقرأ العهد الرابع الذي تناولته سورة الكهف.

هذا ، وعهدهم الرابع هذا تناولته – فيما أرى – هذه الآية من سورة الكهف : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) .

أي كما أن الأجيال الإنسانية سلفها وخلفها، كبارها وصغارها ، رجالها ونساءها أجمعُ يُحْشَرُوْنَ ويُجْمَعُوْنَ بعد ما يُنْفَخُ في الصور ، يجد يأجوج ومأجوج أنفهسم أنهم قد جُمِعُوْا عن آخرهم .

موعد خروج يأجوج ومأجوج

ويميز العهد الرابعَ عن العهد الثالث أن العهد الرابع يظهر – كما يدل عليه القرآن الكريم – بالنفخ في الصور يوم القيامة . وأما فتح يأجوج ومأجوج بعد ما صُرِفوا عن الأمم الأخرى فإن موعده – كما ينصّ عليه القرآن الكريم – يسبق القيامةَ .

ألا تنظر فيما قال عقب فتح يأجوج ومأجوج: (وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فإذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا ، يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِيْ غَفْلَةٍ مِنْ هذَا) [سورة الأنبياء/٩٧]

أي فتح يأجوج ومأجوج تَلاَهُ الإخبار – لابقيام الوعد الحق أي القيامة – وإنما بدنوه ، واقترابه . فلأن نسلِّم أن موعد فتح يأجوج ومأجوج يسبق القيامةَ أولى ، بل ما صرّحت به الآية نفسها من اعتراف مَن أنكر ذلك ، بغفلتهم يدلّ بدوره على أن أهوال القيامة لم تكن قد تجلت وانكشفت ، وإلافهل يبقى لغفلتهم من معنىً ؟

والحاصل أن القرآن الكريم ينصّ على أن عهد يأجوج ومأجوج القومي الثالث المتمثل في عودتهم إلى الأمم الأخرى ،

بعد ما صُرِفُوا عنها يسبق يومَ القيامة . وهذا العهد من حياتهم القومية يُعَبَّرُ عنه بـ«فتح يأجوج ومأجوج أو خروجهم» .

وكما أسلفت أن الآثار والأخبار التي تَزْخر بها مصادرنا لم يطمئن أصحاب الدراسة والنقد إلى شطرٍ كبيرٍ منها ، إلاّ أن بعضًا من أمثال هذه الروايات مما رواه البخاري في «صحيحه» – ذلك الكتاب الذي استحوذ على ثقة الناس – هي بدورها لتؤيد أن عامة أمور المدنية والعمران لاتشهد تغيرًا وتقلبًا ملموسًا فيما يخصّ الأعمال والتجارات، حين يخرج يأجوج ومأجوج .

فالحديث الشهير الذي رواه البخاري عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : «لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ ، وليُعْتَمرنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج».[١] أو مارواه غيره ببعض الإلحاقات : «إن الناس ليحجّون ويعتمرون، ويغرسون النخل بعد خروج يأجوج ومأجوج».[٢] قُل لي ماذا عسى أن نأخذ منه غير هذا؟

ولاشك أن الحج والعمرة ، وغرس النخل ورد ذكرها على سبيل المثال ، والقصد منه – فيما يبدو – أن العبادات أمثال الحج والعمرة – التي تحوِج المرءَ إلى قطع مسافاتٍ شاسعةٍ وشقةٍ بعيدةٍ لِيَصلِ إلى مكة – وغرس النخل مما لا يُقدم عليه إلاّ من تفاءل بمستقبله ، وإلاّ فهل لأحدٍ أن يغرس النخل في حين قد استحوذ على الأذهان والعقول أهوال القيامة ، ذلك اليوم الذي قال فيه تعالى : (لِكُلِّ امرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْهِ) [سورة عبس/٣٧] .

[١] رواه البخاري في الحج باب قول الله تعالى (٩٧ المائده) [١٥٩٣] ٣/٤٥٤ .

[٢] راجع فتح الباري لابن حجر ٣/٤٥٥ .

وروى البخاري في صحيحه أن رسول اله ﷺ استيقظ من نومه محمرًّا وجهه ، وقال : «فتح اليوم ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه . وعقد سفيان : تسْعين أو مائة.[١] أي كأن رسول الله ﷺ صوّر لهم فتحة أ ضيق في هذا الردم .

فتدل هذه الرواية الشهيرة على أن الرسول ﷺ كأنّما أخبر بأن إمكانية ظهور العهد الثالث من حياة يأجوج ومأجوج القومية قد دَنَتْ في عهده ﷺ. ولا يعدو الحق لو تعدّى البعض إلى القول بأن ضياء بدء ظهورهم كأنه قد انفجر في العهد النبوي.[٢]

فاعتبار خروج يأجوج ومأجوج في العادة من علامات القيامة لايعني أكثر من أنه علامة من نوع ما يُعَدّ بعثة النبي ﷺ من علاماتها وأشرلخها . والحق أن ما يصير إليه يأجوج ومأجوج بعدما يخرجون ، والأحاديث التي فصّلت مصيرهم الأليم هذا ، وربطها الناس بالخروج . وسيأتي تفصيل ذلك .

وعلى كلٍ فتهيئة الجوّ . وتمهيد الأرضية لخروج يأجوج

[١] وقد أسلفت أن قصة خروج يأجوج ومأجوج هذه لاترتبط بانهيار ، واندكاك سدّ ذي القرنين . وذكرتُ ما حرّره العلامة الشيخ الكشميري في هذا الباب . إذاً فقول الرسول صلى الله عليه وسلم – بعد ما استيقظ من نومه ، محمرًا وجهه – : «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه». يعني – فيما يبدو – أن خروج يأجوج ومأجوج مثّلته الرؤيا بفتحة السدّ . ولا يخفى أن المرء يرىٰ في المنام اللبن ، ويؤوّل بالعلم . وصرّح القرآن الكريم بأنه أرِيَ الجدبَ والقحط والسنبلات اليابسات في صورة بقرات عجاف .

وعلى كل فحمل هذه الآية على أن يأجوج ومأجوج قد تمكنوا من نقب السدّ حقًا مما أخبر القرآن الكريم بأنهم لايستطيعون نقبه لايعدو التغاضي عن الحق والواقع ؛ والتجافي عنه .

[٢] راجع فيض الباري شرح صحيح البخاري ٢٣/٤ .

ومأجوج التي شهد العهد النبوي بدايتها هل تمّ تحديد نهايتها وتمامها بأجلٍ ؟ وإذا ما تأملنا في الشطر الأخير من سورة الأنبياء ، وهو قوله تعالى : (حَتّى إِذَا فُتِحَتْ يَأجُوْجُ وَمَأجُوْجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوْنَ) (والحدب : ما ارتفع، وغلظ من الأرض داخل الماء) . وبالجملة إنهم يغشَون جميع المعمورة غشيانًا لاينقطع آخرهُم عن أولهم ، ويتوغلون توغلاً فاحشًا في أكناف المعمورة. وحينئذٍ نقول : إن الفتحة التي فُتِحَتْ في السدّ لخروجهم في العهد النبوي قد اتّسع واكتمل . وتجسّد ما تنبأ به القرآن الكريم : (فُتِحَتْ يَأجُوْجُ وَمَأجُوْجُ) . ولذا كان العلامة الكشميري يرى أنهم لا يخرجون مرةً واحدةً ، وإنّما «لهم خروج مرةً بعد مرةٍ.[1]

ومما يبعث على العجب أن العهد الجديد – الذي يسميه أهل الكتاب بالإنجيل – ينتهي برسالة تُسَمّى بـ«رؤيا يوحنا اللاهوتي» , مبادئ نصوص هذه الرسالة تدل على أن يوحنا هذا أحد حواريّ عيسى عليه السلام . وقد أُرِيَ الغيبَ في بعض رؤياه . وجُمِعَ ذلك ، وأرسلت نسخُها إلى الكنائس السبع . وتناولت هذه الرؤيا بشكلٍ عامٍ – ما سيقع في المستقبل . وإليك نصّ رؤيا مما رأه :

«ثم رأيت السماء مفتوحةً ، وإذا فرس أبيض، والجالس عليه يُدْعَى «أمينًا وصادقًا» ، وبالعدل يحكم ويحارب ، وعيناه كلهيب نار ، وعلى رأسه تيجان كثيرة ، وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلاّ هو ، وهو متسربل بثوب مغموس بدم . ويُدْعَى اسمه كلمة الله . والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل

[1] رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح التاسع عشر / ١١–١٦ من الكتاب المقدس .

بيض لابسين بزًّا أبيض نقيًا ، ومن فمه يخرج سيف ماضٍ لكي يضرب به الأمم ، وسيرعاهم بعضًا من حديد ، وهو يدوس معصرةً خمر سخط وغضب القادر على كل شيء . وله على ثوبه، وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك، رب الأرباب».[1]

وليت شعري ماذا عُبِّرَ عنه بـ «أمينًا وصادقًا»؟ ولكن من ذا الذي يجهل «الصادق الأمين»؟ ويجمل الملوك المتوجين بتيجان لم يملكوها ، وإنما كانت تيجان ذلك المفرق المقدّس . ولقد شهد الناس الملائكة الفوارس في معركة بدر؛ وإنصافه للمظلوم، ومحاربته من حاربَه ، وخيران رشاش الدم في هذه الحروب على ذيله ، وإدارة البلاد بيد من حديد تثبِّط من همم الأشرار و المفسدين ، وقَتَل ودَاسَ من واجهه وعانده . فمن يجهل ملك الملوك ، ورب الأرباب هذا ؟ صلوات الله وسلامه عليه .

ويعقب هذه الرؤيا رؤيا أخرى خويلة تقول: إن ملكاً نزل من السماء فقبض على التنين – الحية القديمة – الذي هو إبليس والشيطان ، وقيّده ألف سنةٍ ، وخرحه في الحاوية ، وأغلق عليه ، وختم عليه لكي لايضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف السنة.[2]

وأضافت : «وبعد ذلك لابدّ وأن يحلّ زمانًا يسيرًا».

وتُفَصِّل هذه الرؤيا الزمن اليسير الذي يحلّ فيه الشيطان قائلةً:

«ثم متى تمّت الألف السنة يُحَلُّ الشيطان من سجنه» .

وماذا عسى أن يفعل الشيطان حين يُحَلّ ؟ تقول الرؤيا :

[1] الإصحاح العشرون /٢–٣ .

[2] الإصحاح العشرون /٢–٣ .

«ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا يأجوج ومأجوج ، ليجمعهم للحرب» .

والأخرى أن ترد هنا كلمات تعبّر عن معنى «من كل حدب ينسلون» – فيما يقتضيه القرآن الكريم . وليت شعري بالنص الأصلي الذي ترجمه المترجم إلى أربع زوايا .

وليحسب الذي – يعرفون ملك الملوك ، ورب الأرباب – الصادق الأمين – الزمن الذي يجب أن ينتهي ، ويكتمل فيه العهد الثالث من حياة يأجوج ومأجوج القومية.[1]

ورؤيا يوحنا اللاهوتي نفسها تقول فيما يخصّ يأجوج ومأجوج الذين يستنفرهم الشيطان :

«الذين عدوهم مثل رمل البحر، فصعدوا على عرض الأرض، وأحلخوا بمعسكر القديسين ، وبالمدينة المحبوبة».[2]

وماذا يقصد «بمعسكر القديسين» ، وبـ المدينة العزيزة ؟ إن «العزيزة من العزّ ولو ترجمنا هذه الكلمة إلى العربية لكان إلى «البلد الحرام» . وأما معسكر القديسين البالغ عددهم عشرة آلاف نفسٍ ، مما أُرِيَه موسى في الموضع الذي أُرِيَه فيه لا يخفى على دارس

[1] وتذكرت هنا – فجأةً – ماذكره «الفرد هبر» في كتابه تاريخ الفلسفة (ترجمة الخليفة عبد الحكيم ص ٢٤٤) : قد شهدت أوربا في منتصف القرن الخامس عشر أحداثًا عدةً يتلوها مثلها من الأحداث ، تبعث على الحيرة والعجب» .

فاحسِب المدة التي تتخلل بين منتصف القرن السادس (٥٧٠) وبين منتصف القرن الخامس عشر. وليتنا ندرس التاريخ بهذا المنظار . والعهد الذي تسميه الدول المتمدنة با«لنشأة الثانية» إن دراسة مبدئه ، وارتقائه المتدرج المتصاعد ستكون ممتعةً جدًا .

[2] رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح العشرون /٩ .

التوراة.[1]

وانتهت رؤيا يوحنا هذه بـ :

«فنزلت نار من عند الله من السماء ، وأكلتهم».[2]

فالضمير المنصوب يعود على يأجوج ومأجوج. وذلك يشير إلى استخدام الأسلحة النارية إلاّ أن هذا المصير سيتمثل لهم في المستقبل . والذي أودّ الإشارة إليه – الآن – أننا لا نعجز أن نحدّد موعِدَ خروج يأجوج ومأجوج من خلال هذه الرؤيا . كما أن نصوص هذه الرؤيا تصل بنا إلى تقدير وتحديد موقفهم إلى حدٍمَا حين يُتَاحُ لهم التوجه والانطلاق إلى الأمم الأخرىٰ كرةً ثانيةً . حيث تقول هذه الرؤيا :

«فصعدوا على عرض الأرض ، وأحلخوا بالمدينة العزيزة».

وكان ما وصفه القرآن الكريم من ميزة يأجوج ومأجوج القومية قبل بناء ذي القرنين السدَّ قائلاً : (إنَّ يَأجُوْجَ وَمَاجُوْجَ مُفْسِدُوْنَ فِى الأرْضِ). فإنهم يُبدون هذه الفطرة والجبلة عندما يخرجون ثانيًا . وتقول بعض الروايات عندنا : «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أسلموا لأفسدوا على الناس معاشهم».[3]

[1] وجاء في التوراة (سفر التثنية الإصحاح الثالث والثلاثون/١): وتلألأمن جيل فاران وأتى من ربوات القدس بعشرة الآف من القديسين .

وقد روى البخاري في صحيحه (في المغازي باب غزوة الفتح في رمضان [٤٢٧٦] ٣/٨) أن رسول الله ﷺ غزا غزوة الفتح ، ومعه عشرة آلاف .

[2] الإصحاح العشرون /١٠ .

[3] كنز العمال ٥٨/٦ بهامش المسند للإمام أحمد بن حنبل ط: المكتب الإسلامي .

وهـذا – أيـضًا – يؤكـد عـلى أنهـم جُبِلُـوا عـلى الـسعي في الأرض فـسادًا ، والإفـساد عـلى النـاس معاشَـهم ، وإن ميـزتهم القومية لتُبدي آثارها ونتائجهـا ، ولـو أسـلموا واعتنقـوا الإسـلام . فكأنهم أسلموا ، ولما يدخل الإيمان في قلـوبهم . وتبقـى سرائرهم كما كانت قبل أن يسلموا . وإذا كانت هذه علاقتهم الطبيعية مع الإسلام فليكن الانتماء إلى نبي من الأنبياء غير نبي الإسلام من شأنه أن لا يؤدي إلى غير ذلك .

وإذا كانت علاقتهم بالدين المصون الـذي لم يتطرق إليه يد التحريف والتبـديل هـذا شـأنها فكيـف يـسعُ الانتمـاءَ إلى – ومجرد الانتماء – إلى الأنبياء الذين لم تَعُدْ توجيهاتهم على ما كانت عليه، أن يغيِّر من مقتضياتهم الطبيعية .[1]

ولكـن هـذا الـذي قـدمناه لكـم في شـأن مـن سمّـاهم القـرآن الكريم «يأجوج ومأجـوج» هل تنتهي قـصتهم عنـد هـذا الحـد ؟

---

[1] ويجدر بالذكر هنا أن الأيام التي سبقت التاريخ قد شهدت جبلةَ يـأجوج ومأجوج المفسدة . وسبق القرآن الكريم إلى النص على أن النـاس شـكوا ذلـك إلى ذي القـرنين . وفبيد ذلك الكتـب الهندوسية بتغيير يـسير . فقـد استبدلت هـذه الكتـب الهندوسية بــ «يأجوج ومأجوج» : «كوك وكوك» وهذا لا يختلف مما نـشاهد نطق هـذه الكلمـات بــ «كـوك مـاكوك» (بالكـاف الهنديـة) ، وبـ «غـوغ ومـاغوغ» ، وأمثـال ذلـك . رجـاء في أحـوال الكتـب الأربعـة المقدسـة لـدى الهنـدوس : رِك ويـد (Rigved) الغنـاء الثـاني والعشرين ، والسكتة الرابعـة الحلقـة الـسابعة كلمـة دعـا بهـا قـائلاً : أيهـا المالـك ! ادفع معابدنا من دمار «كوك» وقد اقتصرهنا على «كوك» ، بينمـا نـصّ كتـاب هنـدوي آخر يسمى «كـالكي بـران» ، عـلى «وكـوك» بجانـب «كـوك» . بالإضـافة إلى التـصريح بـأن مركبهم لونه أسود ، ويـصوّت بأصـوات الفـأرة والكلـب ، والحمـار وغيرهـا . وأعينـهم زرقاء . انظر مقدمة تفسير غاية البرهان ص ٣٠٢ .

أي بـ :

١ – إفسادهم على الأمم الأخرىٰ.

٢ – أو إصرارهم على العلاقة المائجة بينهم مما سبق تفصيله. أي اشتباك بعضهم مع بعض ، وعدم رضاهم بتخلي بعضهم عن بعض كل التخلي .

٣ – كـونهم قـد تُرِكـوا ، أي مـا يُـنعم الله بـه عـلى النـوع الإنسان من نعمة الوحي والنبوة ، تربطه في الحياة الـدنيا بالغيـب . وكـأن مـا أوصـىٰ بـه سبحانه وتعـالى الإنـسان حـين أنـزل آدم إلى الأرض قائلاً : (فَإِمَّا يأتِيَنَّكُمْ مِنّي هدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ هُـمْ يَحْزَنُـوْنَ) [البقـرة/٣٨] واقتـضت هـذه الوصـية الأخيرة أن يأتي كلَّ أمةٍ نـذيرُها. وقـد حَرَمَ يـأجوجَ ومـأجوجَ مـا جُبِلـوا عليـه مـن الطغيـان والتمـرّد هـذه النعمـةَ الإلهيـة الخاصـة . فأصبحوا أمةً تركهم الله تعالى وخذلهم .

فـلا عـلى أحـد أن يقـرأ في تجاعيـد نواصـيهم مـا وصـف بـه الـشاعر الإسـلامي الـشرقي الـدكتور إقبـال[1] رحمـه الله الوصـف الدقيق الحكيم العارف حيث قال ما معناه :

* إنهم قيّدوا أرجلهم بقيـود مـن المظـاهر، ولم يتعـدوا حـدود الحس .

---

[1] إقبـال (محمـد) (١٨٧٦–١٩٣٨م) أشهر الـشعراء الفلاسـفة والمفكـرين المـسلمين في الهند في القرن العشرين ، وأرفعهم مقامًا . ولِد في «سيالكوت» ، وتـوفي في «لاهـور» . فاق غيره في التأثير على عقلية المسلمين في شبه القـارة الهنديـة ، وإثـارة شـعورهم الـديني والثقافي . له دواوين عديدة منها : «مثنوي أسرار خـودي» ، و«بـال جبريـل»، و«بانـك درا» . (راجع : المنجد ص ٥٦)

* إن الجاهل الغافل عن الله تعالى البعيد عن إدراكه يحرم الوصول إلى سلاسل جمته .

* إنه خُبِعَ على التحرر من حرقة الوله والعشق، لن يقَرّ عينًا في ميدان البحث والدراسة .

* إن هذه الخمر العتيق ليست في الغابة . وإن لياليه لا تحظى بنداء : يارب !

وما يشير إليه النص القرآني : (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ) من أن ما غلظ ، واشتد وبرز من الأرض في الماء جزائر كانت أو شبهها أو أجزاء من اليابسة التي يُطْلَقُ عليها «اَلبرُّ» مما يضادّ البحرَ . فإن كلمة «كل» تتطلب وصو لهم إليها جميعًا . وليس أنهم يصلون إليها فحسب ، وإنما يتخذونها مقاعد (Base) ينطلقون منها كما يدل عليه كلمة «من» ، وهذا الذي أشار إليه القرآن الكريم وفصّلته رؤيا يوحنا اللاهوتي أي :

متى يخرجون ؟ لِمَ يخرجون ؟ وإلاَمَ ينتشرون؟

وهذه الأسئلة كلها سبق الرّد عليها في هذه الرؤيا ، أي أنهم يتاح لهم أن ينسلوا إلى الأمم الأخرىٰ بعد الأمين الصادق ملك الملوك ورب الأرباب ، بألف سنةٍ مرةً أخرىٰ ، وقد انتهوا وانقطعوا . فهذا الردّ على متى يخرجون ؟ ثم إن الشيطان يخرجهم للحرب . وهذا ردّ على : لِمَ يخرجون ؟ ويفتحون الأرض حتى يحيطوا بالمدينة العزيزة .

٤– وأتبع القرآن الكريم : (مِنْ كُلِّ حدبٍ) كلمةَ يَنْسِلُوْنَ . ولا يخفى أن أصله : من النسل . ويقول أهل اللغة : النسل : اللبن

يخرج بنفسه من الإحليل ، وما يسقط من الصوف عند النسل . ثم أُلحِقَ بهذا المعنى على «شدة السير وسرعته».

فَلو أُخِذَ من هذه الإشارات اللغوية أن المراكب التي يستخدمونها في التنقل من مكانٍ إلى آخر تكون مفرخة السرعة ، فليس مما يقال: إنه أُخِذَ من القرآن أخذًا دون حقٍ.

٥ – وتدل بعض الروايات عندنا على أنهم لايرعوون عن الإفساد على الناس معائشهم، ولو خضعوا لدين نبي ورسول صادق، ولو كان هذا الدين هو دين الإسلام .

٦ – وكذلك لو سلّمنا ، وثَبَتَ أن يأجوج ومأجوج تنتهي ذريتهم إلى قايين (قابيل) ذلك الولد العاصي من ولد آدم ، والذي لعنه آدم، ففرّ من المنطقة التي كان يعيشها آدم وذريته ، واختفى عنهم . وإذاً فلا عجب من إبداع هؤلاء الأسلحة الفتاكة بالبشرية والحب المفرط لآلات اللهو والطرب والغناء ، وإبداء الآلات العجيبة الغريبة ؛ فإن هاتين ميزتين نسبهما التوراة إلى ذرية قابيل ؛ بل الأجدر أن تعدّ قِصَصُ فتكهم بأصحاب هابيل – الذي قتله قابيل – من العادات التي توارثوها عن يأجوج ومأجوج .

إشارة قرآنية

ضَعْ العلامات والآيات السالفة الذكر نصب عينيك ، وهلم نتأمّل في إشارة قرآنية أخرىٰ . فإن الآية الشهيرة من سورة الأنبياء تحمل إشارةً أخرىٰ ، تخصّ يأجوج ومأجوج في الفترة التي تتخلّل بين النفخ في الصور ، وفتح يأجوج ومأجوج . والآية هي : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أهلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَيَرْجِعُوْنَ حَتّى إذَا فُتِحَتْ

يَأجُوْجُ وَمَأْجُوْجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوْنَ) .

فالشطر الأخير من الآية مما يتناول فتح يأجوج ومأجوج سبق أن مضى ذكره . وأما الشطر الأول الذي يصرّح بأنه يحرم على القرية التي أهلكت أن ترجع إلى أن يفتح يأجوج ومأجوج . فماذا يعني هذا الشطر من الآية ؟.

وكما أسلفتُ أن خروج يأجوج ومأجوج أو فتحهم في التاريخ الإنساني المقبل ، تحمله مذكرات الأديان ببعض التغييرات في النصوص والألفاظ فـ «گاگ وميگاگ» (بالكاف الهندية) و«غوغ وماغوغ» بالإضافة إلى «كوك وكوك» فيما لخلع عليه البعض في بعض الكتب الهندية القديمة ، ولكن تكاد الأديان عامةً تشترك في شيء . وذلك أن التنبؤات لاتكشف عن معالم الحدث كاملةً غير منقوصةٍ مالم يقع أو يتحقق ذلك الحدثُ . ويقال : إن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان[1] – الذي أمَّنَه رسول الله ﷺ على رصيد غير يسير من الفتن التي تقع في المستقبل – كان إذا حدث شيء من ذلك رجعوا إليه، وحتى عمربن الخطاب[2] كان يرجع إليه في ذلك.

(١) حذيفة بن اليمان (٠٠٠–٣٦هـ = ٠٠٠–٦٥٦م) : حذيفة بن حسل بن جابر ، أبو عبد الله : صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين ، صاحب سرِّ رسول الله ﷺ في المنافقين ، لم يعلمهم أحد غيره ، له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثًا . راجع : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٣١٧٨ ط: دارالفكر بيروت ، ومعه الاستيعاب لابن عبد البر ٢٧٧/١ ؛ الأعلام للزركلي ١٧١/٢ .

(٢) عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ – ٢٣هـ = ٥٨٤–٦٤٤م) أبوحفص ، ثاني الخلفاء الراشدين ، وأول من لُقِّب بأمير المؤمنين ، صحابي جليل ، صاحب الفتوحات ، يضرب بعَدِله المثل . كان في الجاهلية من أبطال قريش ، وأشرافهم. قُتل غيلةً وهو في صلاة

وعلى كل فقد حكى أصحاب الصحاح : البخاري ومسلم وغيرهما عن حذيفة هذا فيما يخصّ الفتن والملاحم التي سمعها من رسول الله ﷺ – كلمةً هامةً تتلخص في أنه كان يحدث منه الشيء فيقول أذكر أن رسول الله ﷺ ذكره لي . وكان يؤكد على هذه الناحية من التنبؤات ، ويمثل عليها ويقول : كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه .[1]

فالظاهر أن المرء قد يبلغه مواصفات رجل من الناس ، ومعالم وجهه ، دون أن يراه . فإذا رآه عَرَفَه . وكذلك التنبؤات قبل أن تتحقق . فنصوص التنبؤات لا تكشف عن واقع الأمر مالم تتخذ قالبًا من الحقيقة والواقع .[2]

الصبح . (راجع الأعلام للزركلي ٤٥/٥ ؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١١٩/٧ ط : دار الرشيد، حلب) .

(١) رواه مسلم في الفتن باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة [٢٨٩١] ٢١٧/٤ .

(٢) إن التنبؤات تنبؤات ، لاغيره . وقد جرّبت فِعلاً – أنه ليس من السهل اليسير إبداء أيّ رأي صائب في أمر من الأمور من خلال البلاغات قبل مشاهدته ومعاينته . وقد بلغني ذكر الصفا والمروة ، ثم علِّمتُ في كتب لا يدري عددها إلا الله تعالى أن من مناسك الحج : السعي بين الصفا والمروة . فكنت أظن أن هناك ميدانًا بين جبلين يسعى فيه الحاجّ ، ثم سعدت بالحج ، فطاف بي المطوّف بالكعبة ثم خرج بي إلى الصفا والمروة . فما أن خرجنا من المسجد الحرام حتى دخلنا سوقًا مسقّفَةً متصلةً بباب الحرم ، وعلى جنبيها دكاكين مكتظّة بجميع الحاجيات ، تتلألأ فيها مصابيح موادها البترول، وبجانب ذلك مطاعم يتناول فيها الناس ما يرغبون فيه من الأطعمة . فوصل المطوّف بي إلى سوق الحرم هذه ، وأخذ يمشي مشية المتفرّج في بعض الأسواق . مما أثار غضبي، فقلت له : أهذا وقت التفرج في الأسواق ؟ هلمّ بي إلى الصفا والمروة . فتبسّم المطوّف ضاحكاً من قولي هذا ، وقال : فأين أنت إذًا ؟ فقلت : أهذا هو الوادي بين الصفا

فتأمل أن القرآن الكريم كأنما أخبر بعلامة من علامات فتح يأجوج ومأجوج ، أن القرىٰ المهلكَة المدمّرة لن ترجع حتى يفتح يأجوج ومأجوج . وحاصله أن هذا الحاجز الذي فرضه الله تعالى على عودة القرى المهلكة سيرتفع عندما يتمّ فتح يأجوج ومأجوج. ثم إذا ما يزول هذا الحاجز ويرتفع ماذا عسى أن يحدث ؛ وهل يتاح لجميع القرىٰ المهلكة الرجوعُ أو لبعضها دون بعض ؟ هذا السؤال لايسعنا أن نستخرج عنه إجابةً من خلال النصّ القرآني فإن أقصىٰ ما يدل عليه إنما هو زوال الحرمة والحاجز الذي تمّ فرضه على عودتها ورجوعها . هذا ملخص الآية . وقد يتساءل البعض : ماذا يعني قوله تعالى : (أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُوْنَ) ؟ ثم إن لفظة «حرام» الواردة في هذه الآية ماذا تعني ؟ وماذا يعني «الهلاك» الذي يدل عليه قوله تعالى : (أَهْلَكْنَاهَا). كما أن أداة النفي التي تسبق الفعل (يرجعون) ما نوعها بهذه المناسبة في الأسلوب العربي؟

دونك كتب التفسير ، تجد أصحابها قد نصب كل واحد منهم خيامه على كل سؤال من هذه الأسئلة ليبديَ ما ترجح لديه من قول أو رأي.

فنجد الشوكاني[1]، يحكي عن أحد مشاهير المفسرين :

والمروة ؟ فقال : فماذا – إذًا – هو ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهكذا انقلبت الفكرة التي ربَّيتها أعوامًا وأعوامًا ظهرًا لبطنٍ. وبمثل هذه المناسبات يعودُ إلى ذاكرتي ما قاله الشاعر الأردي الملقب في شعره بـ «شاد» ما معناه :

«وجدت كل شيء على غير وجهه حين وصلت إلى زقاقك الذي أعيد لنا عنوانه كرّات وكرّات» .

[1] الشوكاني (١١٧٣–١٢٥٠هـ = ١٧٦٠–١٨٣٤م) : محمد بن علي بن محمد

النحاس[1] قوله : «هذه الآية مشكلة»[2].

وسبب الإشكال يرجع – إلى حدٍ كبيرٍ – إلى أن المفسرين لم يعثروا على حديث صحيح يُحَدِّد جانبًا منها فرجعوا إلى القرائن والظنون ليحددوا بها جانبًا من الجوانب . فحكوا عن أئمة اللغة والعربية أمثال : أبي عبيدة[3]، وأبي علي الفارسي[4] والزجاج[5] ما حكوا . وأما أنا فلا يسعني . ولا أرى من حاجة إلى أن استوعب هذا الكم الهائل من الأسئلة والردود عليها ، وأتناوله

الشوكاني : فقيه مجتهد ، ولي القضاء . له ١١٤ مؤلفًا منها : «نيل الأوخار» ، و«البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» ، و«فتح القدير» (في التفسير) . راجع: الأعلام للزركلي ٢٩٨/٦ .

[1] النحاس (٠٠٠–٣٣٨هـ = ٠٠٠–٩٥٠م) : أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري ، أبو جعفر النحّاس : مفسر وأديب ، مولده ووفاته بمصر ، كان من نظراء نفطوية ، وابن الأنباري. له : «تفسير القرآن» ، و«إعراب القرآن» ، و«ناسخ القرآن ومنسوخه» وغيرها . راجع الأعلام للزركلي ٢٠٨/١.

[2] راجع : فتح القدير تفسير سورة الأنبياء ٤٢٦/٣ ط: دارالفكر ، بيروت .

[3] أبو عبيد (١٥٧–٢٢٤هـ = ٧٧٤–٨٣٨م) القاسم بن سلام الهروي : من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. كان مؤدبًا ، ولي القضاء ثماني عشرة سنة . من كتبه: «الغريب المصنف» ، و«الأمثال» ، و«الأموال» . (راجع الاعلام للزركلي ١٧٦/٥) .

[4] أبو علي الفارسي (٢٨٨–٣٧٧هـ = ٩٠٠–٩٨٧م) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل ، أحد الأئمة في العربية ، تجوّل في كثير من البلدان ، كان متهمًا بالاعتزال . من كتبه : «التذكرة» ، «جواهر النحو» ، «المقصور والممدود» ، و«العوامل» . (راجع : الأعلام للزركلي ١٨٠/٢) .

[5] الزجاج (٢٤١–٣١١هـ = ٨٥٥–٩٢٣م) إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج : عالم بالنحو واللغة ، ولد ومات في بغداد ، كان في فتوته يخرط الزجاج ، ومال إلى النحو ، فعلمه المبرد . من كتبه : «معاني القرآن» ، «الأمالي»، و«فعلت وأفعلت» (راجع الأعلام للزركلي ٤٠/١) .

بالنقـد ، لأبـدي فيـه مـا أرىٰ ؛ فـإن مـا سـأراه بعـد هـذا العمـل المضني الطـويل الـذي لا يعـدو احتمـالاً مـن الاحتمـالات الأخرىٰ . ولا أجزم بمدى قيمة ووزن الجانب الذي يتبادر إليه ذهني . ولا أستبعد أن يصير رأي في هذه القضيّة ، وشعوري تجاهها إلى ما صار إليه شعوري ، وتصوّري الغريب الخاصّ بالصفا والمروة إذا ما يحصحص الحق مما سبق أن تعرضت له في بعض الهوامش .

من يأجوج ومأجوج ؟

وأيًّا كان فقد توصلت من خلال القرائن والظنون إلى أمرٍ ، أقدّمه لك . وأجدني في هذا الصدد – ولا أقل فيما أرىٰ – متفاعلاً مع الأسلوب القرآني العام ؛ فإنك إذا بدأت تقرأ القرآن الكريم تجده يوجّه خطابه إلى الجيل الحاضر من اليهود وينسب إليه ما قدّمته أسلافه من خير أو شرٍ . ويمنّ على بني إسرائيل – الذين شهدوا نزول القرآن الكريم – بكل ما تمتع به الأجيال التي مضىٰ عليها آلاف السنين من نِعَمِ الله تعالى ، وآلائه .

وهذه خصيصة من خصائص الأسلوب القرآني التي تغنينا أن نضرب عليها الأمثلة . فمن شاء فليفتح المصحف الشريف يجد هذا الأسلوب الخاص من الخطاب يمرّ به تترىٰ من الورقة الثالثة والرابعة دون أن يقف عند حدٍّ . وهذا الأسلوب المعين من الخطاب والتوجيه يتلخص في أن القرآن الكريم دأب على نسبة الأفعال والأعمال ، والصفات ، والأحوال بالنظر إلى الوحدة الاجتماعية ، لا إلى الشخصية الفردية .

هذه مقدمة أولى . والأمر الثاني الذي يفيده الآيات القرآنية في خصوص بني إسرائيل مثلاً حين يوجّه خطابه إليهم ، ويقول : (إن عُدْتُمْ عُدْنَا) ذكر الضابط الكلي للعودة والرجعة ، في شأن الأمة التي مرّت عليه حادثة تاريخية ، وهي أن قومًا أولي بأس شديد أهلكوهم ودمّروهم ثم مكّن الله اليهودَ من استرداد قوتهم . وأشار القرآن الكريم إلى آثاره ونتائجه قائلاً : (أَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيْرًا) .

ولا يخفى أن الجيل من أجيال بني إسرائيل الذي أهلكه أولو بأس شديد يختلف عن الجيل الذي سَعدِ باسترداد مجده الغابر ، وسطوته الماضية، وسلطانه القديم إلا أن القرآن الكريم نسب هذا الاسترداد إلى الجيل الذي نسب إليه الهلاك والدمار.

فإن استوحينا من هاتين المقدمتين الأساسيتين: أن ما يفيده الآية السالفة الخاصة بيأجوج ومأجوج من أنه يمتنع على القرىٰ المهلكة المدمّرة أن ترجع ، وتعود ، إلى أن يتمّ فتح يأجوج ومأجوج إن أخذنا منه أن القرىٰ التي أهلكت قبل فتح يأجوج ومأجوج لا يتاح لها أن ترفع رأسها ، وتحرز التقدم والرقيّ إلا بعد ما يفتح يأجوج ومأجوج ، فلا أرىٰ ذلك أمرًا يستغربه من أَلِفَ الأسلوب القرآني ، وبيانه وخطابه . فيلغِيه على أنه قول شاعر ، يمجّه الفعل ، ويأباه فحوى الخطاب .

بل نجد رؤيا يوحنا اللاهوتي – التي سبق ذكرها – قد تعرضت لتصفيد الشيطان ألف سنةٍ في أعقاب لقاء الصادق الأمين ﷺ ربّه ، وأنه عندما تتمّ الألف السنة هذه :

«وبعد ذلك لابد وأن يحلّ زمانًا يسيرًا .[١]

وتضيف هذه الرؤيا عدة أسطر فيما أتى بعده، نجد فيها اليوم النصّ على اسم «اليسوع» أو «المسيح» بينما تدل القرائن على أن كلمة «الصادق والمصدوق» أليق بها ، وأن هذه الكلمة قد تناولتها يد التحريف ، وإلا كيف يتأتّى ذكر «اليسوع» أو «المسيح» فجأةً في سياق ذكر «الصادق لأمين» .

ومهمًا يكن ، فما تلاه يتخلص – فيما أرىٰ – إلى أن من آمن بالصادق المصدوق ، وصدّق به «فعاشوا ، وملكوا مع «المسيح»[٢] ألف سنة.[٣]

وعندما نستبدل كلمة «المسيح» بكلمة «الصادق المصدوق» في هذا النصّ تُدرك أنه إشارة إلى الرسول ﷺ ؛ إنهم تولوا زمام الحكم السياسي في العالم ألف سنةٍ .

ثم تقول التوراة : «وأما بقية الأموات فلم تعِشْ حتى تتِمّ الألف السنة».[٤]

وهذا الشطر من الرؤيا يؤول إلى ما آل إليه آية سورة الأنبياء التي تعرضت ليأجوج ومأجوج . وسبق أن حكيت عن هذه الرؤيا

---

(١) رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح العشرون /٣ .

(٢) المسيح : أصله من السياحة . وهذا تأويل عاميّ . ويرىٰ أصحاب البحث والدراسة أن أصله كلمة عبرانية : «ما شيخ» وهي كلمة اصطلاحية تعني : عبدًا اختاره الله تعالى، واصطفاه . فكأنما دهِن رأسه بزيتٍ من رضا الربّ تعالى ، وصرّح الإمام الكشميري بأنّ «ماشيخ» حمِل – أحيانًا – على الرسول ﷺ نفسه . راجع : فيض الباري ٤/٢٧ .

(٣) رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح العشرون /٤ .

(٤) نفس المصدر الإصحاح العشرون /٢ .

ما يلي :

«ثم متى تمت ألف السنة ، يحل الشيطان من سجنه ، ويخرج ليضِل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض : يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب .[١]

وملخصه أن الأموات الذين لم يعيشوا مؤمنين برسول الله ﷺ في ألف السنة سينشرون عقب فتح يأجوج ومأجوج .

ولا يسعني الجزم بأني قد أديت ما فهمت وتوصلت إليه أم لا ؟ إلا أن قصدي بذلك أن ما يدل عليه رؤيا يوحنا هذه – بتحريف عادي يسير – هو الذي أعاده القرآن الكريم ذكره . وكلاهما يتلخص في أن فتح يأجوج ومأجوج يعقبه نشأةُ الأمم التي لم تلحق بالأمم الحية بإسلامها .

وهذه علامة من العلامات التي تعرفنا بيأجوج ومأجوج مما لا نعجز عن مشاهدته في منصّة العالم الحاضر فضلاً عن معرفتنا لها في صفحات التاريخ . فلنا أن نعرف الأمم التي ماتت ، واختفت في الحكم الإسلامي ، وما أن أدبر هذا الحكم إلاّ ونُفِخَ في قرىٰ هذه الأمم البائدة نفخة الحياة من جديدٍ ، فبرزت للعالم واحدةٌ تلو أخرىٰ .

وأعِدْ قراءة الآية التالية في ضوء ما قلناه : (وَحَرَامٌ عَلىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُوْنَ . حَتّى إذَا فُتِحَتْ يَأجُوْجُ وَمَأجُوْجُ ، وَهُمْ مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوْنَ) ، وتأمل في مدىٰ تائيد القرائن

---

(١) نفس المصدر /٧ .

والقياسات الأخرىٰ ، وأسلوب القرآن ، وخطابه الخاص لهذا الجانب الذي مالَ إليه هذا العبد الفقير . والله أعلم، وعلمه أتمّ ، وأحكم .

ولكن يجب عليّ أن أعترف – رغم جميع هذه المواصفات والعلامات – بأننا لا نستطيع أن نسمّي ونحدّد هذه الأمم التي ضمّها القرآن الكريم إلى حشد يأجوج ومأجوج . وعندما نربط هذه العلامات القرآنية السالفة بعضها ببعض ، وننظر إليها نظرةً واعيةً فأقصى ما يمكن أن نقول إننا قد نجحنا في إعداد «خاقية» ، والمطلوب منا أن نضعها على رؤوس الأمم والملل ، لنرىٰ : على أيّتها تنطبق، وتستقرّ . وإذا استمددنا في ذلك بشيء غير القرآن فلا يعدو ذلك حاشية من الحواشي ، وأما الأجزاء الأساسية الجوهرية فإن مصدرها القرآن الكريم لاغيرُ .

ادعاء المهدية والمسيحية

والحق أن الأيام الأخيرة شهدت نشلخات غير عادية تمثلت في محاولة البعض – شر محاولةٍ – استغلال قضية يأجوج ومأجوج . فنبشوا قصص يأجوج ومأجوج ، والمسيح الدجّال ، وأثاروا ضجّةً – دون سبب – قولوا : إن البحث عن المسيح ابن مريم قد حان موعده . وخلال هذه الضجة تظاهروا بزعمهم أن الذي يسميه المسلمون المهديَّ، وتسميه النصارى المسيحَ ابن مريم قد نزل فعلاً. فأقبلت فئة من الناس السُذَّج على هذا الزعم الغريب المنكر، وأخذت تتريث الأعمال التي تجعل المهدي مهديًا، والمسيح ابن مريم مسيحًا، إلا أن هؤلاء البائسين تمادوا في تريثهم ، وانتظارهم،

وذهب كل من زعم نفسه مهديًا أو مسيحًا لسبيله . وشهدت أيامهم ، والأيام التي تَلَتْ موتَهم ، ولاتزال تشهد أحداثًا تخالف أعمال المهدي والمسيح ابن مريم .

فأصبحت هذه الفئة الناظرة البائسة في حيرة من أمرها . كيف تؤول تلك المغالطة التي جرّت إليها ، وفرضت عليها . رغم أن الأحداث التي تذكرها الوثائق والمصادر الدينية على أنها من أشراط الساعة ليتَه لم يتغلغل في صدورهم أن هذه الأحداث تحدث في آنٍ واحدٍ ، في مرحلةٍ معينةٍ من الزمان ؛ فإن ذلك قضاء عاجل، وغير علمي . والحق ما أشار إليه شيخنا الإمام أنور الشاه الكشميري ، وما ورد في شرحه على صحيح البخاري المسمى بـ «فيض الباري» ، الذي أملاه على أصحابه ، حيث يقول : «ألا ترى أن النبي ﷺ من أشراط الساعة : قبضَه من وجه الأرض ، وفتح بيت المقدس ، وفتح القسطنطينية ، فهل تراها متصلةً وبينهما فاصلةٌ متفاصلة؟»[١]

وعلى كل فما قاموا به من إلهاب رغبة الناس في خلب المهدي ، والمسيح لمجرد فتح يأجوج ومأجوج أصدقك أن هذه الضجَّة وَأَدَتْ تحت غبارها العارم حقيقةً كبرىٰ هامةً ، وإلا فإن واقع أمر يأجوج ومأجوج لم يكن إلا كما قال الإمام الكشميري : «لهم خروج مرةً بعد مرةٍ ، وقد خرجوا قبل ذلك أيضًا ، وأفسدوا في الأرض بما يستعاذ منه ، نعم ! يكون لهم الخروج الموعود في

(١) فيض الباري شرح صحيح البخاري ٢٣/٤ .

آخر الزمان ، وذلك أشدُ .[1]

ومن ذا الذي يستطيع تحديدَ مدة خروجهم في انقضاء هذا العالم أي المدة التي يعيشون فيها فسادًا في الأرض ؟ إلا أن الروايات تقول : إن الله تعالى سيُعِدّ عدةً من لدنه في أعقاب خروجهم ليستأصلهم، وينقذ الأرض من فتنتهم ، ونكبتهم . وأنه سيبرز رجالٌ صفوةٌ لمواجهتم ومناهضتهم . وتتعرض الروايات عندنا لهذا الصراع الأليم ، وتجمع هذه الروايات بين الغثّ والسمين ، وتلقّاها عامة الناس بقبول أكبر ، واشتهرت فيهم ، وتنتقل إليها أذهانهم كلما سمعوا اسم يأجوج ومأجوج رغم أن المصادر تحكي عن عامة أئمة الجرح ، والبحث والدراسة قولهم : إنه قد اختلف في عدهم وصفاتهم ، ولم يصحّ في ذلك شيء.[2]

بيد أن عامة الناس شاعَتْ فيهم – استنادًا إلى هذه الروايات – أشياءُ منها : أن صنفًا منهم له خول فاحش مفرِط ؛ وصنف أربعة أذرع خول ، وأربعة أذرع عرض ؛ وصنف منهم لايتجاوز خوله شبرًا أو شبرين ؛ وصنف منهم يفترشون آذانهم ، ويلتحفون بالأخرىٰ .

وتذكر هذه الروايات كثرة عددهم ، وأنهم لا يخضعون لنظام أو قانون في الزواج والنكاح وكذلك في مأكلهم ، ومشربهم ، فلا يمرّون بفيل ولا وحش ، ولا جمل ، ولا خنزير إلا أكلوه.[3]

---

(1) نفس المصدر .

(2) نفس المصدر ٢٦/٤ نقلاً عن البحر .

(3) راجع : الدر المنثور للسيوخي ٤٥٢/٥ ط : دارالفكر، بيروت .

رواية يوثق بها

والغريب في الأمر أن أوساط العامة والخاصة قد تلقت أمثال هذه الروايات بالقبول ، وراجت فيها إلا أن ما نجد في أمثال هذه الروايات ، وخذ مثلاً – ما رواه البيهقي[1] في كتاب البعث ويرويه مصادر التفسير كذلك – عن ابن عمر[2] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «من ورائهم ثلاث أمم : تأويل ، وتاريس ،

وتتضمن كتب التفسير القديمة هذه الروايات . وقد حوى كتاب الدر المنثور للسيوخي قسطًا كبيرًا منها إلا أن مصادر هذه الروايات معظمها لا يتمتع بالثقة والاعتبار. ويفيد البحث والدراسة أنها في الغالب أقوال من أسلم من اليهود والنصارى . غير أن كثرة عددهم أمرٌ يقول فيه الإمام الكشميري: قد صَحّ في كثرة لمددهم أحاديث. راجع : فيض الباري له ٢٦/٤ .

وبهذه المناسبة يحضرني «رحلة الأمير نواب ظهير يار جنك» إلى أوربا ، وأمريكا ، يقول فيها : إنه قد مرّ في بعض البلاد – وهي هولندا (Holand) فيما أظن – لا على شخص أو شخصين ، وإنما على قرية بأسرها قد بلغ أهلها في القِصَر أيّ مبلغ ، فالقرية عبارة عن الأقزام قِصَار القامة بما فيهم الرجال والنساء ، والأخفال .

(1) البيهقي (٣٨٤–٤٥٨هـ = ٩٩٤–١٠٦٦م) أحمد بن الحسين بن علي ، أبوبكر: من أئمة الحديث ، ولد في خسرو جرد (من قرى بيهق ، بنيسابور) نشأ في بيهق ، ورحل إلى بلاد عدة ، من كتبه : «السنن الكبرى» ، و«الأسماء والصفات» ، و«دلائل النبوة» ، و«الترغيب والترهيب» ، «معرفة السنن والآثار» ، وغيرها . راجع (الأعلام للزركلي ١١٦/١)

(2) ابن عمر (١٠ ق هـ – ٧٣هـ = ٦١٣–٦٩٢م) عبد الله عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن : صحابي من أعزّ بيوتات قريش في الجاهلية . كان جريئًا جهيرًا ، نشأ في الإسلام . مولده ووفاته في مكة . آخر من توفي بمكة من الصحابة له في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثًا . راجع الإصابة ٣٤٧/٢ ؛ والأعلام للزركلي ١٠٨/٤ .

والحديث رواه الطيالسي في مسنده ص ٣٠١ من حديث عبد الله بن عمرو ، وكذا السيوخي في الدر المنثور (٤٥٢/٥) من حديثه .

ومنسك» .

وليس البيهقي وحده ، وإنما عزاه - كذلك - السيوطي[1] إلى الطبراني[2] وابن المنذر[3] وغيرهما من مصادر الحديث التي تصنف في الدرجة الرابعة من درجات كتب الحديث . وعلاوةً على ابن عمر، وقد روي عن عبد الله بن مسعود[4] كذلك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ذلك .[5]

فخذ ما رواه ابن عمر، وابن مسعود هذا إلى ما ذكره التوراة

---

[1] السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ = ١٤٤٥-١٥٠٥م) عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق السيوطي ، جلال الدين : إمام ، حافظ مؤرخ ، أديب ، كان منزويًا عن أصحابه جميعًا ، كأنه لايعرف أحدًا منهم . فألّف أكثر كتبه . كان الأغنياء والأمراء يزورونه ، ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردّها . من كتبه : «الأشباه والنظائر» . «الألفية» ، «الدرالمنثور» ، و«تفسير الجلالين»، «الحاوي للفتاوى» . راجع الأعلام للزركلي ٣/٣٠١ .

[2] الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ = ٨٧٣-٩٧١م) سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم. من كبار المحدثين . رحل إلى بلاد عدة . له ثلاثة «معاجم» . وله كتب في «التفسير»، و«الأوائل» ، و«دلائل النبوة» . (راجع الأعلام للزركلي ٣/١٢١) .

[3] ابن المنذر(٢٤٢-٣١٩هـ = ٨٥٦-٩٢١م) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، أبوبكر: فقيه مجتهد ، من الحفاظ . كان شيخ الحرم بمكة . من كتبه : «المبسوط» ، و«الأوسط في السنن والإجماع والإختلاف» ، و«اختلاف العلماء» ، و«تفسير القرآن» . توفي بمكة . (راجع الأعلام للزركلي ٥/٢٩٤) .

[4] عبد الله بن مسعود (٠٠٠-٣٢هـ = ٠٠٠-٦٥٣م) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، أبو عبد الرحمن : صحابي ، من أكابرهم فضلاً ، وعقلاً ، وقربًا من رسول الله ﷺ، وهو من أهل مكة ، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم رسول الله ﷺ ، وصاحب سِرّه ، ورفيقه في حله وترحاله ، وغزواته . له ٨٤٨ حديثًا . (راجع : الإصابة ٢/٣٦٨؛ والأعلام للزركلي ٤/١٣٧) .

[5] الدر المنثور ٥/٤٥٢ .

من الوثيقة التي عَزْتها إلى أحد صالحي بني إسرائيل يمسى بـ «حزقيل» . وقد أدرجت هذه الوثيقة ضمن ما يسمى با «لعهد القديم» . وهذه الوثيقة التاريخية تعود إلى ما لايقل عن ألفين ، وخمس مائة عام .[1]

وعلى كل قد عزا هذا الكتاب إلى النبي حزقيل هذا أو قريبًا، فقال :

«وكان إلي كلام الرب» .

وذكر كثيرًا من الأحداث التي تقع في المستقبل، ومنها :

«وكان إلي كلام الرب قائلاً : يا ابن آدم ! اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك ، وتربال ، وتنبأ عليه ، وقل : هكذا قال السيد الرب ، يأجوج رئيس روش ماشك وتربال .[2]

ثم قال في الإصحاح التاسع والثلاثون :

«يا ابن آدم ! تنبأ على جوج، وقل : هكذا قال السيد الرب: ها أنذا عليك يأجوج رئيس روشك ماشك وتوبال.[3]

كأن الروس من ذرية يأجوج ، وأهل

بريطانيا من ذرية مأجوج :

---

[1] ويقال : أن حزقيل عليه السلام شهد أسر «بخت نصر» لبني إسرائيل ، وحمله إياهم معه . إذاً حزقيل سبق عيسى عليه السلام بخمس مائة عام . فهذا التنبؤ لا يقل عمره عن ألفين ، وخمس مائة سنة .

[2] سفر حزقيال الإصحاح الثامن والثلاثون ١-٤ .

[3] نفس المصدر .

هذا ، وقُمْ بدراسة ما عنونه عامة كتب مبادئ الجغرافيا بـ «أسيا الروسية» ، وما تذكره من التفاصيل ، تجد أن روسيا تضمّ قطعة من الأرض – أربعة أضعاف الهند – تسمى بـ «سيبيريا» (Siberia) وتضمّ هذه المنطقة كلاً من «أستبيز» ، و«توندار»، تلك الأقطاع الشاسعة بالإضافة إلى توبولسك[1] و «منسك» من المون، و «ولادي»، و«إستوك»، و«كوتسِك» وغيرها من القرى .

فقل لي – دون أن يعزب عن بالك هذه التفاصيل – من ذا الذي يأخذه العجب مما ادّعاه شيخنا الإمام الكشميري قائلاً : وأما الروس فهم من ذرية يأجوج .[2]

بالإضافة إلى ما يقوله أحيانًا : إن يأجوج ومأجوج لا يبعد أن يكونوا أهل روسيا وبريطانيا.[3]

وبما أن الشطر الثاني – أي أن يكون أهل بريطانيا من ذرية يأجوج ومأجوج – قضية تاريخية، وأنا أكّدت – منذ البداية – على أني لا أتناول في مقالتي هذه – ما استطعت – قضية لاتحمل إلا أهميّةً تاريخيةً ، وهذه تخصّ الأخباريين فلهم أن يبحثوا فيها في ضوء دراساتهم وعلومهم إذا ما شاؤوا.[4]

(١) توبولسك (Tobolsk) إحدى الولايات السيبيرية ، وعاصمتها توبولسك على نهر إيرتشك . وسكان العاصمة ٣٢ ألف نسمةً . كانت قديمًا بلدة تجارية، وعاصمة لسيبيريا الغربية . (راجع النخب الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية لـ إسماعيل علي ص ٤٧٩ ط: مطبعة إندريا كوستا جليولا ، مصر عام ١٩٠٣م) .

(٢) فيض الباري ٤/٢٣ .

(٣) فيض الباري ٤/٢٥ .

(٤) إن الإلمام بأنساب الأمم الأوربية ، وقبائلها ذات أسماء لاتحصى ولا تعدّ بالإضافة

والحق – كما أسلفت – في شأن المسيح الدجال أننا نحتاج – حقًا – إلى تلمس الصفات الدجالية التي حوّلت الدجال دجالاً ، لا إلى البحث عن ذاته وشخصه . وكذلك البحث عن الأمم التي عسى أن نعدّها يأجوج ومأجوج لا يحمل أهمية أكثر من أنها قضية تاريخية لا طائل تحتها ، وإنما يجب علينا كذلك في خصوصهم أن نركّز جهودنا على الصفات التي جعلت الملل والأديان تصِرّ على التحذير من يأجوج ، ومأجوج ، دون البحث عن ذواتهم .

* * *

إلى أشياء أخرى منها : أن إنكلترا تتضمن جيلاً يمسى بـ جبل «غاغ ميغاغ» أو أنها تشهد احتفالاً يسمى «احتفال غاغ ميغاغ» منذ عهد من التاريخ مجهول أو نصب تماثيل يأجوج ومأجوج ذات العيون الزرقاء على جنبي أبواب البناية التي تدعى «قاعة غلد» في لندن ، وربما تتخذ بلدية «لندن» هذه البناية مقرًا لها ، إلامَ يشير ذلك ؟ إن لعلماء التاريخ أن يتخذوا هذه ، وعشرات غيرها من القضايا الممتعة موضوع دراستهم وبحثهم، ليتوصلوا إلى شيء . وأما أنا فيُغْنِيْني هذه الإشارات العديدة فيما يخصّ هذه المقالة .

اليأجوجية و المأجوجية

ودونك سورة الكهف بهذا المنظار تجده قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّوْرِ ، فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) ثم تابع قراءة الآيات التي تنتهي بها سورة الكهف . وإليك هذه الآيات ، وما توصلت منها إليه ، مرتبةً:

فالآية الأولى : (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِيْنَ عَرْضًا) .

نفور من الله تعالى نفسه

ثم ذكر القرآن الكريم صفات الكافرين هؤلاء قائلاً : (اَلَّذِيْنَ كَانَتْ أَعْيُنُهمْ فِيْ غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِيْ وَكَانُوْا لاَيَسْتَطِيْعُوْنَ سَمْعًا) .

ولا يخفى أن الجزء الأول - وهو عرض جهنم - لايمكن إدراكه قبل ذلك اليوم ، ولايدركه إلا من يعرض عليه جهنم عرضًا . وأما الجزء الثاني فلا يُحوجُنَا إلى أن ننظر قيام الساعة ؛ فإنه يحدث في هذه الدنيا . فتفقّد الأمم التي تحمل هذه الصفات والخصائص ، ولا يسعنا أن ندّعي أن المشركين عبدة الأصنام أو غيرهم من الأمم ، التي تنتمي إلى الملل والأديان الأخرى - سواء نفعها هذا الانتماء أم لم ينفع - قد اعتزلوا ذكر الله تعالى ، وتحاشوا عنه كل التحاشي ؛ فإننا لانجد أمة من الأمم تجنبت ذكر خالق الكون ، ولو بجانب الآلهة الأخرى .

ثم الشطر الآخر من هذا النبأ ، وهو قوله : (لاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ

سَمْعًا) أي سمع ذكري انظر من ذا الذي لايستطيع سمع ذكر الله تعالى ؟ تأمّل في كتاباتهم ، وخطاباتهم تجدها عامرةً بذكر كل شيء ، وإن خلت فإنما تخلو عن ذكر خالقهم خالق الكون . ومن ذا الذي بلغ به الاشمئزاز والكراهية إلى الاستهزاء والسخرية ؟ وهل مما يحتاج إلى بحث ودراسة ؟!

وما قاله الشاعر الأردي الناقد «أكبر» مامعناه:

«لقد تردّد أصحابي إلى مركز الشرطة ليبلّغوه أن «أكبر» يفتأ يذكر الله في عصرنا هذا»

لا يزال مشتهرًا على ألسنة العامة ، وهل هذا مجرد صدفةٍ أو أن لباقته وفكاهته تكنّ في خيات شعره حقيقةً .

ونعم ما قال الشاعر الفارسي مامعناه :

«وكيف نردّ على هذا الكلام ، ولايخفى عنّا أيضًا» .

التعويل على العباد ، دون الله تعالى

ثم قال تعالى : (أَفَحَسِبَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا أَنْ يَّتَّخِذُوْا عِبَادِيْ مِنْ دُوْنِي أَوْلِيَاءَ ؛ إنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِيْنَ نُزُلاً) .

ولك أن تستوحي من هذه الآية - إذا ما أمعنت النظر فيها - نوعًا معينًا من الإشارة إلى ما يميل إليه الطبيعة الإنسانية عندما تستنكف عن ذكر الله تعالى كل الاستنكاف ، ولا أقل فيما يشعر به هذا العبد الفقير . وإن أقرب وجه إلى التخلص أو الفرار من المسؤوليات الدستورية التي فرضها الله تعالى في فترة البلاء العابرة الحاضرة من الحياة : أن يقطع المرء كل صلته بالخالق ، ويفعل ما شاء له الهوى قائلاً : «مالله بيني وبينك» .

وإن الحياة الإلحادية تكنّ – عادةً – مثل هذه الشطارة ، والوقاحة عن وعي أو غير وعيٍ . وهذا جانب من جوانب الحياة الإلحادية اللادينية . وبجانب ذلك نرى الإنسان الذي هو كله حاجة ، وكلّه فقر بالنسبة إلى أوضاعه الخاصة ، وإن شئت قلت : إنه كله استجداء ، وتسوّل ، وتكفف ، لاغير ، إنه لا يستطيع أن يقضي لحةً من حياته دون مساعدة من خارجه ، وإن حاجته إلى غيره في مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، وحتى في تنفسه خاصة من خواصّ حياته مما لاسبيل إلى تجاهله ، وغضّ البصر عنه ، إنه يمرض، وإن منلخقه التي يسكنها كثيرًا ما تتعرض للأوبئة المروّعة، وقحوط المطر والسنة ؛ تشتعل فيها نيران الحرب ، يسودها الفوضى والاضطراب . فماذا عسى أن نقوم به لمواجهة هذه ، وأمثالها من الأحداث والمواقف .

فذلك سؤال شرّد «ذهن» ابن آدم ، وأقضّ مضجعه منذ عهد من التأريخ مجهول . إن الإنابة إلى الخالق ، وصياغة الحياة وفق ما تُملِيه ولايتُه ، ذاك حلّ لهذه المشكلة يبدو سهلاً ميسورًا ؛ إلا أن الذي خلق الإنسان ، إذا كان خلقه لتحقيق هدف من الأهداف ، فمن الطبيعي أن يعود على عاتقه – في هذه السبيل – مسؤوليات ، وواجبات . فما نادى به القرآن الكريم : (وَإِذَا سأَلَكَ عِبَادِيْ عَنّيْ فَإِنّيْ قَرِيْبٌ، أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) وأتبعه قولَه : (فَلْيَسْتَجِيْبُوْا لِيْ وَلْيُؤْمِنُوْا بِيْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُوْنَ) يرشد إلى القيام بهذا الجانب الآخر، أي إنكم إذا كنتم ترغبون أن تنالوا منّي شيئًا فأتوا الذي أريده منكم (لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُوْنَ) أي إن هذه هي السبيل الطبيعية إلى الرشاد، والهدى.

وأما الذين يريدون أن ينالوا كل شيء، دون أن يتحملوا شيئًا من المسؤوليات والواجبات تجاه خالقهم فإن صنفًا منهم من افترض، واختلق عددًا من الآلهة – أي الأصنام والأوثان من خلق الله تعالى – بينهم وبين الله تعالى ، والحق أنهم – وَعُوْا أم لم يعوا – قد شقّوا بهذه الحيلة في زعمهم – نعم مجرد زعمهم – خريقًا لعملهم مما يزعمون أو يتوهمون أنه يحقق أهدافهم ويُشبع رغباتهم دون أن تقع على عواتقهم مسؤولية من المسؤوليات ، ويظنون أن هذه الوسائط والآلهة التي اتخذوها من دون الله تعالى سوف ترضى بما يقدمون لها من قرابين ، وبالتالي تضمن لهم تحقيق حاجاتهم وأغراضهم ، دون أن تطالبهم بالتقيد بشيء دستوري وقانوني .

فهؤلاء يتوخّون أن تتحقق أهدافهم ، وتقضىٰ حاجاتهم دون أن يتحملوا مسؤولية دستورية ، وإنهم يرون تقديم الغالي والثمين من القرابين إلى هذه الآلهة أهون من أن يفرضوا على أنفسهم ، وعلى أهوائهم التزاماتٍ وتبعاتٍ . ومن المشاهد أن المشركين لايشعرون بشيء من التبعة والمسؤولية الخلقية أو الدستورية التي تفرضها عليهم آلهتهم من دون الله تعالى ، وإن أنفقوا – على عبادة هذه الآلهة ما أنفقوا من الأموال . فكَأَنّ هذا الصنف توصَّلَ في وأد الشعور بالمسؤولية – التي فرضها الله تعالى – إلى ما يُغنيه عن القيام، والمسؤول بين يدي الله تعالى . فلا على هؤلاء إلا أن يتقدموا إلى آلهتهم التي خرقوها من دون الله زعمًا منهم أن هذه الآلهة قد رضي الله عنها ؛ فلا تعجز أن تطلب من الله تحقيق أهدافهم وحاجاتهم .

وبإزاء ذلك سبيل أخرىٰ ، هي أنهم يفرون من الله تعالى حفاظًا على حريتهم واستبدادهم ؛ فلايريدون أن يذكروا الله ، ولوناسِينَ ، ولا هو يحضرهم . وأما فيما يخصّ حاجات الحياة ، ومتطلباتها فقد استبدلوا فئة من الاختصاصيين الفنيين (Technical Experts) بالآلهة الغائبة التي اختلقها المشركون ، وبالمتقربين إلى الله زلفىٰ في زعمهم ، فيُعْنَون بتعليمهم وتربيتهم ، وينفقون عليها أكثر مما يُعنى المشركون بآلهتهم ، وينفقونه إرضاءً لها ، ثم يرجعون إلى هؤلاء الاختصاصيين في كل ما يهمّهم ، وتنقضي حياتهم كلها في توليهم، ويضيق عليهم العيش ؛ بل يفوق تصورهم أن يعيشوا في مكان يتوجسون فيه خيفة تلاشي أوليائهم هولاء. وبجانب هؤلاء الاختصاصيين الفنيين، فئة من القادة والزعماء يعوّل عليهم في الحاجات الاجتماعية عادةً .

وخلاصة القول أنه قد اتَّبعَ هاتين الطريقتين أو إحداهما من اتّبَعَ تخلصًا من المسؤوليات التي فرضها الله تعالى ، دون أن يعرقل شيء في سبيل تحقيق حاجاتهم وأغراضهم . ويصف القرآن الكريم – عادةً – موقف المشركين هذا بـ (اتّخذُوْا مِنْ دُوْنِ اللهِ آلِهَةً) .

فالقرآن الكريم عادةً يسمي الذين يعوّل عليهم المشركون في قضاء حاجاتهم ، وتحقيق مآربهم ، ويرجعون إليهم بـ«الآلهة» . وعلى العكس من ذلك نجده في الآية السالفة من سورة الكهف : (عِبَادِيْ مِنْ دَوْنِي أوْلِيَاءَ) . كما نرىٰ القرآن الكريم يصف عامة آلهة المشركين بـ (إنْ هِيَ إلاَّ أسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا) وهذه الأسماء لا تمّت إلى مسمياتها بسبب بمعنى أن ما يعبّر عنه هذه الأسماء

لايحمل الوجود . وإن عامة آلهة المشركين لا تعدو أسماءً سمّوها . وربما لاتمتّ هذه الآلهة بسبب إلى ما ينسبها المشركون إليه من الكمال والتصرف . فكأنما سمّي الحجرُ ماءً، ثم يأمّل بهذه التسمية أنه يمكن اعتياض الحجر عن هذا الماء .

ولايخفى أن هذا الاسم الموضوع المختلق عبارة عن اسم فَقَدَ مسمّاه . وإن النص القرآني الانتقادي (إنْ هِيَ إلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوْهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) لينطبق تمامًا على آلهة المشركين بشكل أو آخر .

وبإزاء ذلك فئة من الأولياء التي اتّخذها الفارّون المتخلصون من المسؤوليات الدستورية التي فرَضها ، وسمّوها بالاختصاصيين (Experts) والقادة (Leaders) لايخفى أنها تختلف عن آلهة المشركين في هذا الخصوص . أي أن فئة الاختصاصيين والقادة – في الواقع – من عباد الله تعالى وخلق من خلقه ، كما أن الذين يعوّلون عليهم خلق من خلق الله وعباده . وإنهم ليسوا مثل آلهة المشركين في الانعزال عن الحاجات التي يتمّ التعويل عليهم فيها . وإنما يُعلَّم هؤلاء الاختصاصيين خرق التعرف على السنن الإلٰهية، ثم التوصل من خلال هذه المعرفة إلى النتائج العملية، وسواء ضمنوا تحقيق الحاجات المنشود تحقيقها أم لم يضمنوا ، إلا أننا لا يسعنا أن نعتبرهم بمعزل عن هذه الحاجات مثل الآلهة التي يتخذها المشركون .

وعلى كل أرىٰ أن ماورد في هذه الآية من قوله تعالى : (أنْ يَتَّخِذُوْا عِبَادِيْ مِنْ دُوْنِيْ أوْلِيَاءَ) بدلاً من «آلهة من دوني» يشير ظاهره إلى نوع آخر من الحيلة التي تسوّغ لهم – فيما أرى – التحرر والتخلص من المسؤوليات الدستورية التي فرضها الله تعالى؛

فيتّخـذ مـن يتّخـذ الاختـصاصيين والقـادةَ أوليـاء بـدلاً مـن الآلهـة الوهمية المنحوتة المزعومة ، وهكذا تمّ له شقّ خريق إلى عيش الحياة بعيدًا منقطع الصلة عن ربهم وخالقهم جلّ مجده كـل الانقطـا ع. وعليه نَبّهَ القرآن الكريم قائلاً : (إِنَّا اَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِيْنَ نُزُلاً).

أي إن الفـترة العـابرة الحاضـرة مـن الحيـاة الـتي لابـد وأن تنقـضي، وإن كـل إلا وسـيمرّ عليـه هـذه الفـترة مـن حياتـه . وإن الذين سبقوا من المشركين الذين أوجدوا حيلة تخلصهم وتحررهم من المسؤوليات التي فرضها الله تعالى لم يعجزوا أن يقضوا مـا قـدِّر لهم من ساعات حياتهم في رغدٍ أو ضنكٍ من العيش . وإن هـذه الـصورة الجديـدة مـن قـضاء الحيـاة ممـا تزعمونـه خريقـةً علميـةً (Scienctific) لابدّ أن تنقـضي . غير أنكـم أو أولئكم هيهـات أن تُفْلِتُوْا من المصير الذي قدّره الله سبحانه وتعالى. وهيهات أن تُلْغوا الهدف الذي مـن أجلـه خَلَقكـم خـالقُكم ثـم لا تـذقوا مـا كـسبت أيديكم ؛ فإنه سيتمثل لهـم القالـب والوضـع الأليـم الـذي اصْطُلِحَ على تسميتـه جهنَّمَ ، يـوم يأتي يوم الدين ، والعاقبة .

فاستخدام القـرآن الكـريم كلمـات غـير الـتي نـراه دأب علـى استخدامه مما ينتقـد المشركين وأعمـالهم لايخلـو - فيمـا أرىٰ - مـن سبب . وأقول للناس : إنهم لوتأمّلوا في قيمة خصائص الأسـلوب القرآني لدلّهم التجـارب على أن هـذا التغير والتحـول يكـنّ نكتـةً معينةً هامةً . ولاشك أنـي قـد اضـطررت إلى إخالـة نَفَـسي، ولكـن هل من بد من ذلك ؟ فإن الإشـارات المـوجزة ربمـا تغـني فيمـا إذا كان الأمر مما تم توجيهه ودراسته سـابقًا . ولكـن اضـطُرّ إلى لفـتِ

الانتباه إلى جوانب جديدة بغتةً .

السعي في الحياة الدنيا ، والتفاخر بها

ويتلوها آية ثالثة أشد استدعاءً للعناية، من هذه الآيـات كلها، وأوضح منها معنىً، ولا أقل فيما أحسب وأرىٰ، وهي قوله تعالى: (قُـلْ هَـلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَـرِيْنَ أَعْمَـالاً ، اَلَّـذِيْنَ ضَـلَّ سَعْيُهُمْ فِـي الْحَيٰـوةِ الدُّنْيَا ، وَهُـمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُـمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعًا).

فقوله : (ضَلّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيٰـوةِ الدُّنْيَا) هذا الشطر من الآية أَلْفَتُ للنظر والانتباه ، أرأيـت مـن صَـرَفَ كـل رصيد مـن خاقاتـه وقواه عـن الحيـاة الآخـرة الأبديـة صرفًا نهائيًا ، وأضلّها في الحيـاة الدنيا، وأصرّ على ذلـك إصرارًا . وإنـه لايدّخر أحـدٌ جهـدًا ، ثـم يخلّف وراءه كل كسبه ، ويصير إلى الدار الآخرة ؛ فلا ينال نيلاً ، إلا يتركه وراءه ، دون أن يستَصْحبه . وهكذا تفقد كلُّ نفس كل قواه ونتائجها في رائعــة النهار، وعلى مرأى ومسمع من الجميـع ، ثم نراه قد ارتاح ورَضِيَ بضلال سعيه هذا .

وقد بلغ تبجحهم على اعتبار ذلك حياة ناجحةً موفقةً إلى أن أصبحوا يلقون على عامة الناس ظلالَ حياتهم الغريبة الفاشلة الخائبة هذه ، ويكسبون قلوبهم إلى حدّما . وإن الإيمان بالآخرة وتأثيره قد تلاشىٰ في الأذهان أو كاد ؛ وهـم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا . ومن ذا الذي لم يُصمَّه تبجح هذه المدنيّة الملحدة (Godless) .

وأصدقك أن روح اليأجوجية والمأجوجية يكنّها هذا الـنصُّ ، وهي مرأة لا تخطئ عين في معرفتها ، إذا مـا نظـرت فيهـا ، ولكـن الناس حاولوا التعـرف علـى يـأجوج ومـأجوج بـالآذان العريـضة ،

والقامات القصار ذوات الأشبار . وأدرك ذوالمعرفة والعلم ضوضاء التمسح – أى التكلف والمعاناة ليكون مسيحًا – والتمهّد – أى التكلف ليكون مهديًا – غير المرضية ، وفي غير أوَانِها . والتي أثارها عواصف هذه المدنية الملحدة ، والثقافة المعادية للإنسانية . بل إن «التمسح» ، و«التمهّد» لَيْسَا إلانتَاجَ دسائس هذه المدنية والثقافة ، و«غراس يدها».[1] وقد اعترف بذلك من ادّعاه . بينما فضَّل أصحاب الحق جانب الحيطة والحذر ، فكتموا الحق ، وستروه خشية أن يراد البلخل بكلمة الحق ممّا أدّى بأمة – يجب عليها أن تنادى بالحق ، تشهد به في ضوء البينات القرآنية قبل كل أمة على الأقل – لا إلى أنها لاَذَتْ بالصمت ، وإنما ساهمت في أمية هذا التبجّح ، وصفقت له ، وخربت عليه واعتبرت الليل نهارًا . فَشهِدَ بطلوع القمر ، وبنات النعش في رائعة النهار فيمن شهد : أناسٌ قرأوا القرآن ، وآمنوا به ، ونعم ما قال الشاعر الفارسي ما معناه :

إن العقل ليتحرق حيرةً ما هذا العجب العُجابُ !.

الكفر بآيات الله ولقائه

وإنهم يضيعون كل ما يكسبونه ، والواقع ماثل أمامهم جميعًا بخصائصه ، وميزاته الصارخة . ثم يكاد الإنسان يطمئن إلى هذه الحياة الفاشلة الخائبة العقيمة العابثة كلّ العبث . وإن قبضة هذه العقلية الغريبة لاتزال توسع حلقتها يومًا فيومًا . وليس البشر حيوانًا فيعيش غافلاً عن مصيره وعاقبته . إذاً لماذا يشتدّ تأثير هذه

[1] وقد عرّف الميرزا غلام أحمد القادياني نفسه على الملكة «فكتوريا» الراحلة في رسالته المنشورة بـ «غراس يدها» .

العقلية ، وضغطتها رغم هذا العقل والتمييز ؟ أرىٰ أننا لانعجز أن نستوحي الردّ على هذا السؤال من خلال الآية التالية : (أُوْلَـٰئِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِه) .

ولكي تَكتَنِهَ هذه القضية التي لَفَتَ النصُ السالفُ الأنظارَ إليها دونَك هذا المثال :

رجلٌ يدّعي أنه بطل مصارع ، وقدّم لك نفسه مزوَّدةً بجميع عُدَدِ الصُرعة : دَلَكَ جسده بالتراب الأحمر، ولبس لباسه ، ونزل في الميدان ، يُرِيْكَ وهو يصرَع خصمه ، ويَهزِمُه .

بإزاء ذلك رجل آخر يزعم أنه بطل مصارع لبس لباس خلعاء «لكناؤ»[1] ولا يبدو عليه سيما البطل المصارع ثم ينسب إلى نفسه تلك المواهب التي تخصّ المصارع . فقل لي : أيهما تراه أجدر بأن تجعله مجرَّبًا معلومًا ؟!

ومن خلال هذا المثال تأمّل في الكون : شجره وحجره ، ونباته وجماده ، وحيوانه وإنسانه ، وقمره وشمسه ونجومه وما إلى ذلك من خلق الله المتنوّع الذي تجلّى فيه خالق الكون بخلقه ، ولاَحَ لنا. هذا مظهر من مظاهر الحق . وبإزاء ذلك تميل النفوس إلى أن يتجلى الله تعالى دون هذا الكون وقدرته عليه . أليس يربط بين هذين المظهرين ما يربط بين المصارعين اللذين تمثّل لنا

[1] لكناؤ (Lucknow) : مدينة في شمال الهند على نهر الغانج ، عاصمة ولاية أترابراديش تأسست في القرن السادس عشر على أنقاض مدينة «لاكهبور» . كانت عاصمة مملكة أودهـ الشيعية . امتازت بصفاء حضارتها الإسلامية ، احتلّها الإنجليز ١٨٥٧. مركز تجاري وصناعي : حبوب ، وسكر، ونسيج . متحف شهير للعصور القديمة ١٨٦٣ . (راجع : المنجد ص ٦١٣)

أحدهما بجميع آثار المصارعة وعلاماتها ، بينما يدّعى ثانيهما قدرات المصارع لنفسه . ويقدم شخصه وذاته دون هذه القدرات، ويطلب منا اعتباره بطلاً مصارعًا .؟!

فما أغرب أن يبرز لنا الله سبحانه وتعالى ، ويتجلى في مواهبه المتمثلة في خلقه ، ويريد أن نتعرف عليه ، ونؤمن به من خلال هذه المواهب والقدرات التي سمّاها القرآن الكريم بـ«آيات الله». ثم يعلّل البعض عدم إيمانه به بأنه لم يتجلَّ لنا مجردًا عن قدراته ومواهبه . فقل لي : هل هذا غير حجة شيطانية ؟ إن المصارع الذي يتمثل لَكَ في قدرات المصارعة ، فأبيت قبوله مصارعًا بحجة أنك لاترى مصارعًا إلا من برز لك صِفرًا من جميع علامات المصارع وآثاره . فاعلم – علم اليقين – أنك إذا تَلَمّست العقلية الإلحادية العامة فلن تجد غير جرثومة هذه المطالبة الصبيانية غير المنطقية . وعليه نَبّهَ القرآن الكريم قائلاً : (أولـٰئِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ) .

أي أنه قد قرّروا ألاّ يتوصلوا – من خلال آيات فضل الله وكماله هذه – إلى الله تعالى ولا يؤمنوا به ، ولا يَدَعُوْا غيرهم ليتوصل إليه ويؤمن به، وبالتالي جزموا بأن فكرة لقاء خالق الكون، والوقوف بين يديه في الحياة الآخرة خيالٌ محضٌ. وهذا ما يعتقدونه ويودّون أن تتعدى هذه العقلية البلخلة إلى سواهم ، وينشطون في نشر هذه النزعة وبسط نفوذها .

والحاصل أنهم اختلقوا هذه الفلسفة غير المنطقية بقوةٍ ، تخلصًا من المسؤوليات التي تفرضها السنة الإلهية . وقلّلوا من تأثير الإله

وعقيدته في حياتهم ، ونشلخاتها كلّها . كما يودّون أن يقللوا من هذا التأثير في غيرهم ما وسعهم ذلك حتى إنهم لايأتون من الأعمال التي تُرضى الله تعالى إلا انطلاقًا من أنهم لايبتغون بها وجه الله . فلا يخطون خطوةً في مرضات الله ولاهم يرغبون في ذلك.[1]

ولا يخفىٰ أنه إذاكان الله تعالى لا يقيم لهم ولا لأعمالهم وزنًا فما ذا عسى أن يترتب على مثل هذه الحياة الملحدة، ونشلخاتها من نتيجة منطقية غير ذلك.

إنك لو أنفقت عشرات الملايين ، وضحيت بما ملكت يمينك ، أو لم تنفق إلا نفقةً صغيرةً فإنما الملحوظ في الحالين : لِمَ أنفقتَ ما أنفقتَ ؟ فإن أنفقت – ولو نفقةً صغيرةً – تبتغي بها وجه الله فَارْجُ من الله أجرها وثوابها . وأما لو أنفقت عشرات الملايين لا تبتغي بها وجه الله فقل لي: ما الذي يجعلك تستحق أو يمكن أن تستحق ثوابًا من الله تعالى ؟ فإذا ما تمثلت لك نتيجتها الطبيعية المتمثلة في : (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) فما ذا عسى أن تحدث نفسك بغير ذلك ؟ وهذا ما دلّ عليه النص القرآني .

فالحق أن العمل لايحمل قيمةً بذاته ، وإنما يقام له الوزن نظرًا

[1] حين كانت هذه هي عقلية من أعجِبَ بهم ، وسبق أحد حكينا عن أحدهم قوله : «إنما نقرّ عينًا ، ونثلج فؤادًا ذلك اليوم الذي تعمل فيه أمتنا لأمتنا ، لا تبغي به وجه الله، ولا تريد لها جزاءً ولاشكورًا ، وتقول بملء فمها : إنها لا تريد أن تشتري بيدها ورجلها ونفسها وسعيها ومالِها وجهَ الله ، ولا جنته. (تهذيب الأخلاق ٥٢١/٢) .

وأسلفنا أن هذا ما قاله أحد المسلمين الهنود ، وهو السر سيد أحمد خان ، المنتمي إلى العائلة النبوية وهل يسع أحدًا يقول : إنه قال ما قال لا يبغي به وجه الله . وإنه قد لقي ربه ، ولقي مصيره . فلكل امرئٍ ما نوىٰ . وغفر الله له .

إلى : فِيمَ عمله ؟ ومن المعروف أن من لَطَمَ اليتيم لطمةً تؤد به ، أجِرَ عليها وعُدّ ناصحًا له ومخلصًا . وأما من سقىٰ اليتيم ، ولَخعمه وألبَسَه ليُفسِده فإنه يعدّ جريمةً شنعاءَ . فقوله : (فَلاَ نُقِيْمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) عقب قوله : (فَحَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ) يعني – فيما يعني – أن حياةً لم تستهدف وجه الله تعالى ، تعود عديمة القيمة ، فاقدة الوزن. وَتَوَصَّلْ إلى حقيقة الوزن وفق الدراسات الحاضرة إن شئت. ولِمَ يخفّ أو يزداد الأشياء وزنًا في الدنيا؟ ثم انظر هل تبقى أو يمكن أن تبقىٰ أوزان الأشياء – مهما بلغ ثقلها – عندما يخرج عن نطاق وجوده المركزي؟[1]

وتابِع قراءتك ، وقبل أن نقدم لك الآية ، دونك ما يلي :

إن من غابَ أو أقصِيَ عن أنظاره فكرة استخدام فضله وكماله – مما نشاهده مسجلاً في الصحيفة الإلهية – كآية على ذاته سبحانه وتعالى ، إنه – كما لا يخفى – لا يرغب في البحث عن تلك الذات المتصفة بالسمات القدسية ، كما لا يبقى فيه الحرقة على إدراك مرضاته . وأصدقك أن هذا الاضطراب كله يحمل في خياته تلك الفكرة الآياتية التي عبّر عنها الشاعر الفارسي بما معناه:

«ما من رسم أو صورة إلا أرىٰ فيه رسَّامه ونقّاشه» .

التي يتوصل بها من يتوصل – من خلال هذا الكون العامر

(١) وكثيرًا ما يطلق الناس : من ثقلت كفة حسناته نجا، ومن ثقلت كفة سيئاته هلك. بيد أن القرآن الكريم دأب على بيان أنه لا يقام الوزن إلا للأعمال التي تُرضي خالقَ الكون سبحانه وتعالى . وأما ما لا يُرضيه فإنه يتلاشىٰ وزنًا . فنجد قوله : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُه) بإزاء قوله: (فَمَنْ خَفَّت مَوَازِيْنُه) في غير موضع من القرآن الكريم .

بمظاهر الكمال والفضل إلى الذات المتصفة بالكمال والفضل ، ويصيح بما قاله الشاعر الفارسي ما معناه :

«وإن لم تنظر العين الفاسدة ، فإني أرىٰ رؤية لا غبار فيها» .

مما صرّح به القرآن الكريم فيما يأتي مشيرًا إلى مَن فَقَدَ أو حُرِم هذا الشعور المقدس من الوجدان اللاهوتي أو الحصيلة السبوحية قائلاً: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوْا وَاتَّخَذُوْا آيَاتِيْ وَرُسُلِيْ هُزُوًا) لنتأمل : ماذا أن يكون أو يمكن أن يكون مصيرهم غير ذلك .

إن ملكاً من الملوك برز لنا بكل ما يختصّ بالملك : تاجه وأريكته ، وسيفه وجواهره ، وهيئته وإكليله ، وخدمه وحواشيه ثم يأبىٰ مَن يأبىٰ قبول أوامر هذا الملك ورُسُلِه ، مُتعلِّلاً بأن الملك لم يتجلَّ لَنا مجردًا عن الأجهزة الملكية . وأتساءل : إن الذين خرجوا على الملك بهذه الحجة الداحضة إذا ما وجدوا أنفسهم قد تعرضت لبطشه وعذابه ، فما ذا عسى أن يرجوا غير ذلك .

وإني ليأخذني العجب والحيرة من أن يتمثل لنا خطاط بارع، قد غُطِّيَ من رأسه إلى أخمص قدميه بأوراق مُزدانةً بمواهبِهِ الخطيّة، وعامرةً بها . فهل من مغالطةٍ سافهةٍ أو تحكّمٍ أشنع من أن نقول : إن الخطاط لم يتمثل لنا ، وإنما عرض علينا خطّه ؟

وعلى كلٍ ، فهولاء المغالِطين سيواجهون – ولابد أن يواجهوا – مغبة أعمالهم من الله تعالى . وإذاً لِنَدَعْهمْ ومصيرهم الجهنميّ هذا ، ونتأمل في الشطر الأخير من هذه الفقرة ، وهو قوله تعالى: (واتَّخذُوْا آيَاتِيْ وَرُسُلِيْ هُزُوًا) فتبرز لنا علامة أخرىٰ جديدة تساعدنا كثيرًا – على التعرف على هذا الحزب المعين والتوصل إليه .

والحاصل أنه قد مرّ بك معنىً من معاني كلمة «الآيات» أي أن الله تعالى أبدىٰ فضله وكماله في صحيفة قدرته، وصفحات كونه، وجعل الكون وآثاره، علامةً وآيةً على ذاته المقدسة. وهذا إطلاق من إطلاقات القرآن لكلمة «الآيات». كما أن هذه الكلمة تطلق على مظاهره الكلامية التي أبدىٰ فيها سبحانه وتعالى مرضاته ورضوانه. فكلاهما من المصطلحات والتعبيرات القرآنية فالحق أن صحيفة قدرته، والصحيفة القرآنية آياتُ كلٍ منهما آيات.

وأسلفت أن من غاب عنه فكرة استخدام آيات صحيفة قدرته على أنها آيات خَمَدَ في قلبه الرغبة في لقاء ربه تعالى. وبالتالي يُسلَب الحرصَ على تلمس مرضات ربه القيوم. ثم لا يقدُر قدر الصالحين الذين يختارهم الله تعالى لبيان رضوانه، ممن نعرفهم بـ «الرسل والأنبياء» – صلوات الله عليهم وسلامه – فتَخرج أو تُسَلّ من قلوبهم أهمية الرسالة، والكلام الذي خلخب به عبادَه خالقُهم على ألسنة الأنبياء والرسل. وإن هذا الوضع النفسي اللعين من التدهور العقلي، والتخلف الفكري يصل إلى مرحلة من الظلام الداخلي والشقاء الذي يعود فيه الرصيد الإبليسي الأكبر من الحكمة والعلم والعز والكبرياء مجرد استهزاء بآيات الله، وتهكمًا بالرسل الذين يبلغونها.

وهذا هو المصير النهائي بل النتيجة الحتمية التي أدّىٰ إليها الحرمانُ من فكرة استخدام الكون على أنه آية من آيات خالقه القيوم، نتيجة حتمية تنشق منهم عفونتها وقذارتها في هذه الحياة الدنيا قبل موتهم. وبهذه العفونة تعرفهم كلُ الأزقة والزوايا.

كما أنهم يعرّفون أنفسهم بهذه العفونة، والبخار الكريه. ويعود هذا الاستهزاء منطقَهم، وهذا التهكُّمُ فلسفتَهم. ويصبح كنيف هذا الاستهزاء بالدين جزءًا لا يتجزىٰ من كتاباتهم وخطاباتهم، ورسائلهم وصحفهم، وقصصهم وأسمارهم، وحتى من مسارحهم وملاهيهم. كما أنه علامتهم النهائية، وميزتهم التي تنتهي بها الإشارات القرآنية التي تخصّهم.

فعلينا أن نتعرف من خلال هذه الآيات والعلامات القرآنية على الذين سمّتهم الأديان والملل بـ «يأجوج ومأجوج» أو بما يماثله من الأسماء، وحذّرت الناس منهم. ويجب أن نولي – كما أسلفت – ميزاتهم وخصائصهم أهميةً أكبر من أعيانهم وذواتهم ممن جعلته صُحف الرسل والأنبياء فتنةً كبيرة غير عادية من الفتن التي تفتن المرء عن دينه، ولا أقل من أن الحجة قد تمَّتْ على أمةٍ تؤمن بالقرآن كتابَ الله تعالى. وإن ما يفيده البينات والتصريحات القرآنية السالفة لايسع أحدً أدركها أن يقول: إنه غاب عنه قيمة الطاقات، والقوى الإنسانية في خيات تراب العواصف الفكرية، والنزاعات العقلية التي آثارها فتنة «اليأجوجية والمأجوجية»؛ فإنه لايَدعُ لهذا العذر مجالاً ومسوِّغًا.

بشرىٰ لأهل الإيمان

ويبدو أن القرآن الكريم – إشارةً إلى ذلك – بشّر الذين آمنوا به وبالرسول الذي جاء به، والذين قضوا حياتهم خاضعين لمتطلبات هذا الإيمان بقوله: (إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا، وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِيْنَ فِيْهَا).

ورغم أن بشرىٰ القرآن هذه لهم بشرى عامةٌ شاملةٌ ، ثمَّ إعادتها وتكرارها مرّات ومرّات – أي أن السعي على تكييف هذه الحياة الأرضية التي لاتعدو أيامًا – مع القوة الكونية المركزية والوجود المحوري ، ليصل بصاحبه إلى الجوّ الذي سيَجِد فيه قوة الكون المركزية ، والمحور الوجودي منسجمًا مع كل ما تشتهيه نفسه وترغب وتشعر . وهذه الحياة تُورثُها النتيجة العامة المركزية تسمى بالحياة الفردوسية ، غير أننا نجد هذه البشرىٰ تتضمن – بهذه المناسبة الخاصة – زيادةً خاصةً هي : (لاَيَبْغُوْنَ عَنْهَا حِوَلاً) ، وأودّ أن أتحدَّث عن هذه الزيادة قليلاً:

وأما الاعتقاد بأن الإنسان الذي سيتمتع بهذه الحياة الفردوسية – التي تُورثِها النتيجة العامة – لا يبقىٰ إنسانًا ، وإنما يعود ملكاً ؛ بل يصبح – والعياذ بالله منه – خالقًا بعد ما ينصهر ويفنىٰ في ذات الخلق، كما يُؤَكَّد – في شأن الوضع الذي يُعَذَّب فيه الإنسانُ – على أنه لا يبقى إنسانًا ، وإنما يعود فرسًا وفيلاً ، وثورًا وفأرةً وما إلى ذلك ، فكما هو معلوم أن القرآن الكريم لم يَدَع مجالاً لمثل هذه المعتقدات المفنَّدة ، والأوهام المختلقة ، ونادىٰ – وكرّر نداءَه – في كل مكان بكل صراحةٍ ووضوح ، أن الإنسان في الوضعين – أي عقابه وعذابه ، وثوابه وجزائه – يبقى إنسانًا كما هو بكل عولخفه ومشاعره ، وخصائصه وميزاته ، في الحياة القابلة التي يصير إليها.[1]

[1] ولدراسة الموضوع ارجع إلى كتابنا : «الدين القيم» الذي نشره مكتبة الفرقان قبل بضعة أعوام .

ونظرًا إلى ما تختصّ به الفطرة الإنسانية من أن كثرة تناول ألّذ الأشياء تُورث في الإنسان الملل والسآمة ، وأن توفير أسباب العيش على أعلى المستويات وأرفعها ، وحياة الراحة والدعة ، إذا ما استمرّت وتتابعت على الإنسان ، تعود شاقةً تُقِضّ مضجعه . فالوجبات التي تقدّمها مطاعم السكن الطلابي لايستسيغها الطلاب عادةً ؛ إذ يَملُّون تكرار أنواع محددة من الوجبات . وهذا قانون ومتطلب خبيعي ، جُبِلَ عليه الإنسان . وهذا يُثِير الوساوس والشكوك في مدىٰ استدامة الراحة والدعة على الإنسان في الحياة الفردوسية الدائمة الخالدة .

ويبدو أن مفاد هذه الزيادة الجديدة (لاَيَبْغُوْنَ عَنْهَا حِوَلاً) قد يستهدف القضاء على هذه الوسوسة.

وأما قوله : (قُلْ لَوْكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّيْ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّيْ ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِه مَدَدًا) فيبدو – في النظرة الخلخفة – غير مرتبط بما قبله . ولكن لو أمعنّا النظر فيه ، لوجدنا أن ما قد توسوس به النفوس – أي مخافة الملل والسآمة من استدامة الحياة الفردوسية ، كما يقتضيه الطبيعة الإنسانية العامة – تضمن هذه الآيات الوقاية منها .

والحق أن ما يلتذّ به المشاعر الإنسانية في الحياة الفردوسية ، لايصحّ أن نفترض في خصوصه أنه يُرزَق دائمًا ما رُزِق أول مرةٍ . والآية الشهيرة من سورة البقرة(٢٥) : (كُلَّمَا رُزِقُوْا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوْا : هَذَا الَّذِيْ رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) تشير إلى أنه كلما يظنّ المرء أنه أُعِيدَ له شيءٌ من الأشياء ، قُضِيَ – بالتجربة العملية – على أنه

لايشبهه إلا صورة ، وأما معنىً وفي الواقع ، فلا يُكَرَّر شيءٌ في الجنة أبدًا ، وأنّىٰ يتمّ الإعادة والتكرار لشيء حيث يسوده القانون الكلي الذي تتطلبه لفظة : (كُلَّما) . وقال ابن عباس[1] ذات يوم وهو يعظ : «ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء».[2]

ولِنَقُلْ – إذًا – إن «التفاحة» التي تُقدَّم لأهل الجنة – مثلاً – تكون تفاحة لاغيرُ . إلا أن تفاحة الجنة تختلف عن تفاحة الدنيا تمامًا . فلا يشتركان إلا في اللفظ والاسم . ثم كيف تفاحة الجنة بجميع مواصفاتها ؟ يشير إليه الحديث الشهير : «ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».[3]

والحق أن هذا الحديث تفسير وضّح معنى قوله تعالى : (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ) (حـٰم سجدة/٣٢) . وكل ذلك يفصّل ما أجْمِلَ في قوله تعالى : (لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ) (سورة يونس/١٠). ولفظة «زيادة» الواردة في هذه الآية، يدل الصحيح من الآحاديث والآثار على أن المراد منها: ربط الفطرة الإنسانية بالذات الإلٰـهية المباركة برباطٍ مباشرٍ.[4] تلك

---

[1] ابن عباس (٣ ق هـ – ٦٨هـ = ٦١٩–٦٨٧م) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي ، الهاشمي ، أبو العباس: حبر الأمة ، الصحابي الجليل . لازم رسولَ الله ﷺ وروى عنه الأحاديث . له ١٦٦٠ حديثًا . كان آيةً في الحفظ ، ينسب إليه كتاب في التفسير. (راجع الإصابة ٣٣٠/٢ ؛ والأعلام للزركلي ٩٥/٤) .

[2] الدر المنثور ٣٥/١ .

[3] رواه البخاري في بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة [٣٢٤٤] ٣١٨/٦؛ ومسلم في الجنة [٢] ٢١٧٤/٤.

[4] روى مسلم (في كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين.. [٢٩٧] ١٦٣/١) ، والترمذي (في تفسير سورة يونس [٣١٠٥] ٢٦٧/٥) الحديث الشهير الذي يدل على أن

الذات التي لاتقف أسماؤها وصفاتها ، وكمالها وفضلها عند حدٍ، وبمظاهر تضامن هذا الكمال والفضل غير المتناهي – الذي لاتُعَرفُ درجاتُه بدايةً ولا نهايةً ، كمًّا وكيفًا – يُضفي الله سبحانه وتعالى على علمه اللامتناهي وجودًا شهوديًا بكلمة «كُنْ». وكلمة «كُنْ» اللامحدودة هذه نشأت عن العلم اللامتناهي . ولامحدوديتها هذه قد تَمّ وصفها في الآية السالفة – كما ينصّ عليه أصحاب التحقيق – بأن البحر – ولو مدّ بعده بحر – لن يَكفِيَ كتابة كلمات الله اللامحدودة هذه . وذلك يرجع – كما هو الظاهر – إلى أن المحدود هيهات أن يحيط باللامحدود ويستوعبه.

معنى كلمة الله

ولايعزبن عن بالك أن وصف القرآن الكريم المسيح عليه السلام بـ«كلمة الله» لايعني إلا أنه خُلِق بكلمة «كُنْ» مباشرةً . وبما أن الحقائق الفردوسية يتم إيجادها بكلمة «كُنْ» مباشرةً فسمّيت بـ«الكلمات» .

فتأمل إذا ما يتمّ ربط الفطرة الإنسانية – مباشرةً – بالذات المباركة التي لاتنتهي كلماتها ، فهل لأحد أن يتوجَّسَ خيفةً من وقوفها وانقطاعها عندما تتوصل إلى درجةٍ معينةٍ ؟ ففي جانب منها لامحدودية خلبنا وحرصنا مما لايرضىٰ الوقوف عند حدٍ . وإن البحث عن الأفضل و الأروع في الحياة الدنيا مما يتطلبه فطرتنا وجبلتنا . وإن الذي خَلقنا ، خلقنا وهذه اللامحدودية من الطلب والبحث.

أهل الجنة يكشف لهم الحجاب بعد ما ينالون ما أرادو . ويتمّ ربط العبد بربه دون حجاب . وارجع في شرح معنى : «زيادة» إلى المصادر .

وبإزاء ذلك جعل ذاته المتصفة بالكمال اللامتناهي مطلبًا خبيعيًا لنا . وهذا الذي توخيت من أن الآية السالفة ، وإن بدت غير مرتبطة بما سبقها من الآية ، ولكن استقصاء النص القرآني وتتبعه ، يدل على أن الارتباط أوثق ما يكون فيما يشعر ذو النظر الخلخفة بتلاشي الارتباط .

فالحياة الفردوسية إذا كانت تتّصف بقانون التجدد والتنوع بشكلٍ مستمرّ ، فماذا عسى أن نقول غير: (لاَيَبْغُوْنَ عَنْهَا حِوَلاً).

والحق أنه إذا كانت الاستضافة بالحياة الفردوسية ، فماذا عسى أن يلقىٰ المرء بعدما تصبح الجنة مستقرًا له وموطنًا . وصدق الله مولانا العظيم إذ قال : (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ) (سورة آل عمران/١٥) .

وأتذكر ما قاله الشاعر الناقد الدكتور إقبال[1] ولا أدري إذا كانت ذاكرتي لاتخونني ، ولكن تعبيرًا أصدق ما يكون عن ذلك التجدد الدائم والتلذذ غير المتناهي ، قد خزنته ذاكرتي ، وربما بنصه ، ما معناه:

«إن الحرقة لحياة . وإن الحرقة لدوام ، وإن قلبي مسافر راحلٌ فليكن الله حليفه».

---

[1] (خُلِقَ الإِنْسَانُ هَلُوْعًا) والهلوع معناه ما قال الشاعر الأردي ما معناه :

«إنها لآلاف من الرغبات والأماني ، تُؤدي كل منها بالحياة ، وما أكثر ما تحقق منها ، ولكنها غير كثيرة» .

وروى البخاري (في الأذان باب فضل السجود [٨٠٦] ٢/٢٩٣) ، ومسلم (في الإيمان باب معرفة خريق الرؤية [٢٩٩] ١/١٦٥) قصة خروج رجل من النار بعد ما امتحش ، فيسكت ماشاء الله أن يسكت ثم يتقدم ، ثم يسكت حتى يدخل الجنة .

ويقول أهل التحقيق : إن هذا تمثيل يوضح ما جُبِلَ عليه الإنسان من الاستعجال واللامحدودية .

وإليه يشير رحمه الله بشطر من بيته ما معناه:

«إنك لا تعجزين أن تصِلي إلى الله تعالىٰ ، وتُدركيه أيّتها الشجاعة الرجالية» .

إذاً لنا أن ندرك أن الذين يصرفون جميع خاقاتهم ومساعيهم عن جميع الوجوه إلى هذه الحياة الدنيا ، ويضيّعونها فيها أشدِدْ بالظلم الذي يمارسونه على أنفسهم وعلى الإنسانية .

ولقد كان مولانا الروم يصيح قائلاً ما معناه:

* لا تظن أن كل زاهد تخصّه الطهارة ، ولا تهونَنّ نفسُك عليك ؛ فإنك شيء غالٍ .

* إنك لم تتجلَّ بعدُ ، فلم تشاهد جمالك ، إن سحرًا كالشمس سيصدر من داخلك .

* إن الكون يعود اليوم مقبرة الإمكانيات الإنسانية، غير أنه يدرك من يدرك أن هذا العهد – الذي نعيشه – يشهد ظهور هذه الإمكانيات . فيموت من يموت ، ويقضي نَحبَه ، ويظن غيره أنه يعيش ويحيى . وصدق الشاعر الأردي «أكبر» إذ قال ما معناه :

«قد يطيب للجميع أن المبضع يجري في العملية الجراحِية جريًا، وهم في غفلةٍ أن المصاب قد يلفظ نفسَه» .

بعضها لاكلها

والحق أننا فوجئنا في القرون القليلة الأخيرة بظهور بعض الأقساط – لاكلها – من الاستدراج الدجالي ، ولكن ماذا تدلّ عليه ؟ تقول التجربة والمشاهدة إن الرغبة اللامتناهية في البحث ، مما يحمله الفطرة الإنسانية ، لاتزال تفقد – اليوم – القناعة والهدوء

كما كانت بالأمس ، ولم نشاهد – ولن نشاهد – إلا ما مرّ علينا في الأمس الدابر.

إن التسهيلات التي كان يفقدها ملوك الأرض بالأمس ليتمتع بها اليوم كل أعرابي ، وقروي همج. وليرجع كل منا – فرادى وجماعات – إلى نفسه ويتأمل : هل انسَدَّ الفراغ – الذي كنا نعيشه – انسدادًا ما ؟.

واعلم أن العالم لو استخرج جميع قدراته إلى آفاق خلبنا الطبيعي ، فإنها تتلاشىٰ فيها تلاشي حبة الخردل في الصحراء الجرداء . إنك لن تستطيع أن تملأ بطن الأسد بالأعشاب دون اللحوم ولا أن تقنعه بالعلف . يا ويلتى ! إن الإنسان يسفّ التراب، ويجعلونه يسفّه ، مما قال فيه من قال ما معناه :

«إن القبضة إلى القبضة لتصل بل إلى الله ، وما عدا ذلك فاضربه وراءك»

إن الذي اُسْقِط من عليائه يؤكد له أنه يصعد إلى السموات .

استدراك

والآية الأخيرة التي تنتهي بها سورة الكهف قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوْحىٰ إِليَّ انَّما إِلٰـهُكُمْ إِلٰـهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ، وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَدًا)

وما سبق هذه الآية يبدو أنه لايرتبط بها كثيرًا، ولكن تأمل أنه ذكر فكرة توليّ الاختصاصين والقادة – دون الإشراك – تخلصًا من التبعات القانونية التي فرضها خالقهم ، ثم ماخعن فيه ، إذا ما نظرنا إليه ، أفليس من الطبيعي أن يتساءل أو يمكن أن يتساءل المرء

عما إذا كان اتخاذ من دون الله أولياء . وتوليهم جريمةً، فإن هذه الجريمة قد ركبها أولئك الذين يتخذون الرسل والأنبياء وسائط فيما بينهم وبين الله تعالى ، واستعانوا بولايتهم ، والقرآن الكريم ينصّ بدوره – على (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُوْلُه) (سورة المائدة/٥٥).

ولاشك أنها شبهة تستلزم كشفها ، وبيان الحق والصواب . والحق أن الوسلخة بين العباد وربهم ، أمر لايسع إنكاره . إن من أحدٍ إلا يشاهد التوسط بالشمس إلى الضوء وبالبقرة والجاموس – مثلاً – إلى الحليب . إذاً نفي الوسلخة بين العباد وربهم رفض لأمر مشاهد بديهي ، إلا أن المهم في الأمر ممارسة هذه الوسلخة ، كيف هي ؟

وقد مرّ بك ما يتميز به موقف المشركين أي أنهم فرارًا من المسؤوليات التي فرضها الله تعالى ذهبوا إلى أن يقدّموا هذه الوسائطَ فيما يهمّهم ، ويقربوا إليها ما يُرضِيها من القرابين ، ويتضرعوا إليها زعمًا منهم أنها ستحقق لهم ما أرادوا .

وبإزاء ذلك حيلة أخرى تخلصهم من هذه المسؤوليات ، وهي أن يخرّجوا أناسًا أمثالَهم مهرةً اختصاصيين في مختلف مجالات الحياة ، ويعولوا على هؤلاء الاختصاصيين والقادة في قضاء حاجاتهم ، بمعزل عن الله تعالى كل الانعزال . وبما أن هذين الوجهين يمثلان الخروجَ والاستنكافَ عن ربهم ، والتهّربَ من تحقيق الهدف من وراء وجودهم ، رفَضَ القرآن الكريم وجوه تولي الوسائط هذه . وأما وجه الولاية الذي يؤمن التوصل إلى الخالق ومرضاته، ويصل بالإنسان إلى الهدف الطبيعي من وراء وجوده وولادته، فإن هذا الوجه من الولاية حاجةٌ ماسَّةٌ لاغنىً

عنها في هذه الحياة الدنيا، ولن توفّق الحياة الإنسانية بمعزل عنها، فأُوصِيَ الإنسان الأوّل - أبو البشر - حين أُنزِل من السماء بـ(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّيْ هُدَىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلاَهُمْ يَحْزَنُوْنَ) (البقرة/٣٨) .

فهذه الآية الأخيرة من سورة الكهف تكشف - فيما أرىٰ - هذه الحقيقة . وأمر الرسولُ ﷺ أن يصرّح - تصريحًا - بأنه ليس إلا بشرًا مثلهم ، وإنما اختاره الله تعالى لبيان مرضاته وتبليغها . وروحها الجوهرية وعنصرها الأساسي ، أن يُتَّخذ خالقُ الكون إلـٰهًا يعبده الإنسان ، ومرجعًا يرجع إليه في قضاء حاجاته كلها : صغيرها وكبيرها ، دينيها ودنياها ؛ ومصيرًا يصير إليه جميعًا . وهذا معنى وملخص قوله تعالى : (إنما إلـٰهُكُمْ إلـٰهٌ وَاحِدٌ) .

وأما قوله : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحًا ، وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَدًا) فأرىٰ أنه يوجّه إلى الطريقة العملية إلى اتخاذ خالق الكون إلـٰهًا واحدًا بمعنى الكلمة .

وحاصله - فيما يبدو - أن الذين يتمنون الارتباط بالله سبحانه وتعالى ارتباطاً مباشرًا فإن عليهم أن يستقيموا على النهج في حياتهم الدينية ، لتصبح حياتُهم عامرةً بالعمل الصالح . «والعمل الصالح» وإن كان عامًا شاملاً إلا أنه تَلاَهُ بيان عبادة الخالق ، وعلاقته بعباده التي يجب أن يتقيدوا بها فَلِنَعْلم - إذاً - أن السعي على إصلاح ذات البين مع الخلق ، وعبادة الخالق من شأنه أن يصل بالمرء إلى العاقبة الحسنة .

ولِنَعْلَمْ أن الذين نراهم نشيطين في عبادة الخالق بالصيام

والصلاة ، مهملين علاقتهم مع الخلق أو العكس أي الذين يركزون على العلاقة مع الخلق، ويُحرَمُوْنَ الاتصال اللازم بالخالق: كلا هذين الصنفين من الناس قد ضَلّ عن الوجه الطبيعي الحق من السلوك الإنساني ، ولايهتدي إلى الصراط المستقيم إلا من جمع بين الأمرين .

أضِف إلى ذلك أننا إذا لاحظنا تقديم العمل الصالح على عبادة الربّ في الذكر فيبدو أنه يوحي إلى أن الذين يفسدون ذات البين ، ويرتبطون بالخالق، فإنهم يقفون موقفًا غير طبيعي .

وانتهت خطرات ومشاعر عبد ظلوم جهول فيما يخصّ سورة الكهف عند أذان العصر الثاني عشر من ربيع الثاني ١٣٧١هـ الموافق ١١/ من يناير ١٩٥٢م بكهف الإيمان المعروف بـ«الغرفة».

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا. ربنا ولا تحملنا مالاطاقة لنا، واعف عنا ، واغفرلنا، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت السميع العليم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات .

هذا والسلام على من اتبع الهدىٰ

العبد / مناظر أحسن الكيلاني

* * *

الفهرس